تصوير

أحمد ياسين



مآسي الأندلس



السفير
د. محمد بن عبد الرحمن البشر



العبيكان
Obeikan



مآسي الأندلس

مآسي الأندلس

سعادة السفير

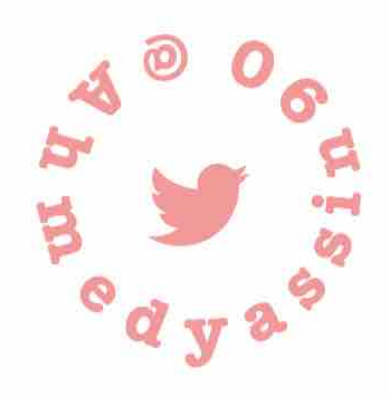
د. محمد بن عبد الرحمن البشر

ⓗ محمد بن عبدالرحمن البشر، ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البشر، محمد بن عبدالرحمن.
مآسي الأندلس./ محمد بن عبدالرحمن البشر.- الرياض، ١٤٢٩هـ
٢٩٢ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.
ردمك: ٩ -٠٨١٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١. الأندلس - تاريخ أ. العنوان
ديوي ٩٥٣,٠٧١ ١٤٢٩ / ٣٧٥٧
رقم الإيداع: ٣٧٥٧ / ١٤٢٩
ردمك: ٩ -٠٨١٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤ / فاكس ٤٦٥٠١٢٩
ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥




@Ahmedyassin90



السفير

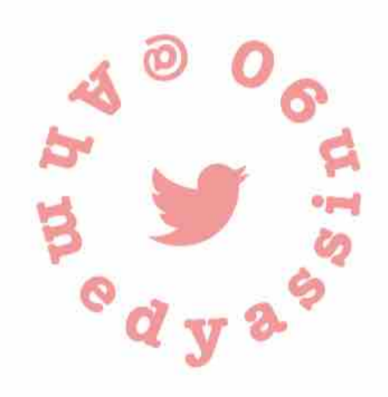
الدكتور/ **محمد بن عبدالرحمن البشر**

إهداء

إلى كل ناشد عِبرة، لا يقف عند عَبرة، وطالب جِدٍّ لا يركن إلى جَد، من الأحداث متعظ، ومن المآسي ممتعض، يروم المعالي، لا يثنيه عنها خطوب الدهر وعثراته.

إلى كل راغب في الاستزادة من المعرفة بحقائق التاريخ، مستمتعاً بما سطره من قصص وأحيانا أساطير، أهديت هذا الكتاب؛ ليطل منه القارئ الكريم على مآسي الفردوس المفقود.




@Ahmedyassin90

مُقَـدّمة

عندمـا كنت في الصين سفيراً فوق العـادة أبت حضارته وتاريخه إلا أن أمسك القلم؛ لأسطر شيئا عن تلك الحضارة القديمة الغنية الفريدة الغائب جلها عن مكتبتنا العربية، فسطرت كتاباً عن حضارة الصين أسميته: «حضارة الصين».

وبعـد انتقالي للعمل سفـيرا فوق العادة للمملكـة العربية السعودية لـدى المملكة المغربية الشقيقة استنشقت عبق التاريخ، فرويت ظمئي من معين مائه، وأضفت لزادي خراج حضارته، فداعبت نسماته أفكاري، وابتلت عروقي بعذوبة سلسبيله، وأقام عودي طيب غذائه.

فوضعـت كفي علـى خزائن ثمينة سطرها أجـداد لنا في طياتها بعضٌ من مآسيهم، وكثيرٌ من مباهجهم، وعديدٌ من قصصـهم، فمالت النفس إلى الكتابة عنهم، واستمالت القلب إلى نجواهم، فأخذتُ في قراءة أمهات الكتب، وتعرفت على شيوخ الكتاب مثل: ابن حيـان، والمقري، وابن بسـام، وابن خلدون، وابن حزم، وابن عبـد ربه، وابن الأبار، وابن الخطيب، والضبي، وابن بشكوال، والقضاعي، والمراكشي، وابن أبي زرع وابن دحية، وابن خاقان، وغيرهم كثير.

فجعلـت تلك الكتب خـير زادي، ورفيق وحدتي، وأنيس خلوتـي، ونديم سلوتي، وطيب مهجتـي، فنادمتها في كل ليلة من الساعة السادسـة مساء حتى ما بعد منتصف الليل، لا يصدني عن مؤانستها غير ما يقتضيه عملي الوظيفي، وقد كنت أنتظر الساعة التي أعود فيها إلى منزلي؛ لأستمتع بما يقع عليه ناظري، وما تستجمعه أفكاري، وما يستطيبه حسي الأدبي، فأطرب لكل شعر جميل، ونثر فصيح، وقول مليح.

ولقد وجدت في تاريخ الأندلس كثيرا من المآسي التي ذرفت لها عيني، وضاقت بها نفسي، واحترقت لها كبدي، ولولا أن كلمة «لو» تفتح عمل الشيطان لكان جلُّ هذا الكتاب «لو».

نعم، لقد ضاع من الفرص ما لا يمكن حصره؛ بسبب معاول هدم داخلية منها المصالح الشخصية وغلبة الأحقاد ولذة النساء وحب الولد، ومعاول أخرى خارجية لم تترك نافذة يمكن الولوج منها إلاَّ ووجدت وسيلة للنَّفاذ من خلالها.

ضاعت الأندلس بعد أن كانت محطة عبور العلوم إلى أوروبا مدة غير يسيرة من الزمن، وكان ضياعها بأيدي أبنائها في الغالب، فما عسانا نقول، وهل لنا أن نعتبر؟

كان بإمكان الأندلس أن تجعل أوروبا مسلمة فتستفيد أوروبا من الإسلام ويستفيد الإسلام من أوروبا، إلاَّ أنَّ أبناء الأندلس أبَوْا ذلك من خلال ممارساتهم التي كانت خلاف ما أمرهم به باريهم.

فتح المسلمون الأندلس وكان وراء ذلك الفتح امرأة، وسقطت الأندلس بعد أن لعبت النساء دوراً كبيراً في كثير من عهودها.

لقد أرسل «جوليان» حاكم سبتة ابنته إلى لذريق حاكم بلاد القوط بغرض تأديبها بالآداب الملكية، فتاقت نفس حاكم بلاد القوط إليها فواقعها، فشجع حاكم سبتة المسلمين على فتح الأندلس انتقاماً لابنته، وهكذا كانت بداية الفتح للأندلس.

واشترك العرب والبربر دون تمييز في سبيل فتح أرض جديدة للتعريف بالإسلام ونشره، ودعوة من يرغب الدخول فيه، وترك الحرية لمن أراد البقاء على دينه أو معتقده.

في بداية الفتح أبرم الله للمسلمين النصر تلو النصر في أوقات وجيزة وبخطوات متسارعة، فانبهر القوط والإفرنج وغيرهم من هول ما حازه المسلمون، وما تيسر لهم من مغانم، فاجتمعت الإفرنج إلى كتاب المسهب حيث قالت له: «ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع عن العرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها، واستولوا على الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي ألاَّ تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يأخذ من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نوايا تغني عن العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم؛ حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرئاسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر، قال: فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين، والبربر والعرب، والمضرية واليمانية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء.

وأقول: وبمثل ما ذكر ضاعت الأندلس، واندرست حضارتها، وبقيت شواهد تلك الحضارة العظيمة فأبكت السابقين من أبنائها، واستمطرت دموع التابعين ممن قرأ عنها أو شاهد آثارها.

لم تخل عصور الأندلس المتلاحقة من المماحكات والأهواء والحقد والتنافس على الرئاسة وحب الانتقام، متفاوتة في نوعها وحجمها، طبقا للظروف السائدة وقدرات القادة، حيث تخبو تارة وتشتعل تارة أخرى.

ومن حسن طالع الأندلس أن الصراع الطائفي والمذهبي لم يكن موجودا في حياة الأندلسيين على امتداد عصورهم المختلفة، فقد ساد مذهب الأوزاعي في بداية الأمر، ثم أعقبه المذهب المالكي في عصر هشام بن عبدالرحمن الداخل حيث أصبح مرتكَزاً لوحدتهم، وبذلك تجنبوا كثيراً من أهوال الحروب المذهبية التي ربما تكون أكثر حدة من حروب المطامع وحب الانتقام.

أما النساء ودورهنَّ، فلم يُسطر التاريخ لهنَّ دوراً فاعلا مع بداية الفتح، باستثناء تلك القصة المتعلقة بعبدالعزيز بن موسى الذي تزوج بزوجة «لذريق» ملك الإفرنج المهزوم، وأنا لا أشك في أنَّ دورهنَّ في البناء كان فاعلا مع بداية الفتح إلا أنَّ المؤرخين أهملوا ذلك.

بعد الفتح جاء العصر الأموي، وقد كان عصر بناء دولة ذات كيان سياسي مستقر مدة طويلة حتى أخذت الأندلس بعده في الترنح ثم السقوط.

دخل عبدالرحمن الداخل الأندلس وهو في الثانية أو الرابعة والعشرين من العمر مستغلا وضعا سياسياً مناسباً استطاع الاستفادة منه بتوفيق من الله أولا ثم بحنكته وحزمه، وحذره الشديد، وحضوره الذهني الدائم، ونيله من خصومه دون رحمة حتى وإن كانوا أقرب الناس إليه رحماً وعوناً.

ومع أن عبدالرحمن الداخل فعل ما فعل، إلاَّ أنَّ الكلمة أجمعت عليه، ليؤسس بذلك دولة فتية أينعت ثمراً طاب مأكله لدى الأندلسيين، وغرس بِذَارَهُ الأوروبيون فكانت نتائجه ما نراه من تقدم في عصرنا الحاضر.

وبعد وفاة عبدالرحمن الداخل، تولى الأمر بعده ابنه هشام الذي كان ورعا، محبا للخير، جَمَّ التواضع، قَدِم في عصره كثير من علماء المذهب المالكي، فساد المذهب وتكونت الوحدة المذهبية.

وبعده تولَّى الأمر ابنه الحكم بن هشام الربضي، وكان على النقيض من والده، منهمكاً في لذَّاته، مجاهراً بها، متكبراً، غارقا في اللهو، قتل الكثير من علماء الدين في موقعة الربض فسمي «الربضي» نسبة إليها.

ثم تولى الإمارة عبدالرحمن بن الحكم ولقب بعبد الرحمن الأوسط، ولقد سار سيرة أبيه في البذخ، وبناء القصور، والاحتجاب عن الناس، كما أحبَّ سماع الموسيقى وشغف بالنساء، لكنه لم يجاهر بمعصية، ولم يقتل بالظنة، ولم يكن قاسياً، على أنَّ شهرته ذاعت لقصته مع حظيته «طَروب» التي قلدها مقاليد قلبه، وسلَّمها مفاتيح أمره بمعاونة أحد الخصيان المسمى «نصر».

وبعد عبدالرحمن الأوسط الذي مات، مخلفاً مئة وخمسين من الأبناء ونحوهم من البنات، تولى الإمارة ابنه محمد ثم المنذر بن محمد ثم عبدالله بن محمد حتى وصلت إلى حفيد عبدالله وهو عبدالرحمن الملقب بالناصر الذي كان عهده واسطة العقد، وكان عهداً ذهبياً للدولة الأموية، وزينة الأندلس علماً وعمراناً واستقراراً ورخاء وهيبة لدى الأمم الأخرى، وقد شيدت فيه الزهراء وكثير من رموز الأندلس العلمية والعمرانية، وقد وفدت الوفود إلى الأمير من سائر البلدان تنشد وده وتطلب مهادنته.

ولم يكن في عهده الكثير من المآسي، فهو عهد ازدهار وهدوء وانحسار للفتن والقلاقل مع عدم خلو عهده منها، فبدلا من فتن الحروب بإشهار السلاح ودكِّ الحصون وكسب الأرض، سادت فتن النساء، ودكّ الصون، وكسب القلوب. حيث كان صراعاً ذهب ضحيته قادة ووزراء وحجَّاب. وصاحَبَ هذا العهد الكثير من صنوف اللهو والمجون والشغف بالنساء.

وبعد وفاته أصبح ابنه الحكم الملقب بالمستنصر خليفة للمسلمين، بعد أن تسمى بالخلافة والده من قبله، وكان صالحاً في نفسه، جمع الكثير من الكتب، ورام قطع الخمر من الأندلس واستئصال شجر العنب، لكنه عدل عن ذلك، واتسم عهده بالهدوء والدعة، اللَّهم سوى خشية من المدِّ الفاطمي القادم من الشرق وبعض القلاقل في الشمال.

وبعـده بدأ الترنح في عهد هشام المؤيد، فقد كان عهدا مليئا بالمكر والخداع والتنافس بـين أصحاب النفوذ، فذهب ضحيته من ذهب من سُراة القوم، وأصبح الحكم الظاهري في يـد صبـي في الثانية عشرة من العمر وأمّه صبـح البافارية، أما الحكم في الواقع فكان يتنازعه ثلاثة أقطاب هم الصقالبة مسؤولو القصر، والحاجب جعفر المصحفي وهو رأس الدولـة، ومحمد بن أبي عامر مدير الشرطة والقريـب من قلب «صبح البافارية»، فكانت الغلبة في نهاية الأمر لسلطان القلب، حيث ظفر ابن أبي عامر بأمور الدولة.

وبهذا تكونت دولة الحاجب المنصور ابن أبي عامر مع بقاء الرمز هشام المؤيد، والحق أنَّ الحاجب المنصور كان صنديدا، مقداما، إذا خُوِّفَ من عقاب الله ازدجر.

وآلـت الحجابة بعده لابنه عبدالملك المظفر بالله، حيـث امتدت حجابته سبع سنوات، وكانـت تسمـى «بالسابع» تشبيهاً لها بسابع العروس، علـى أنَّ عصره لم يكن عصر مآس على مستوى العامة، غير أن بعض المآسي أصابت بعض الخاصة.

وانتقلـت الحجابة بعـده إلى أخيه عبدالرحمن «شنجول» الـذي كان ماجناً مستهتراً، همـه اللهـو والطرب، وقد انتهى بـه الأمر إلى أن فرض على الخليفة المؤيـد تعيينه ولياً للعهد، فكان في ذلك نهاية عهده وبداية نهاية العصر الأموي قاطبة.

لم يكـن من المنطـق قبول العامة أو الخاصـة تولي عبدالرحمن «شنجـول» ولاية عهد الخلافة، فهو ابن حاجب، وأمه ابنة «سانجة» ملك قشتالة عدو الدولة الإسلامية.

استغـل هـذا الوضع عدد من الناقمـين على حكم ابن أبي عامـر وأبنائه، سواء لمآرب شخصيـة أو لدوافـع انتقاميـة، وكان هنـاك رأسان مدبـران لتحويل السخـط إلى عمل ميـداني، كانت «الذلقاء» والدة عبدالملك المظفر أحد الرأسين؛ ظناً منها أنَّ عبدالرحمن «شنجـول» قد سمَّ ابنها عبدالملـك المظفر للاستيلاء على السلطـة، فراسلت بني مروان للوثـوب على من انتزع حقهم، وأمدتهم بالمـال والأتباع، فنهض محمد بن هشام المرواني الملقب بالمهـدي واستطـاع السيطرة على قرطبـة، وحبس الخليفة هشـام المؤيد، وداهم قصـر الذلقاء التي ساعدته وأعانته علـى الخروج، ومات أحد أهل الذمة، فشهد الوزراء والفقهـاء أنَّ الميت هو الخليفة هشام المؤيد، فـكان خليفة المسلمين الجديد هو محمد بن هشام المرواني الملقب بالمهدي الذي أكَبَّ على شرب الخمر، فتَرَكَ شؤون الحكم.

وقام سليمان بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر طالباً الخلافة مستعينا بالبربر والنصارى مسمِّياً نفسه المستعين بالله، ودخل قرطبة، فهرب الخليفة محمد بن هشام المهدي، ليستعين بأحد أعدائه من النصارى في طليطلة، وينتصر المستعين ليدخل قرطبة، ثم يُخْرِجُ الخليفة هشام المؤيد الذي كان مسجوناً وأُظْهِرَ أنه مات، لِيَجْتَزَّ رأس محمد بن هشام المهدي، وبهذا يعود هشام المؤيد المتوفى افتراضا إلى ساحة الأحداث، وأرسل دعاة الخليفة هشام المؤيد برأس الخليفة المهدي إلى الخليفة المستعين طالبين منه مبايعة الخليفة المؤيد الذي ظهر فجأة، لكن الخليفة المستعين بالله رفض، فدارت معركة انتهت بفوز الخليفة المستعين، وهكذا معارك الخلفاء.

استدعى بعض أعيان قرطبة علي وقاسم أبناء حمود بن ميمون الإدريسي الحسني، وكانا وَالِيَيْنِ على سبتة والجزيرة الخضراء، وطُلب منهما العون للتخلص من الخليفة المستعين، فقدما وأعلنا وفاة هشام المؤيد وقتلا المستعين بالله مع أبيه وأخيه، وتمت مبايعة خليفة لم يكن مروانياً إنما حسنياً، غير أنَّ عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الناصر قام مدعياً الخلافة لنفسه وتسمى بالمهتدي لكنَّه قتل في الحمام، فسار الخصيان إلى استقدام أخيه القاسم لتولي الأمر، فتولاه وتلقب بالمأمون، لكنَّ يحيى بن علي قام عليه، فانسحب القاسم إلى إشبيلية فأصبح يحيى خليفة في قرطبة، وعمه سليمان خليفة في إشبيلية مع اعتراف متبادل بينهما، وهذا من الغرائب، وشاهد على ما آلت إليه الأندلس.

وثار أهل قرطبة على يحيى، وتولى أمرهم عبدالرحمن بن هشام بن الحكم وتلقب بالمستظهر بالله، لكنه قتل على يد ابن عمه محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفي، وهو والد «ولاَّدة» الأديبة الشهيرة، وصاحبة ابن زيدون الذي كانت على يده نهاية الدولة الأموية بالأندلس وبداية مرحلة حكام الطوائف.

كان حكام الطوائف قد رسَّخوا نفوذهم فيما تحت أيديهم قبل استقلالهم بزمن، ولذا لم يكن مفاجئاً ظهور ابن جهور في قرطبة، وابن عباد في إشبيلية، وابن ذي النون في طليطلة، وابن هود في سرقسطة، وغيرهم.

وبعد زوال الخلافة استقل كل ذي نفوذ بما تحت سلطانه، وكانت إحنٌ وحروبٌ بين هذه الطوائف انتهت بسقوط طليطلة وكثير من الحصون ودفع الجزية للنصارى، ثم استنجاد أخيار الأندلس بالمرابطين في المغرب؛ طلباً للعون على العدو المشترك، فكان فيه زوال حكمهم.

وكان حكمهم متجهاً إلى الزوال سواء على يد النصارى أو المرابطين، فكان قدوم المرابطين سبباً في تأخير استيلاء النصارى على الأندلس.

وجاء المرابطون وهم من قبيلة «لمتونة» وهي إحدى بطون صنهاجة البربرية ويعرفون بالملثَّمين،كانوا يدينون بالمجوسية ثم أسلموا وحسن إسلامهم، وكانت حركتهم دينية في الأصل بقيادة «عبد الله بن ياسين» الذي كان ورعا، تقيّاً، شديد الغيرة على دينه، لكنه كان شغوفاً بالنساء، يتزوج كل شهر عدداً منهنَّ ويطلقهنَّ، وبعد وفاته تولى «أبو بكر اللمتوني» قيادة الدولة وحركة المرابطين ليصبح مؤسس دولة المرابطين، واختار ابن عمه «يوسف بن تاشفين» لمؤازرته -وقد كان كما ذكرت الروايات تقياً، ورعاً، متديناً- عبر البحر بدعوة من بعض حكام الطوائف فكانت معركة الزلاقة الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً مع قلة عددهم وعدتهم، ومع تحقيقه هذا النصر فإنه لم ينتهز الفرصة ويواصل المسير بل عاد بسبب وفاة أحد أبنائه، لكنه عاد مرة أخرى بدعوة من حكام الطوائف، فتمنَّع بعضهم وحاول المقاومة، ومنهم المعتمد بن عباد، أكثرهم شهرة وأقربهم لقلوب الناس، وكان مآله أحدوثة تغنَّى بها الشعراء والخطباء، كما نُسِجَ عدد من الأبيات الشعرية التي تجسد مأساته، وتوفي ودفن في أغمات بالقرب من مدينة مراكش المغربية وقال بعض الأبيات الشعرية التي كتبت على قبره ومازالت إلى الآن.

مات يوسف بن تاشفين في عام ٥٠٠ هـ وعمره مئة عام، وتولى الحكم بعده ابنه يوسف، وحقق بعض الإنجازات، إلاَّ أنَّ مآسي الأندلس تتدفق تدفق السيل من قمم الجبال، وكلما اطمأن الناس ورجوا دوام الحال خرج للفتنة مُوقد، وللحرب مُشعل، وللسكينة مُجافٍ، وللحق مُنافٍ.

فقد واجه بعضاً من الحوادث الداخلية والحروب مع النصارى مثل معركة «القلاعة» التي انهزم فيها المسلمون وكان الأخطر على المرابطين تلك الحركة التي أخذت تنتشر في المغرب ويستفحل أمرها بقيادة «محمد بن تومرت المهدي».

بعد وفاته تولى إمارة المسلمين «تاشفين بن يوسف» الذي لم يدم عهده سوى ثلاث سنوات لم يستقر له فيها قرار، تنبو به البلاد، وتتنكر له العباد، فلم يزل كذلك حتى قتل بعد محاصرته من قبل الموحدين.

في ظل حكام الطوائف سقطت طليطلة، وفي نهاية حكم المرابطين سقطت سرقسطة وتطلية وما حولها، وسطرت لنا الأحداث اللاحقة تناثر هذا العقد الثمين وزوال سلطان المسلمين.

خرج رجل يقال له محمد بن تومرت وهو من أبناء الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- تسمى بالمهدي وقام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعندما وصل إلى المهدية نزل في مسجد وجلس منه في طابق مشرف على الطريق العام ينظر إلى المارَّة، فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلاَّ نزل إليها وكسرها.

والتقى ابن تومرت مع رجل يقال له عبد المؤمن يعلم الصبيان، فسأله ابن تومرت مساعدته للقيام بالدعوة، فوافق وهادن المرابطين في بادئ الأمر ثم انتقل من المهادنة إلى المواجهة، ومن غزو اللسان إلى الحرب والطعان، فجهز جيشاً من أتباعه وأمَّر عليهم عبد المؤمن، وقال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم، وبعد مدة مات محمد بن تومرت وتولى القيادة السياسية والعسكرية عبد المؤمن بن علي، فقامت معركة انتصر فيها الموحدون، فتهافت ما بقي من ولاة الأندلس على تقديم الولاء والطاعة للأمير الجديد.

وبعد وفاة عبد المؤمن أصبح أمر المسلمين في يد ابنه يوسف، وبعده ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وتلقب بالمنصور، وكان عصره عصر انتصار، لكنَّ مأساة الأندلس معه كانت من الناحية الفكرية، بإدخال فكر جديد له تبعاته الثقافية وتوظيفاته السياسية.

وبعد وفاته تولى ابنه محمد الناصر وكان عمره سبع عشرة سنة، وفي عهده كانت موقعة العقاب المشهورة التي كانت عقابا لكل ما فعله الأندلسيون والمرابطون والموحدون، ولقد جرَّ على المسلمين بسوء تدبيره كارثة كبيرة تعد أكبر الكوارث في الأندلس على الإطلاق.

انهزم محمد الناصر، واحتجب عن الناس منغمساً في لذّاته، مقيماً عليها مصبحاً مغتبقاً، ويبدو أنه أصيب بصدمة نفسية جعلته يهرب من الواقع، وهذا ليس طريق المؤمنين.

مات محمد الناصر بعضَّة كلب، أو مسموماً، أو حتف أنفه، حيث اختلف في ذلك الرواة، وتولى ابنه الشاب يوسف المستنصر البالغ ست عشرة سنة، وكان شاباً كثير اللهو من هواة رعي الأبقار وترويضها، فبينما هو كذلك ذات يوم يحاول ترويض بعض أبقاره هجمت عليه بقرة شموس وضربته بقرنها، فأصابت قلبه، وكذلك كانت منيته.

وبعد أن قتلت البقرة الخليفة المستنصر الذي لم يوَرِّث ولداً، أجمع المشايخ على تولية عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن، وكان في الستين من عمره، وتنافس القوم الرئاسة، واختلط الحابل بالنابل، وأضحى كل واحد من الموحدين يدعي أنه الأحق بالأمر، وعلينا أن نتذكر أنَّ الأندلس في تلك المدة كان يحيط بها ثلاث ممالك نصرانية، أرجوان من الشرق، وقشتالة من الوسط، وليون من الغرب، وكانت هذه الممالك النصرانية تهاجم دويلات الأندلس الإسلامية التي لا تفتأ تتحارب فيما بينها، ويستنجد بعضها بإحدى الممالك النصرانية المجاورة للذود عنها من دويلات إسلامية أخرى، أو يتم عقد هدنة مقابل مبلغ كبير من المال يتم جمعه من حُرِّ مال الناس؛ ليتم دفعه لعدوهم نظير بقاء زعيم هذه الدويلة أو تلك على كرسي الحكم.

سقطت قرطبة بأيسر السبل في يد «أدفونتش» فكان جرحاً غائراً، فقد حلَّ بها ما يلينُ له القاصي، وتنهدُّ له الجبال الرواسي، وكانت أحداث في مدن أندلسية أخرى ومنازعات على الزعامة، فأخذت الأندلس تتهاوى شيئاً فشيئاً، ابتداء بطليطلة ومروراً بقرطبة ثم مدن أخرى في مدة لم تتجاوز ثلاثين عاما.

وعندما رأى ملك أرجوان أنَّ ملك قشتالة قد استولى على قرطبة دون عوائق، قرر السير للاستيلاء على بلنسية؛ لأنها تقع ضمن الأراضي المستهدفة للاستيلاء والخاصة

به طبقا لاتفاق مسبق، وحاصرها فلم يجد «زيَّان» حاكمها من يناصره، فأرسل ابن الأبار إلى حاكم تونس يستصرخه، وفي نهاية الأمر استسلمت بلنسية.

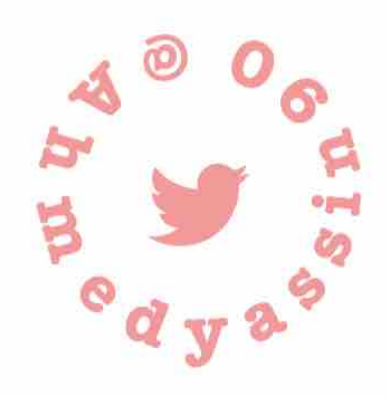
في خضم هذه الأحداث، كانت أشبيلية تحكم نفسها حكما ذاتيا، فعزم فرناندو الثالث ملك قشتالة آنذاك على إسقاط أشبيلية، فأخذ إذناً من البابا بأن يدفع ثلث ما يقدم للكنيسة من الأموال؛ لتدفع تكاليف تجهيز الحرب، فحاصرها مدة خمسة عشر شهراً، ثم استسلمت ودخل القصر وأمر بتحويل مسجدها إلى كنيسة، وهكذا تم له ما أراد وساعده في ذلك ابن الأحمر حاكم غرناطة؛ تنفيذا لاتفاق فرض عليه فامتثل له؛ خشية زوال سلطانه.

مأساة حقيقية لحقت بالأندلسيين وبالإسلام من جرَّاء هذا المصير المؤلم، فيا لها من مأساة! كانت نتاج أخطاء متتالية، ومصالح متباينة.

وبقي ابن الأحمر في غرناطة، لتتكون مملكة غرناطة الصغيرة بعد سقوط مدن الأندلس الأخرى، وشاء الله أن تستمر هذه المملكة الصغيرة قرنين ونصف القرن بعد السقوط الكبير للأندلس، لكنَّ هذه المملكة لم تنل كامل حريتها فقد كانت تدفع الأموال لأعدائها المحيطين بها، وفي نهاية عهدها استمر التدهور الداخلي، وعزم ملك قشتالة على إنهاء المملكة المتهالكة فحاصرها، ودخلها، لينتهي الفصل الأخير من مأساة الأندلس بقول عائشة الحرة والدة أبي عبدالله الصغير لابنها: «ابك مثل النساء على ملك لم تحفظه مثل الرجال».

إنَّ المأساة الحقيقية في الأندلس تكمن في لذَّتين، لذَّة السلطة، ولذَّة الشهوة، ومنهما انبثق كل خطر داهَمَ الأندلس، فلذَّة السلطة تجعل التضحية بالناس والأرض والمال مباحة في سبيل الإمساك بها، ولذة الشهوة تجعل الحاكم الأندلسي يضعف أمام الجواري، والزوجات، والأبناء، والشراب، فتتم التضحية بحسن التدبير، وتولية الخبير، والحفاظ على بيت مال المسلمين.

لقد سطرت هذا الكتاب بعد أن اجتهدت ما استطعت في جمع كل شاردة وواردة حول الموضوع، مجتهداً في أن أكون قد وفقت في نقل شيء عن مآسي الأندلس والأندلسيين، راجيا أن أتبعه بكتاب عن مباهجهم؛ حتى يرى القارئ الوجه الآخر لهذا التاريخ الممتلئ بالأحداث أتراحا وأفراحا، راجياً من العلي القدير العون والسداد والتوفيق فيما أقول وأفعل.


@Ahmedyassin90

الفصل الأول

عصر الفتح

- بداية الفتح.
- الاقتتال الداخلي.
- الثورات العرقية.
- الفتنة اليمانية المضرية.



بـدايـة الفـتـح

لم تخـل الأندلس الإسلاميـة عبر تاريخها المديد مـن المماحكات، والانتقـام للذّات، والهيام بالسلطة، بغض النظر عما قد يجرُّهُ هذا السلوك من آثار ذات نتائج مدمرة على الأمـة، إذ لم يتعظوا بمـا حلَّ بالأمم التي سبقتهم من القـوط وغيرهم، والذين كان هذا السلوك سبباً في زوال سلطانهم على أيدي العرب أنفسهم.

فقـد اعتاد حـكام الأقاليم في بلاد القوط علـى إرسال بناتهـم إلى «لذريق»، وهو لقب اعتادوا إطلاقه على كل رئيس لهم، وكان الغرض من ذلك تأديبهنَّ بالآداب الملكية؛ لكي يتم تزويجهنَّ بأكفائهنَّ من الرجال، وكان ضمن تلك الفتيات بنت والي سبتة واسمه «جوليان»، وكانـت ممشوقـة القوام جميلة المنظـر، تتثنى في مشيتها كأنها غصن بـان، وعندما لمحها «لذريـق» تاقت نفســه إليها فواقعها، فكانـت تلك الواقعة أحد الأسبـاب التي سهلت دخول المسلمـين إلى الأندلس وقيام دولة أرست قواعدهـا قرونا، فكانت الجسر الذي تدفقت من خلاله صنوف المعرفة؛ لينعم العالم حتى يومنا هذا بنتائج النهضة الصناعية.

لقـد قـرر جوليان الانتقـام لكرامة ابنته، فشجـع المسلمين على غزو الأندلـس وبيَّن لهم مناطق ضعف عدوهم، وكان عوناً لهم مدفوعا بلذة الانتقام حتى لو كان سقوط غريمه نهاية لملكـه وملك أبنائه من بعده، اللهم إلاَّ إذا اعتقـد أنَّ المسلمين سيكتفون بما سيقع بين أيديهم من غنائم؛ ليعودوا أدراجهم بعد أن يضعف خصمه على أيديهم فتكون الغلبة له فيما بعد.

فتح المسلمون الأندلس على يد طارق بن زياد الليثي الذي كان والياً على طنجة من قبل موسى بن نصير، وقد نقلت لنا بعض المراجع العربية ما تأجج في قلب القائد الفذ موسى ابن نصير من حسد بعد أن علم بانتصارات طارق؛ خشية أن ينسب ذلك إلى طارق دونه، فما كان منه إلاَّ أن أمره بالتريث عن مواصلة الفتح وتوعده إن هو خالف أمره.

وكتـب موسى إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك في الشام ينسب الفتح إلى نفسه، وركب في ثمانيـة عشـر ألفاً من الجند وسار بهم إلى الأندلس وسلـك طريقاً غير الطريق الذي سلكـه طـارق وفتح مدناً جديـدة، ولقي طارقـا في مدينة «إسترقة» بالقـرب من طليطلة

فضربه بالسوط ووبخه وأظهر ما في قلبه عليه من حسد، ويقال: إنه همَّ بقتله مطالباً إياه بما حازه من مال وما غنمه من غنائم، وتذكر بعض المصادر أنَّ من ضمن تلك الغنائم مائدة نبينا سليمان عليه السلام، وقد كان طارق قد خلع من أرجلها رجلاً وخبأها عنده، فسأله موسى عنها، فقال: لا علم لي بها وهكذا أصبتها، فأمر موسى بأن يُجْعَل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها، فأخلّ بها. وبعد ذلك عفا عنه لحاجته إليه.

لو أنّ موسى بن نصير سمح لطارق بالمسير لكانت الأندلس أيسر فتحاً ولواصل المسلمون بقيادة طارق الزحف إلى الشمال الأندلسي، لكنَّ الحسد حرم المسلمين من فرصة كانت قريبة المنال.

واصل موسى فتح المزيد من المدن والقرى وانضوى طارق تحت لواء قائده، فحققا المزيد من الانتصارات وكلٌّ منهما يضمر الضغينة لصاحبه ويظهر ما لا يُبطِن، وكأنَّ حالهما قد تجسد في قول المتنبي عن كافور الإخشيدي:

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا ... وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

تظن ابتساماتي رجاء وغبطة ... وما أنا إلا ضاحكاً من رجائيا

وما أحسب طارق بن زياد إلا متسائلا كما تساءل شاعر الأندلس ابن زيدون الذي جاء بعده حيث يقول:

أرى نبوة لم أدر سر اعتراضها ... وقد كان يجلو عارضَ الهمِّ أن أدري

جفاءٌ هو الليلُ ادلهمَّ ظلامُهُ ... فلا كوكبٌ للعذرِ في أفقه يسري

هبِ العزلَ أضحى للولاية غايةً ... فما غايةُ الموفي من الظل أن يكري

وبينما كان موسى بن نصير يواصل انتصاراته ويتسع الأفق بين ناظريه ويستخدم دهاءه وحنكته الحربية في التوسع دون عوائق كبيرة، وتتجلى أمامه رؤى كثيرة وقد خطط للمزيد من التقدم شمالا وشرقاً، ولم لا والجيوش الإسلامية تظفر أينما حلت والشعوب تتسابق في اعتناق الإسلام فتكون رِفْداً له ضد مناوئيه من الأمم التي لم تصلها رسالته، كما أن الإسلامَ في ذروة سنامه وقد تخطَّى غيره من الأمم بمراحل، فقد كانت أوربا آنذاك مختلفة المقاصد والغايات، تمزقها الأهواء والخلافات، وأضعف من أن تقف أمام جيوش فتية اجتمعت حول

رسالتها معظم شعوب العالم القديم، فَحَلَمَ موسى في افتتاح أوروبا من الغرب والاتصال بالجيوش العربية الزاحفة من الشرق وقد كان أمراً ممكناً وليس بعيد المنال، ولكن بينما هو منهمك في التخطيط لبلوغ مرامه إذا برسول الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه «مغيث الرومي» يحل ضيفاً عليه ويبلغه رسالة الخليفة بالتخلي عن التوغل بالمسلمين في بلاد لا يعرف الخليفة الكثير عنها، ويأمره بالقفول إليه وحَمْلِ ما غنم من مال وسبايا إلى الخليفة.

لكنَّ موسى أراد الاستمرار طالما أنَّ الانتصار يتحقق تلو الانتصار، وطالما أنه قد عرف مجاهل الأرض ومفاوزها، وتمرس جنده على الطعان فوق ترابها، وعلم الكثير عن مواضع ضعف عدوِّه وأسلوب قتاله، فحاول استمالة مغيث رسول الخليفة وأغراه بالمشاركة في الغنيمة فنجح، وسار معه في استكمال مهمته وفتح المزيد من الأرض، ومنها قرطبة التي فتحت على يد مغيث. وذكر الحجاري أنه لما حصل بيد مغيث مُلك قرطبة عندما سار مع موسى بن نصير، رأى بين نسائه جارية كأنها بينهن بدر بين نجوم، وهي تكثر التعرض له بجمالها، فوكل بها من هددها بالنكال إن لم تقرَّ بما عزمت عليه في شأن مغيث، فقد فطن من كثرة تعرضها له بحسنها لما أضمرته له من المكر في شأنه، فأقرت بأنها أكثرت التعرض؛ لتقع بقلبه، إذ حسنها فتان، وقد أَعدَّتْ له خرقة مسمومة لتمسح بها ذَكره عند وقاعها.

وبينما موسى بن نصير كذلك، إذا برسول آخر للخليفة الوليد بن عبد الملك يقال له «أبو نصر» يصل إليه حاملاً رسالة من الوليد، فيها الوعيد الشديد إنْ هو تمادى في التأخير، فعزم على العودة مضطراً وليس للسبب الذي أورده ابن بسام صاحب كتاب «الذخيرة» والذي ذكر أنَّ موسى وجد صنماً ضخماً قد كتب عليه بالعربية: يا بني إسماعيل، انتهيتم فارجعوا، فهاله ذلك وقال: ما كتب هذا إلا لمعنى كبير.

مرة أخرى نعود لقرار مصيري جديد اتخذه الوليد بن عبد الملك كان منعرجاً تاريخياً للعالم أجمع، فربما حرم الوليد بهذا القرار أوروبا من الإسلام، وحرم الإسلام من أوروبا، فعلام أحجم وما عهدناه جبانا؟ فهل نعزو ذلك إلى خوفه على المسلمين وكفى؟ قد يكون الأمر كذلك، وقد يكون غير ذلك، فنعزوه إلى ما نمى إلى علم الوليد من خلاف بين موسى وطارق وخشيته من الفتنة بين المسلمين في بقاع بعيدة عن القيادة المركزية.

أمَّا آخرون فيرون الأمر يقصر عن الحرص على مصالح المسلمين إلى أقرب من ذلك، فيرون أنَّ الباعث لدى الخليفة الوليد ما بلغه من كثرة الأموال والغنائم التي حازها موسى، وكذا السبايا الأندلسيات وهنَّ من هنَّ في الجمال، ولطافة المعشر، وبياض البشرة ونعومتها، لا سيما أنَّ الوليد على دراية بما جبلهنَّ الله عليه من جمال من خلال ما أرسله موسى إلى الوليد من سبايا البربر، فقد بعث في الخمس بعشرين ألف سبية ثم أردفها بعشرين ألف أخرى، وهناك من يرى أن باعث الوليد على اتخاذ خطوة الإحجام خوفه من تفرد موسى بن نصير بما غنمه من أرض ومال، إضافة إلى ما زرعه في قلوب قاطني تلك الأصقاع من خوف بطشه والطمع في نواله، فهو الداهية الطماع، والقائد الشجاع، فمن غير الحكمة في ظن الوليد تركه بعيداً عن عين الخلافة.

ومهما كان الباعث أو البواعث، سواء كان مصلحة عامة، أو مالاً ونساء، أو خوفاً على سلطان، فالقرار كان خطأ ترتب عليه فوات فرصة قد تكون مفيدة للعالم أجمع، وحسبنا أن نعلم أنَّ من تركهم موسى منهوكي القوى متشرذمين في الجبال من أعدائه كانوا نواة لملكة هزمت المسلمين وأخرجتهم من الأندلس بعد مئين من القرون.

قال الحجاري في كتابه المسهب: إنَّ الإفرنج اجتمعت إلى ملكها، فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع عن العرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي ألّا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنّهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نوايا تغني عن العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرئاسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر، قال: فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين، والبربر والعرب، والمضرية واليمانية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء.

مرة أخرى يظهر التاريخ ليكشف لنا عن المماحكات والدسائس والانتقام الشخصي ليفضي ذلك إلى قرارات مصيرية اتخذها هذه المرة سليمان بن عبد الملك بن مروان

الـذي تولى أمر المسلمين بعـد أخيه الوليد، ليقف موقفاً آخر مـن موسى بن نصير الذي ذُكِـر أنــه أدرك الوليد في آخـر أيامه وهناك من يذكـر أنه لم يصل الشـام إلاَّ بعد تولّي سليمان الخلافة، وسواء كان الأمر هذا أو ذاك فالأمر سيان.

في أثنـاء عودة موسى بـن نصير إلى الشام برفقة رسـولي الخليفة مغيث ونصر كان حاكم قرطبة أسيراً بيد مغيث، فطلب موسى الأسير من مغيث فأبى أن يسلمه إليه وقال: لا يؤديـه للخليفـة سواي، وكان يُدِلُّ بولائه للوليد، فهجم عليـه موسى وانتزعه منه، فقيل لـه: إن سـرت به معك حياً ادعاه مغيـث والعلج لا ينكر قوله، ولكـن اضرب عنقه، ففعل، فاضطغنهـا عليه مغيث وصار إلباً مع طارق الساعي عليه، فجمع على نفسه ضغينة اثنين مسموعي الكلمة، وهناك من يقول أيضاً: إن سليمان طلب من موسى الإبطاء في الوصول إلى الشـام بعـد أن علم بقرب وفاة أخيه الخليفة؛ رجـاء أن يقدم عليه في صدر خلافته، فأبـى موسى وجدَّ في السير حتى قدم والوليد حيٌ فسلـم إليه الأخماس والغنائم ثم مات الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرسي الخلافة.

في المدة القصيرة التي قضاها موسى في أثناء خلافة الوليد كان طارق بن زياد ومغيث يحرضان سليمان بـن عبدالملك على موسى ويوغران صدره عليه انتقاماً لأنفسهم، حيث أخـبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلـج صاحب قرطبة وقالا له: إنَّه قد غَلّ جوهراً عظيم القدر أصابه لم تحوِ الملوك من بعد فتح فارس مثله.

وبعـد تولي سليمـان الخلافة وجَـدَه ضغيناً عليـه، فأغلظ عليـه واستقبلـه بالتأنيب والتوبيـخ، واعتذر له موسى ببعضـ العذر، وسأله عن المائـدة فأحضرها، فقال له: زعم طـارق أنــه هو الذي أصابها دونك فقال: لا، وما رآها قط إلاّ عندي، فقال طارق: فليسأله أمـير المؤمنين عـن الرِّجل التي تنقصهـا، فسأله فقـال: هكذا أصبتهـا وعوضتها رجلاً صنعتهـا لها، فقام طارق وأحضـر الرِّجل الأصلية؛ ليؤكد للخليفة أنـه هو الذي أصابها، فعلـم الخليفة سليمان صـدق طارق وكذب موسى، فأمر بتقصي حسابه وعزله عن جميع أعمالـه، وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلـك، وحبسه، فاستجار بصديقه «يزيد بن المهلـب» من نقمة سليمان وكان من خلاّصه وذوي النفوذ عنده، فقال: لم أزل أسمع عنك

أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي: كيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس وجعلت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزاخر، وتيقنت بُعد المرام واستصعابه، واستخلفت أنت بلاداً أنت اخترعتها، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك، ثم إنك علمت أنَّ سليمان ولي عهده وأنه الولي بعد أخيه وقد أشرف على الموت لا محالة، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة وأحقدت مالكك ومملوكك، فقال موسى: يا ابن الكرام، ليس هذا وقت تعديد، أما سمعت إذا جاء الحين غطى على العين، وقال: أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بعد ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه، وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى.

وهناك من يذكر أنه قد عفا عنه وظل كذلك حتى مات -رحمه الله- وهو في الثمانين من عمره في طريقه إلى الحج برفقة الخليفة سليمان، وهناك من ذكر أنه قد عفا عنه لكنه لم يُعفه من الغرامة المالية وأغرمه غرماً عظيماً حتى اضطره سؤال العرب المعونة.

نهاية مؤسفة لقائد عظيم وحرمان للمسلمين من مواصلة الخير للبشرية بسبب تنافس وأحقاد ومطامع شخصية كان موسى بن نصير أحد أبطالها، فمع حنكته وقيادته الفذة وقدرته الإدارية على التعامل مع الشعوب والثقافات المختلفة، إلاّ أنه فشل في مداراة الدنيا واتخاذ القرار الصائب في التعامل مع مالكه ومملوكه كما ذكر صديقه يزيد. وصدق الشاعر حيث يقول:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يقضي عليه اجتهاده

وقال آخر:

الحر عبد إن طمع ... والعبد حر إن قنع

موسى -رحمه الله- ربما طمع وغلَّ، فهناك رواية تقول: إنّ موسى كان وزيراً لبشر بن مروان فلما تولى الحجاج ولاية العراق سنة خمسة وسبعين اتهم موسى باختلاس أموال البصرة وكاد يسقط بين يديه ولم ينقذه سوى صديقه عبدالعزيز بن مروان، وربما أخطأ في التعامل مع طارق ومغيث، لكنَّ المؤكد أنَّه لم يشق عصا الطاعة على الخلافة ولم يدر

بخلده ما لامه عليه صديقه يزيد من القدوم وعدم الامتناع، وقد يكون أصله قد حال دون تفكيره في الولوج إلى مقام غير مقامه في وقت كانت العصبية العربية هي السائدة، فلم يكن سليل ملك كما هو حال بني مروان الذين أسسوا لهم ملكاً في الأندلس فيما بعد، فما هو إلّا مولى تجهز مع أم البنين بنت عبد العزيز عندما ابتنى بها الوليد بن عبد الملك، وقد ذكر المقري في «نفح الطيب» أنَّ موسى بن نصير -رحمه الله- يغلب عليه ما لا يكاد رئيس يسلم منه، وهو الحقد والحسد، والمنافسة لا تخلو من ذلك.

أنشد بعض الرؤساء:

وليس رئيس القوم من يحمل الحقد

فقلب المعنى الرئيس فقال:

وليس رئيس القوم من يترك الحقد

ثم قال: إنَّ السيد إذا ترك إضمار الخير والشر والمجازاة بهما اجترئ عليه ونسب للضعف والغفلة، وهل رأيت صفقة أخسر من غفلة رئيس أحقده غيره فنسي ذلك أو تناساه وعدوه لا يغفل عنه وحاسده لا يمنعه عنه إلّا الراحة منه وهو في وادٍ آخر عنه، ولله در القائل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مُضِرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ولكن الأصوب أن يكون الرأي ميزاناً، لا يزن الوافي لناقص، ولا يزن ناقص لوافٍ.

أما أنا فلا أتفق مع ما أورده المقرّي، فليس من الكياسة الحقد والحسد، وليس من الغفلة الطيبة والتسامح، وشاهد الحال ينبئ عن ذلك، فدعونا مع عجز البيت دون تحريف ودعونا نتذكر قول الشاعر:

ليس الغبي بسيد في قومه لكنَّ سيد قومه المتغابي

فالصفح والتجاوز والتسامح مع عدم الغفلة أساس الكياسة وزرع المحبة والإخاء.

وذُكِـر أَن سليمـان بن عبدالملك لَمَّـا أصغى إلى طارق في شأن سيـده موسى بن نصير فعذَّبَه واستصفى أمواله أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق وكان مغيث قد تغير عليـه، فاستشار سليمـان مُغيثاً في تولية طـارق وقال له: كيف أمـره بالأندلس؟ فقال: لو أمـر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاء لاتَّبعوه ولم يروا أنهم كفروا، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان، وبدا له في ولايته، فلقيه بعد ذلك طارق فقال له: ليتك وصفت أهل الأندلس بعصياني ولم تُضمر في الطاعة ما أضمرت، فقال مغيث: ليتك تركت لي العلج فتركت لك الأندلـس، وكان طـارق قد أراد أن يأخذ منه مَلِـكَ قرطبة الذي حصل في يده، فلم يُمكِّنه مـن ذلك فأغـرى به سيده موسى بن نصير فقال له: يرجع إلى دمشق وفي يده عظيم من عظمـاء الأندلـس وليس في أيدينا مثله، فأي فضـل يكون لنا عليه؟ فـكان من موسى بن نصير مع العلج حاكم قرطبة ما ذُكر.

بعدمـا تجاوزنا الحديث عـن موسى بن نصير ظهر لنا ابنـه عبدالعزيز الذي استمر في فتـح المزيـد من المـدن الأندلسية، وتعـود لنا السلوكيـات الشخصيـة والأحقاد لتلعب دوراً سلبيـاً في الحياة الأندلسية، فقد ذكرت المصـادر أنَّ عبدالعزيز بن موسى قد تزوج بزوجـة لذريق ملك الإفرنجة المهزوم المكنـاة «أم عاصم» وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح وباءت بالجزية وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبدالعزيز فحَظِيت عنده، ويقال: إنه سكن بها في كنيسة في أشبيلية وأنها قالت له: لم لا يسجـد لك أهل مملكتك كما كان يسجـد للذريق -زوجها الأول- أهل مملكته؟ فقال لها: إنَّ هذا حرام في ديننا، فلم تقنع منه بذلك، وفهم لكثرة شغفه بها أنَّ عدم فعل ذلك مما يـزري بقدره عندها فاتخذ بابـاً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليـه الناس منه، فينحنون وأفهمها أنَّ ذلك الفعل منهم تحية له فرضيت بذلك.

وقـد نما إلى علم الخليفة سليمان ما فعله الأمـير عبدالعزيز إضافة إلى سخطه على أبيـه وتوجسـه ريبـة منه بعد فعلتـه بأبيه، فأغرى جماعـة من الجند فثـاروا عليه منهم حبيـب بن أبي عبيدة الفهري وزيـاد بن النابغة التميمي، فقتلـه بعضهم وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبدالملك، وكان مقتله في المسجد وهو قائم لصلاة الصبح، وكان المسجد بجوار داره وقد بقي دمه في المسجد زماناً رحمه الله رحمة واسعة.

بهذه الواقعة تدخل النساء على الطريق في الحياة الأندلسية التي لعبنَ فيها دوراً كبيراً عبر تاريخه، وقد يكون لهنَّ دورٌ في الحياة السياسية الأندلسية في عهد موسى وطارق لكنَّ التاريخ غفل عن تسطيره فلم يصل إلينا، فعبدالعزيز بن موسى الذي واصل الفتح بعد أن ترك له أبوه حُكماً يمكن أن يسوسه بالكثير من الحكمة ليورثه أبناءه من بعده، ضعف أمام زوجة غريمه وغريم أبيه، ففتح باباً للمتربصين من أعوانه لا أعدائه، وفي ساعة غفلة وثب عليه جنده وليس جند أعدائه فقتل -رحمه الله- ليبدأ من ذلك التاريخ عصر من عصور الصراع الميداني الداخلي.

كان والي إفريقية مفوضاً من قبل الخليفة لتعيين من يراه على الأندلس، وتولى الأندلس بعد عبدالعزيز بن موسى نحو سبعة عشر أميراً في نحو أربعين عاماً لم يورثها أحد منهم لأحد من ذريته أو أسرته ولم يتجاوز أحدهم لقب أمير، لكنَّ الفتن لم تفارق الأندلس.

بعد مقتل الأمير عبدالعزيز اتفق الزعماء في أشبيلية على تولّي «أيوب بن حبيب اللخمي» الإمارة، وهو ابن أخت عبدالعزيز، وكان صالحاً في دينه كيِّساً هدأت الأمور في عهده، لكنَّ والي إفريقية الجديد واسمه «محمد بن يزيد» الذي تولّى أمرها بعد عبدالله بن موسى الذي أُبعد من قبل الخليفة سليمان رأى في ابن أخت موسى خطراً يجب التخلص منه، فاستبدل به «الحرَّ بن عبدالرحمن الثقفي» والفتنة قد أرست قاعدتها منذ استدعاء موسى بن نصير، فوجد الحر فتنة كان عليه إطفاؤها، فالفتنة الطائفية بين العرب والبربر قد اشتعل فتيلها فوصلت نارها إلى الجيش، ولقد كان قاسياً بما يستوجبه الموقف، ثم غادر بجيشه إلى شمال البلاد فبدأت الدسائس في قرطبة عاصمة حكمه وتعاون بعضهم مع أعداء الأمس ليعود أدراجه بعد أن استرد بعضاً مما خسره المسلمون في شمال البلاد، وها هي الفتن تحرم المسلمين من فرصة أخرى مواتية.

وعندما تولَّى عمر بن عبدالعزيز الخلافة في الشام رأى أنَّ في أسلوب الحرّ الثقفي الكثير من القسوة على المسلمين وأنَّ الواجب الديني يتطلب منه أن يستبدل به من هو أكثر رأفة ورحمة، فاختار للإمارة رجلا تقياً فطناً شجاعاً هو «السمح بن مالك الخولاني»، وربط ولاية الأندلس بالخلافة مباشرة، بدلا من ارتباطها الإداري بوالي أفريقية، وواقع

الحال أنَّ السمح كان عند حسن ظن الخليفة به، فقد كان عادلاً رفيقاً بالمسلمين وغير المسلمين، حفظ للعبيد والفلاحين حقوقهم وقلَّت المماحكات والفتن.

وقد فكَّر الخليفة عمر بن عبدالعزيز في إخلاء الأندلس لبعدها وانعزالها فأقنعه بعضهم بالتخلي عن الفكرة بسبب تكاثر المسلمين في تلك البلاد، ومات السمح بن مالك وهو يحارب في سبيل الله فاتفق الجميع على تولي عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي.

قاد عبدالرحمن الغافقي الجيش الإسلامي متجهاً إلى فرنسا بعد أن اجتاح كلَّ ما وطئت أقدام حوافر فرسانه من سهول وتلال ووديان ومدن وقرى، فامتلأت الأحمال بالغنائم والحلي والجواهر، وحان وقت المعركة الكبرى بين جيش المسلمين والإفرنج في موقعة سماها العرب «بلاط الشهداء» لكثرة من مات خلالها من المسلمين، بينما سمتها المصادر الغربية موقعة «تور» لكون المعركة قد وقعت بالقرب من مدينة يطلق عليها هذا الاسم.

تجلَّت لنا مرة أخرى أنواع من الأسلحة الخفية، منها الطمع والحسد والشقاق والمماحكة في هذه المعركة الفاصلة، فكانت هذه الأنواع من الأسلحة أكثر الأسلحة حسماً لها. فقد كان الجيش المسلم يتكون جلُّه من قبائل البربر وبعض العرب، وحمل هذا الجيش الزاحف الكثير من الغنائم التي غنمها في أثناء الزحف وقبل وقوع المعركة الفاصلة، فكانت هذه الغنائم وبالاً على المسلمين حيث دب الخلاف بينهم طمعاً بما وقع في أيديهم، وقد طالب بعضهم بالعودة بعد أن نالوا ما نالوه من الغنائم؛ وقد حاول قائدهم عبدالرحمن الغافقي إقناعهم بالتخلي عن بعض من تلك الغنائم حتى يتمكن الجيش من سرعة الحركة وإحلال المحاربين محل الغنائم، وكان رأياً صائباً لم يجد الاستجابة إلاَّ من النزر اليسير من الزعماء، ولم يكن عبدالرحمن الغافقي حاسماً في الأمر خشية التمرد، وبعد قتال مرير بين الطرفين استمر لعدة أيام كاد المسلمون إحراز النصر فيه، إذا بثغرة صغيرة تظهر في المعسكر الإسلامي وإذا بالمندسين في الصفوف الإسلامية يصيحون بقرب وقوع حامية الغنائم في يد العدو فارتد بعض الفرسان إلى الخلف؛ خشية وقوع ما غنموه في يد العدو، واختل ترتيب الجند وبدأ الصراع الداخلي في الجيش الإسلامي، وفي هذه الأثناء أصيب عبدالرحمن الغافقي بسهم، فلقي ربه رحمه الله رحمة واسعة، ولم

يتفـق المسلمـون على قائد آخر للجيش فهربوا في جنح الظلام، تاركين ميدان المعركة بعد أن خسروا الكثير من خيرة رفاقهم.

هـذه المعركة الكبيرة الفاصلة على المستوى العالمي كانـت منعطفاً في التاريخ البشري مـن الناحيـة السياسية والعلمية والثقافيـة، وكانت الأسلحة الخفية سبباً رئيساً في هذا المنعطف.

ما أكثر الناس، لا بل ما أقلهُم — الله يعلم أني لم أقل فندا

إني لأفتح عيني حين أفتحها — على كثير ولكن لا أرى أحدا





قلعة طريفة: نسبة إلى طريف بن مالك الذي قام بحملة استطلاعية
قبل عبور طارق بن زياد إلى الأندلس.

الاقتتال الداخلي

هـو أول انقلاب يقع في الأندلس وبداية للفتن والاقتتال الداخلي، فقد كان «عبدالملك ابن قطن» قد تولى حكم الأندلس من قبل هشام بن عبدالملك وسار بجيشه من الشمال الإفريقي ودخل الأندلس، واتجه إلى الشمال؛ راجياً أن يسترد ما خسره أسلافه، فلم يوفق بسبب بعض المنتفعين المحيطين به الذين يُغلبون مصالحهم الشخصية على مصالح العامة، كما أنه كان قاسياً فظاً غليظاً فانفض أهل الأندلس من حوله، وأخذت نار الفتن تسري بين القبائل والقادة فتم تبديله بعقبة بن الحجاج السلولي من قبل والي إفريقية، وهو رجل عادل كيِّس رفع الظلم، وأعاد الحقوق إلى أصحابها، وزَجَّ بالولاة الظالمين في السجون، وفي حربه مع النصارى استفاد القائد العربي من السلاح الخفي ضد أعدائه، فقد كان الدوق «موروتس» القاطن في الشمال الإسباني يطمع فيما تحت يد «كارل مارتل» (شارلمان) زعيم الإفرنج ويحسده على انتصاراته، فاتصل بالعرب وتحالف معهم، وغزا الحليفان بعض ما تحت يدي عدوهم من الشمال الإسباني، وعندما علم كارل مارتل (شارلمان) ما فعل العرب مع حليفهم أرسل أخاه «شلد براند» ليتولى رد العرب وحليفهم عن مواصلة الانتصار واللحاق بهم إن أمكنه ذلك، فحقق مأربه حيث هزم العرب شرَّ هزيمة وعادوا إلى قرطبة، وفي هذه الأثناء مات «تيودريك الرابع» ملك الإفرنج فعاد مسرعا خشية انقضاض خصومه عليه، وفي الواقع أنَّ هذا النهج الذي نهجه عقبة بن الحجاج لم يكن مُوَفَّقاً لا من حيث الإعداد أو التخطيط أو تقييم قدرات العدو، فخسر العرب جرَّاء ذلك الكثير من قدراتهم المادية والبشرية لتضاف إلى مآسي الأندلس الكثيرة.

حاول عقبة بن الحجاج مع حليفه استرداد ما خسره على يد الإفرنج من أراضٍ، غير أنه أضاف مأساة أخرى إلى مآسي الأندلس، حيث خسر المزيد من الرجال والعتاد والأرض وعاد أدراجه.

كان عقبة بن الحجاج قد ولَّى عبدالملك بن قطن قيادة جيش الشمال بعد عزله عن الولاية للاستفادة من قدراته القيادية الحربية، غير أنَّ عبدالملك بن قطن كان يتحين الفرصة في ظل ما مُنِيَ به عقبة من هزائم متلاحقة، فقام بأول انقلاب في الأندلس

استطـاع بموجبه الوثـوب إلى السلطة وأسر عقبة وقتله، وهناك مـن قال: إنه لم يقتل بل أسر حتى توفي، وأيّاً كان سبب وفاته -رحمه الله- فما حدث يعد نهجاً جديداً للسطو على القيادة وانتزاعها بالقوة دون أمر من الخليفة أو واليه في أفريقيا.

كانت بذرة الشقاق العرقي والمذهبي قد بدأت في الإنبات على أرض أفريقية، وحملتها الرياح معها لتحط بالأندلس، فقد أخذ البربر في أفريقيا يتململون من بعض الولاة العرب الذيـن لم يكن بعض منهم منصفـاً للبربر، فكان تفرُّد بعضهم بالمـال والجاه والسلطان سبباً في محاولات المحرومين تحيُّن الفرص لإحداث تغيير ما؛ لعله يزحزح شيئاً مما يرونه جوراً، وكانت مطامـع بعض أعيان البربر ومطامحهم رافداً كبيراً لإثارة الفتنة العصبية ولتكون هذه البذرة العصبية وقود نار لحروب داخلية تزيد من مآسي الأندلس.

كان «عبيـد الله بـن الحبحـاب» والياً من قبل الخليفـة الأموي علـى أفريقية، وكانت ثـورات البربـر تشتعل وتخمد بين الفينة والأخرى في مواطن كثـيرة من المغرب الأقصى، وكان عبيـد الله هذا ظلوماً جائراً في حكومته،كما ذكـره الواقدي ونقله عنه ابن خلدون، فأرسـل جيشـاً بقيادة «حبيب بن أبي عبيدة الفهري» لمحاربـة البربر ليقتل ويسبي ويغنم مسلمين مثله، كما عين ابنه إسماعيل والياً على المغرب الأقصى وقد كان قاسياً مثل أبيه، ويقال: إنه قد همَّ بمعاملة البربر معاملة بلاد غير المسلمين التي تقع تحت الفتح، فيعرض الأخماس ويأخذهم فيئاً للمسلمين.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أمـا والله إنَّ الظلم لؤم ... ومـا زال المسيء هو الظلوم
إلى ديَّان يوم الدِّين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم
سينقطع التلذذ عن أناس ... أداموه وينقطع النعيم
لأمر ما تصرفت الليالي ... لأمر ما تقلبت النجوم

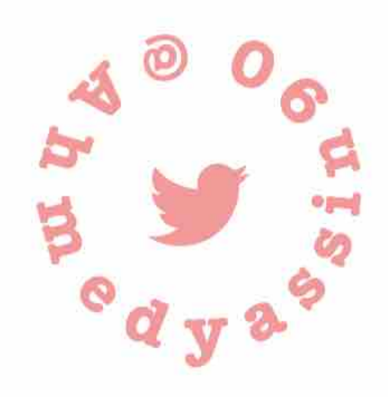
فقام البربر بثورتهم والتفوا حول سقَّاء يقال له «ميسرة المدغري»، وتحقق لهم الكثير مـن الانتصارات فقد قتلـوا والي طنجة، كما عادوا إلى سوس وقتلـوا إسماعيل بن عبيد الله بـن الحبحاب، غير أنهم تمردوا على قائدهم ميسـرة، فقتلوه ووَلَّوْا مكانه «خالد بن

حميد الزناتي» من قبيلة زناتة البربرية المشهورة، فكان هذا البربري المسلم نِدّاً لذلك العربي المسلم، فهزمه شرّ هزيمة وخسر المسلمون عرباً وبربراً الكثير من الرجال والعتاد في سبيل عصبية نتنة كان الإسلام قد سلَّ سيفه للقضاء عليها، لكنَّ القائمين على تنفيذ تعاليمه آنذاك بعيدون عن الالتزام بمبادئه.

علم الخليفة هشام بن عبد الملك بما دار في المغرب من حروب بين رعاياه فحاول استدراك الأمر فعزل عبيد الله بن الحبحاب والي أفريقية وعين بدلاً عنه «كلثوم بن عياض القشري» الذي سيَّر جيشاً بقيادة ابن أخيه «بلج بن بشر القشري»، ولعله كان متفائلاً باسم بشر ليحمل له البشر بإخماد الثورات ونشر المحبة والسلام بين المسلمين، وهنا تخرج عصبية أخرى لكن هذه المرة بين العرب أنفسهم، فقد توجس العرب القاطنون في أفريقية شرّاً من هذا الجيش القادم من الشام، فاستقبلوا كلثوماً وابن أخيه بلجاً بشيء من الفتور، فأبدى لهم بلج بن بشر جفاء وخشونة ومعاملة مماثلة فكادت أن تقوم فتنة أخرى لكنَّها هذه المرة بين جيشين تابعين للخليفة، غير أنَّ الحكمة كانت هي الغالبة فاتحد الجيشان وسارا لقتال إخوانهم المسلمين من البربر، وهذا من غير الحكمة، فانهزم العرب وقتل الكثير منهم بمن فيهم كلثوم وحبيب، أمَّا بلج بن بشر فقد فَرَّ إلى سبتة.

شعر الخليفة الأموي بقدرة التمرد البربري، فسيرَّ «حنظلة بن صفوان الكلبي» والياً على أفريقية الذي اجتهد في إخماد الثورات غير أنَّ مراده لم يتم، فعادت أفريقية إلى نفوذ البربر والموالي دون توحد وإنما دويلات هنا وهناك لم يكن لها شأن في علو هامة الإسلام، بل كانت وبالاً عليه.




@Ahmedyassin90

الثـورات العـرقيـة

انتصـار البربر المسلمين علـى إخوانهم العرب المسلمـين كان توطئة وحافزاً لدغدغة مشاعر بربر الأندلس الذين كانوا يداً واحدة مع إخوانهم العرب في فتح الجزيرة وجعلها وطناً لهم، لكن العصبية أبت إلاَّ أن تضرم نارها في جسد البلاد الإسلامية.

كان عبدالملـك بـن قطن واليـاً على الأندلس وكان قـد شهد موقعة الحـرَّة قبل ستين عاماً، وهي إحدى ضواحي المدينة المنورة، وقد اجتاحها مسلم بن عقبة المري مرسلاً من قبل يزيد بن معاوية الأموي واستباحها ثلاثة أيام، وقتل من أهلها الكثير، ونهب أموالها، وهتـك الأعراض فكانـت من أسوأ المواقع في التاريخ الإسلامـي وأقبحها، وقد ولَّدت تلك الواقعـة حقداً وكرهاً لدى عبدالملك بن قطن على الشاميـين، فعندما استنجد به بلج بن بشر المحاصر في سبتة مع بعض من جند الشام بعد هزيمتهم من البربر استجلت صورة موقعة الحرة بين ناظريه، فأبى مناصرتهم، بل إنه عاقب أحد الزعماء التابعين له بالجلد والقتـل بعد أن زودهم ببعض المـؤن وكان حذراً في إظهار حقده عليهم؛ خشية الخليفة في دمشـق، لكـنَّ الأحداث أجبرته على الاستنجاد بهم بعدمـا ضاقت به الحيل جرَّاء ثورات البربـر عليـه وانتصاراتهـم في أكثر من موقع، فـرأى أنَّ من الحكمـة الاستعانة ببلج بن بشـر مع جنـده الشاميين الذيـن يزيد عددهم عـن عشرة آلاف مقاتـل والمحاصرين في سبتـة، فبـدأ في مفاوضتهم في إخـلاء سبيلهم وانضمامهم إليه ضـد البربر الأندلسيين المسلمـين، شريطـة مغادرتهم بعد انتهـاء مهمتهم بهزيمة البربر، فأعطـوه المواثيق على ذلك، فساعدهم في الوفود إليه والانضمام إلى جنده، وأخذا معاً في قتال إخوانهم البربر المسلمـين فكانـت الغلبة لهما بعد معـارك كبـيرة كان وقودها مسلمون وعتـاد إسلامي، ورمادها، دور للمسلمين مهدمة، ومصانع وجنان مقطعة، وخراب ودمار في ديار المسلمين بأيدي المسلمين، فكانت مأساة أخرى من مآسي الأندلس الكثيرة.

بعـد انتهـاء إخماد ثـورات البربر طلب عبدالملك بـن قطن الكهل، البالـغ من العمر تسعين عاماً من بلج بن بشر تنفيذ ما تم الاتفاق عليه ومغادرة الأندلس غير أنَّ بلجاً تمنَّع وسـوَّف متشبثاً ببعض الأعذار التي يُخْفِي تحتهـا مطامعه، ووقع ما خشي منـه عبدالملك

بن قطن، فقد ثار بلج بن بشر وادَّعى أنه صاحب الحق في الأندلس بوصية من عمه كلثوم، وأخذ بلج في إثارة النعرات فانضم إليه اليمانية ضد المضرية فكأن موقعة الحرَّة التي شهدها عبد الملك بن قطن شاباً يافعاً قريبة الوقوع وهو كهل يبلغ التسعين، وهكذا اقتحم عليه جيش بلج بن بشر داره وقتلوه دون رحمة وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً إلى أن سرقه مواليه بالليل وغيبوه، وبهذا تولى بلج بن بشر مع جموع اليمانيين الولاية بعد اغتصابها من عبد الملك بن قطن المضري.

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب — فالناس بين مخاتل وموارب

يفشون بينهم المودة والصفا — وقلوبهم محشوة بعقارب

وبهذا تبدأ الحروب العرقية العربية أو اليمانية المضرية في فتنة ظالمة وقودها الأبرياء من المسلمين.



الفتنة اليمانية المضرية

قد لا نكون منصفين إنْ قلنا: إنَّ الفتنة اليمانية المضرية فتنة عصبية فحسب، بل لقد اختلطت فيها الكثير من الأسلحة الخفية المتمثلة في الطمع والحقد والحسد والثأر للذات وحب الانتقام والاستئثار بالمال والسلطان.

يقول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سُراة لهم ... ولا سُراة لمن جُهَّالهم سادوا

بعد مقتل «عبد الملك بن قطن» واغتصاب «بلج بن بشر» الولاية، ثار عليه ابنا عبد الملك «أمية» و«قطن»، واجتمع معهم «البلديون» وهم عرب الأندلس وأيضاً كثير من البربر وبعض من العرب اليمانية ممن رأوا في فعل «بلج بن بشر» خرقاً للعهد وتطاولا على صاحب حق، فأصبح الناس في الأندلس معسكرين: أحدهما الشاميون بقيادة «بلج بن بشر» والآخر البلديون والبربر بقيادة ابني عبد الملك بن قطن الذين رأوا في الشاميين دخلاء محتلين لأرضهم، وقامت المعركة بين الفريقين، قتل فيها قائد الجيش الشامي بلج بن بشر غير أن جيشه لم يهزم واستمر في القتال حتى النصر ووَلَّوْا عليهم «ثعلبة بن سلامة الجذامي»، وهو ممن كان مع بلج بن بشر في أثناء الحصار في سبتة.

لم يجتمع الناس على ثعلبة فتحولت الأندلس إلى مناطق، استأثر بكل واحدة منها قائدٌ من قادة الجند، ومكثت كذلك برهة من الزمن، غير أن الطمع في الغلبة جعل الفريقين يعودان للقتال مرة أخرى، فانهزم الشاميون في بادئ الأمر، غير أنهم لم يلبثوا أن استجمعوا قواهم وحولوا الهزيمة إلى نصر ساحق، وقد أضمر «ثعلبة بن سلامة» قتل من وقع تحت يده من الأسرى العرب البلديين والبربر وكأنهم ليسوا إخوانه المسلمين، وفي هذه الأثناء قَدِمَ «أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي» مُعيَّناً من قِبَلِ والي أفريقية، فأحسن لثعلبة ولأبناء عبد الملك بن قطن ولغيرهم من القادة، وأكرم رِفادَتهم فاستقامت الأمور له برهة من الزمن، غير أنَّ عصبيته القبلية أبت إلاَّ أن تضيف إلى الأندلس مأساة أخرى لتزيد من جرح مكلوم أضرَّت به سهام أبنائه، فقد كان كما قال الرازي أعرابياً

عصبياً أفرط في التعصب لقومه «اليمانية» وتحامل على المضرية وأسخط قيساً، وأمر في بعض الأيام بالصُّميل بن حاكم بن شمر بن ذي الجوشن وهو من قادة القيسية بإخراجه من مجلسه، فتقنع الصُّميل، فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبا الجوشن، فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها، فألّب قومه على أبي الخطار، وانضم إليه بعض اليمانية الساخطين على أبي الخطار؛ إما لحسدهم له أو انتقاماً لأنفسهم بسبب عزلهم أو منعهم من الغنيمة أو أُعطيات بيت المال، فخُلع أبو الخطار؛ وأُدخل السجن وأُبدِل به ثوابة بن سلامة الجذامي، وهو يماني لكنه كان يحقد على أبي الخطار لأنه عزله عن ولاية أشبيلية، لكنَّ أبا الخطار استطاع الهروب من السجن وجمع حوله بعضاً من اليمانية لمحاربة القيسيين بقيادة الصُّميل، واليمانيين بقيادة ثوابة، غير أنه وقع في الأسر وعفا عنه ثوابة بعد أن تفرق الناس عنه.

وبعد ما يقرب من سنتين مات ثوابة فتنازع القادة الأمر، فأصرَّ اليمانيون أن تبقى القيادة فيهم لكون ثوابة يمانيًّا، وأصرَّ المُضريون على أن تكون القيادة للصُميل لكونه قيسيًّا مضريًّا، واستمر الناس في فوضى عارمة دون ولي أمر ولم يكن باستطاعة الخليفة في المشرق فعل الشيء الكثير، فقد ضَعُفَت الدولة الأموية وعظُم أمر الدعوة العباسية.

واتفق الفريقان على تدويل السلطة بينهم كل عام، فكان «يوسف بن عبد الرحمن الفهري» محل إجماع من الطرفين؛ ليكون والياً للسنة الأولى، وقد بيَّتَ يوسف الغدر، فلم يُدوِّل السلطة وأمضاها تحت يده، فاستسلمت اليمانية للغلبة وركنوا للمسالمة مع حقد دفين كان يتأجج في قلوبهم ينقضُّون به على يوسف كل ما سنحت لهم سانحة.

هذه المدة العجيبة من تاريخ الأندلس تُبَيِّن ذلك الكمّ الهائل من الخسائر البشرية والمادية والمعنوية والأرض والعلم والثقافة وتنوير الأفئدة والقلوب.

لقد حدثت حروب طويلة مضنية بعد مدة من الركود فكانت حرباً ضروساً بين المُضرية واليمانية أدَّت إلى فناء الكثير من الرجال والسلاح، حروب سببها الأحقاد والقبلية، والعصبية والحسد، وحب الذات والاستئثار بالسلطة، وعدم جمع الكلمة، والغاية تحقيق مآرب شخصية دون مصالح الأمة، ليستمر الحال على هذا المنوال إلى حين دخول «عبد الرحمن الداخل» أرض الأندلس.

لقد ذهب هؤلاء قصد إعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام وإسعاد البشرية جمعاء دون تفريق بين جنس أو لون أو عرق أو دين كما أمرهم ربهم وليدعوا إلى كلمة سواء، فإذا بهم يتنازعون السلطات ويتقاتلون في سبيل الانتقام والحقد وغيره من الأسلحة الخفية التي كان وقودها الناس والممتلكات، وهذه إحدى مآسي الأندلس الكثيرة.

كانت أوروبا في ذلك الحين في حاجة إلى العلم والمعرفة، حيث كانت تعيش في ظلمة الجهل، وكان المسلمون قادرين على نقل معارفهم ومعارف من سبقهم من الأمم إليها ونشر ثقافتهم بها، لكنَّهم في تلك الحقبة وبدلا من نشر الخير تقاتلوا فخسروا الدنيا والدين، ليتأجل ذلك المدّ العلمي ويتأخر إلى حين.

كما أنَّ هذه الحقبة قد أضاعت على المسلمين الكثير من المنجزات التي كان بالإمكان تحقيقها في أوروبا، وليتهم قرؤوا أبياتا من الشعر لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وعملوا بها، فهو القائل:

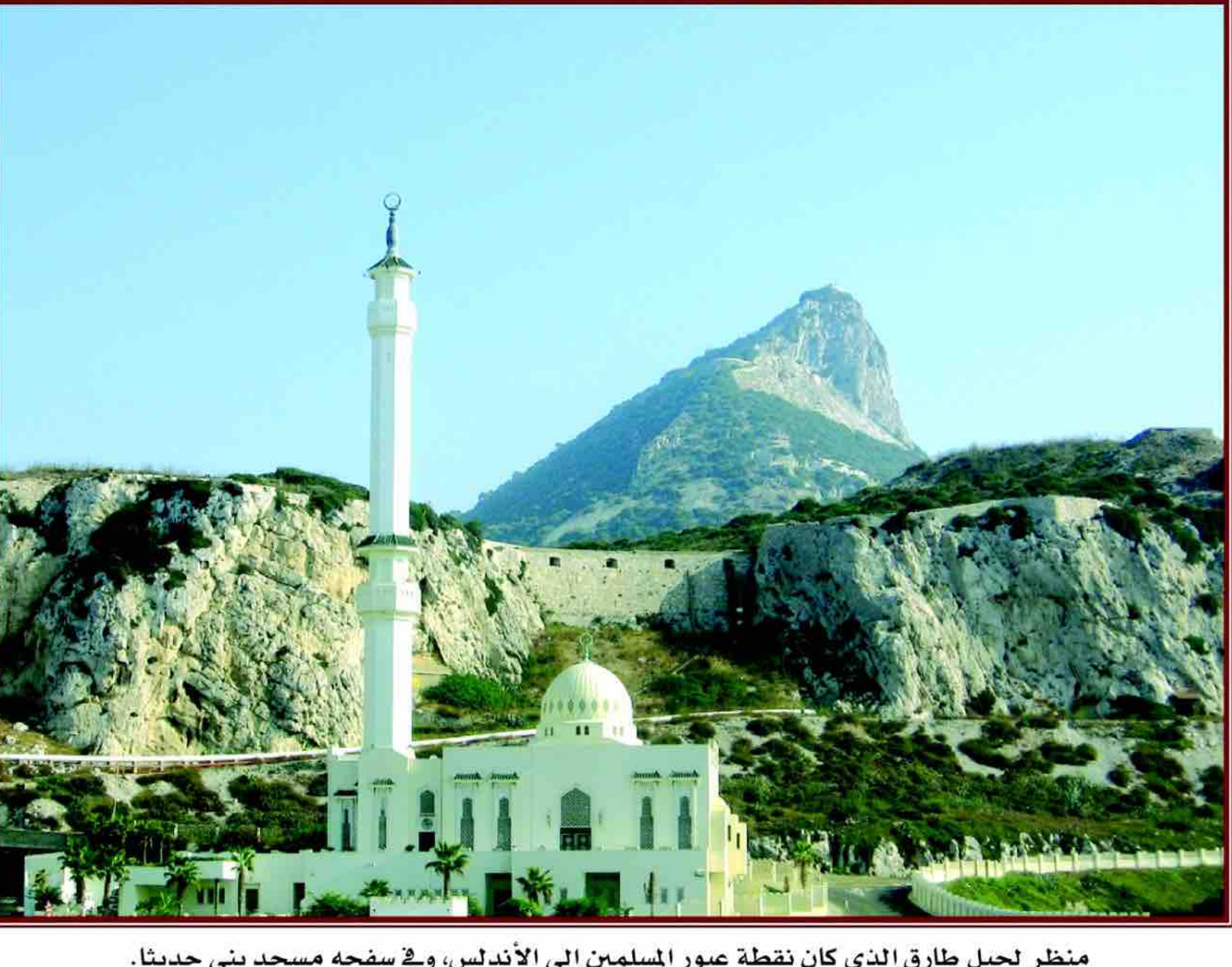
أيها الفاخر جهلاً بالنسب — إنما الناس لأم ولأب

هل تراهم خلقوا من فضة — أم حديد أو نحاس أم ذهب

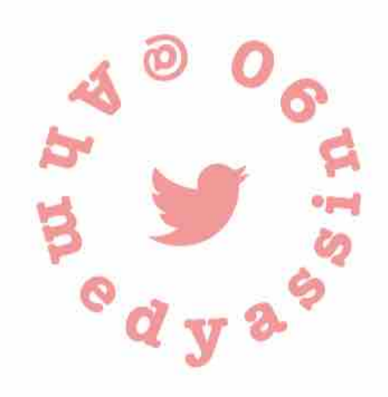
بل تراهم خلقوا من طينة — هل سوى لحم وعظم وعصب

إنما الفخر لفعل ثابت — وحياء وعفاف وأدب





منظر لجبل طارق الذي كان نقطة عبور المسلمين إلى الأندلس، وفي سفحه مسجد بني حديثا.


@Ahmedyassin90

الفَصْلُ الثَّانِي

عصر الدولة الأموية بالأندلس

- الدولة الأموية بالأندلس.
- عبدالرحمن الداخل.
- هشام بن عبدالرحمن.
- الحكم بن هشام.
- عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط).
- محمد بن عبدالرحمن الأوسط.
- المنذر بن محمد بن عبدالرحمن.
- عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن.
- عبدالرحمن الناصر.
- الحكم بن عبدالرحمن الناصر (المستنصر).
- هشام المؤيد بالله.



الدولة الأموية بالأندلس

تعد الدولة الأموية بالأندلس أكثر مراحل التاريخ الأندلسي استقراراً مع ما شابها من المنازعات والمآسي والآلام والأحزان.

وقبل أن نبحر في خضم هذا البحر المتلاطم لنا وقفة قصيرة على بعض الأحداث التي صاحبت المرحلة الأموية في المشرق، فقد امتدت الفتوحات في العصر الأموي حتى بلغت ذروة سنامها، واستقر الحال لعقود قليلة ما لبث أن هرمت بعد أن بلغت من العمر ما يبلغه الإنسان في المتوسط، ويمكن تقسيم أثر الدولة الأموية في المشرق إلى ثلاثة آثار كبيرة امتدت حتى عصرنا الحاضر، وأول تلك الآثار تحول السلطة من الاختيار التوافقي إلى نيلها عبر المنازعات والحروب، ومن ثم تلك الفاجعة المؤلمة التي مازال أثرها باقياً، وهي مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كربلاء وقتل الكثير من أبنائه وإخوانه وعدد غير قليل من آل البيت، وكذلك موقعة الحرَّه التي وقعت في مدينة رسول الله ﷺ حيث بعث يزيد بن معاوية الأموي جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري، فأباح المدينة للجند وارتكبوا الكثير من الآثام والجرائم وساروا إلى مكة المكرمة وفعلوا فيها الأفاعيل مما زاد المسلمين فرقة وتناقضاً.

والأثر الثاني هو التوسع في الفتح مما جعل الكثير من الأقوام والشعوب تدخل في دين الله أفواجاً؛ ليستمر ذلك الحدث حتى يومنا هذا، وهذا أثر جميل لا ريب.

والأثر الثالث هو سقوط دولتهم في المشرق على يد أبي العباس السفاح الذي استغلَّ السلاح الخفي من حقد ورغبة في الانتقام لمقتل الحسين واستباحة مدينة رسول الهدى ﷺ في موقعة الحرة، فبثَّ أعوانه في كل مكان عندما آلت إليه قيادة المسودة، فقد تتبع بني أمية بعد أن أوكل أمر مطاردتهم إلى عمه عبدالله بن علي، فقتل الكثير من سادتهم ومواليهم ولم يبقِ حتى على النساء والأطفال، وفرَّ بعض منهم مخافة بطشه، فأظهر لهم العفو، واستمر الحال سنة، فأكرم من وفد إليه منهم، ثم فتك بهم وقتلهم شر قتلة في مأساة مهولة شهدت مظاهر قسوة فائقة، وفيه قال الشاعر المحرض على القتل:

لا يغرَّنك ما ترى من رجال إنَّ تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السَّوط لا ترى فوق ظهرها أمويا

ولعله سُمِّيَ بالسفَّاح لقوله بمسجد الكوفة عند مبايعته: «فأنا السفَّاح المُبيح، والثائِر المُنيح».



عبدالرحمن الداخل

شاء الله تعالى أن يفلت من زمام هذه المطاردة فتى من بني أمية هو «عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك» الملقب بعبدالرحمن الداخل الذي كان له شأن في تاريخ الأندلس، شاب يافع عاش في كنف جده هشام بن عبدالملك بعد موت أبيه معاوية، وكانت أمه بربرية تسمى «راح» من سبايا بيت الخلافة في دمشق.

أفلت من ملاحقة العباسيين له بعد أن قطع النهر سباحة، ثم أمدَّته أخته «أم الإصبع» ببعض المال الذي أرسلته مع مواليه «بدر» و«سالم» وهو في طريق هروبه، واتجه نحو المغرب لينزل على أخواله «نفزة» من برابرة الأندلس وعند وصوله أفريقية علِم بوجوده عبدالرحمن بن حبيب واليها، فأخذ في مطاردته وكاد يقع في أيديهم ليفلت مرة أخرى، وليقضي الله أمراً كان مفعولا.

ونزل لدى إحدى القبائل البربرية، منهم من قال: «زناتة»، ومنهم، من قال: «مكناسة»، وآخرون، قالوا: «مغيلة»، وأيّاً كانت القبيلة التي ضَيّفَتْه فقد تم المراد، وأرسل بدراً مولاه برسائل إلى الأندلسيين فمهدوا لقدومه وأشاعوا الدعوة إليه، وكان الوضع السياسي مُهَيَّئاً لدخوله فقد كانت الضغائن والإحن على أشدها بين اليمانية والمضرية، وكانت اليمانية تتحين الفرص للانقضاض على المضرية بقيادة «يوسف بن عبدالرحمن الفهري» حاكم الأندلس و«الصُميل» حليفه.

دخل عبدالرحمن الداخل الأندلس بعد أن هيأ له مولاه بدر السبيل إلى نيل المرام، وتسابقت اليمانية للانضمام إليه انتقاماً من المضرية،كما انضم إليه بعض الولاة مثل ابن مساور، وعتاب بن علقمة اللخمي، وابن الصباح، وبينما كان «يوسف بن عبدالرحمن» غازيا في «حليقية» علم بظهوره فرجع قافلاً، فأشار عليه حليفه الصميل بن حاتم بأن يلاطفه، ثم يمكر به لكونه صغير السن قليل التجربة، لكنَّه كان أحذر من أن يخدع، وكانت بداية انحسار أمر يوسف بن عبدالرحمن الفهري قد لاحت عندما انفضت المضرية عنه والتحقت بعبدالرحمن الداخل، حيث لم يبق مع جيش يوسف سوى القليل من

القيسية والفهرية لمكانة الصُميل ونفوذه في قومه. وتقابل الجيشان فانهزم جيش يوسف ليطلب يوسف الصلح وهو يُضمر الانقضاض مرة أخرى عندما تحين الفرصة، فوافقه عبدالرحمن الداخل واشترط عليه الاستقرار بقرطبة، ثم نقض يوسف عهده وجمع حوله العديد من البربر فسار إليه عبدالرحمن الداخل وقضى على جيشه بعد قتال مرير، وفرَّ يوسف ناجياً بنفسه غير أنَّ الخيانة والدسائس وشراء الذمم تأخذ طريقها إلى بعض أعوان يوسف فاجْتُزَّ رأسه وُقدِّم إلى عبدالرحمن الداخل، وقد قيل: إن عبدالرحمن الداخل هو من دبر الاغتيال وخطط له.

كما قام رجل من البربر يقال له «يشتقنا بن عبدالواحد»، كان يُعلم الصبيان، فادعى أنه من أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وتسمى بعبدالله بن محمد، فتبعه عدد كبير من البربر ولم يظفر به قادة عبدالرحمن حيث لجأ إلى الجبال، وبعد مدة استخدم عبدالرحمن الداخل سلاح المال مرة أخرى فغدر به رجلان من أصحابه واجتزا رأسه وقدماه إلى عبدالرحمن الداخل، وهنا نجد سلاح المال يسفك دماء الخصوم بدلاً من أن تقطع السيوف رؤوسهم في المعركة.

ولم يَتَسَمَّ عبدالرحمن الداخل بالخلافة احتراما لمقامها فتسمى بالأمير وتبعه مَنْ بعده حتى عهد عبدالرحمن الناصر، وقد كان الأمير قاسياً شديد البأس عالي الهِمَّة، صارماً، جريئاً، لا يهاب الصعاب، قال عنه صاحب «نفح الطيب» نقلاً عن ابن حيان: إنه يماثل أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي وكل واحد منهما أمه بربرية.

وقد وصفه ابن زيدون في كتاب «التبيين»، فقال: إنه أصهب، خفيف العارضين، بوجهه خال، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعور أخشم، والأخشم الذي لا يشم.

لم يكن عصر عبدالرحمن الداخل بعد استيلائه على الحكم رائقاً كله فقد أذاقته مُنْغِصَات الليالي كما أذاقت غيره، فقد قام العلاء بن مغيث اليحصبي داعياً لأبي جعفر المنصور فوافقه بعضهم فتقاتل الفريقان وانهزم العلاء، فجمع عبدالرحمن الداخل عددا من رؤوس من قتلوا فألقيت في أسواق القيروان ومكة المكرمة سراً ومعها اللواء الأسود، وهو لواء بني العباس، وأرفق معها نُسخاً من كتاب أبي جعفر المنصور إلى العلاء،

فارتاع المنصور، وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلاماً هذا معناه.

وها هو الشمال الأندلسي يثور على الحاكم الجديد، فالشمال يرتبط بنقاط تماس كثيرة مع أوربا المسيحية ويمكن لهذه النقاط أن تكون عوناً كبيراً لدولة الأندلس في رد أعدائها المتربصين بها من الشمال، أو تكون خنجراً يمكن استخدامه لضرب خاصرة العالم الإسلامي في الأندلس؛ لتحدث جراحاً غائرة تقضي على الجسد كله.

وليس هناك مدخل يمكن الولوج منه أفضل من باب الطمع والحقد والحسد، فها هو «سليمان بن يقظان الكلبي» والي برشلونة يتحالف و«الحسين بن يحيى الأنصاري» -وهو من أحفاد الصحابي الجليل سعد بن عبادة وكان والياً لسرقسطة- لخلع عبدالرحمن الداخل لانتزاع ملكه -والله وحده هو الذي يعلم ماذا يبيت أحدهما للآخر- مستغِلّين انشغال عبدالرحمن الداخل بالثورات المتلاحقة في الجنوب والشرق والغرب.

وعندما علم بشقهما عصا الطاعة أرسل إليهما جيشاً بقيادة «ثعلبة بن عبيد الجذامي»، غير أنَّ جيش ثعلبة انهزم شرَّ هزيمة، وتمكن سليمان من أسره، إلا أنَّ خوفهم من عبدالرحمن الداخل جعلهم يحجمون عن التوسع جنوباً، وقادهم طمعهم وحقدهم وتخطيهم بعض الثوابت التي كانت سائدة في عصرهم إلى الاستعانة بملك الإفرنج كارل مارتل (شارلمان) الذي كان موجوداً في شمال غرب ألمانيا لإنهاء بعض الطقوس اللازمة لتنصير السكسونيين الوثنيين الذين مُنوا بهزيمة ساحقة على يده.

وفد إليه سليمان مع مرافقيه وعرضوا عليه مساعدتهم في غزو الشمال الأندلسي وتعهدوا بأن يسلموا له المدن التي تحت أيديهم مثل برشلونة وسرقسطة، وأن يسلماه أسيرهما الثمين العزيز على قلب عبدالرحمن الداخل، وهو ثعلبة بن عبيد القائد الذي يعتمد عليه عبدالرحمن كثيراً.

وقد ذكرت بعض الروايات أنَّ بعضاً من أبناء يوسف بن عبدالرحمن الفهري كانوا مع سليمان؛ حباً في الانتقام من عبدالرحمن الداخل الذي أزال حكم أبيهم وبعثر جنده وقُتِلَ بتدبير منه.

وافق كارل مارتل (شارلمان) على العرض السخي مستغلاً تلك المطامع الدنيئة من سليمان ورغبته في توسيع ملكه والحصول على المزيد من الأرض والمال، وهناك من يرى أن العامل الديني كان حاضراً عند قبوله عرض سليمان وأنه يطمع في إجبار الشمال الأندلسي وربما الأندلس كلها على اعتناق النصرانية كما فعل ضد الأفار وضد السكسونيين.

سار جيش كارل مارتل (شارلمان) وتجاوز الجبال ودخل برشلونة، وسار إلى سرقسطة، وفجأة يحدث تغير في موقف الحسين بن يحيى الأنصاري لأسباب لا يعلمها إلا الله، فربما يكمن السبب في غيرته من سليمان الذي حظي أكثر منه بثقة كارل مارتل (شارلمان)، أو أنه خشي من زوال سلطانه على يد كارل مارتل (شارلمان)، أو الغدر به من قبل الإفرنجي الوافد، أو أنَّ ضميره قد أفاق من غفلته ونازعت قوى الخير عنده قوى الشر فغلبتها، ومهما تكن الغاية فقد أقفل أبواب مدينة سرقسطة ورفض إلحاح سليمان عليه واستبسل في رد هجمات جيش عدوه.

عاد جيش كارل مارتل (شارلمان) أدراجه بعد أن استعصت عليه سرقسطة وأخذ معه سليمان أسيراً، واختلفت الروايات في تبيان سبب عدوله، فمنهم من عزاها إلى خوفه من المجهول بعد أن أدرك عجز سليمان عن تنفيذ وعوده، وخير شاهد على ذلك تمرد الحسين بن يحيى في سرقسطة، وقد تكون عودته بسبب شكِّه في أنَّ سليمان قد أوقعه في شرك قد يقضي على جيشه، وربما يرجع السبب في نكوصه إلى الثورات السكسونية التي ظهرت في بلاده.

عاد أدراجه دون تحقيق مراده وسار بجيشه الكبير يتخطى الجبال، وفي غفلة من الجيش هجم ابنا سليمان «عيشون» و«مطروح» على مؤخرة الجيش الإفرنجي بسرعة فائقة ومهارة رائعة، وانتزعا سليمان بن يقظان ومن معه من الأسرى وما حمله جيش شارلمان من غنائم، ولم يبق في يد جيش شارلمان من الأسرى سوى ثعلبة بن عبيد الذي سلمه له سليمان وقت وفوده إليه أو في أثناء قدومه إلى الأندلس.

وعاد سليمان مع أبنائه إلى برشلونة وكانت الريبة قد أرست أطنابها في قلبي الحليفين السابقين، وأخذ الحسين يتربص بسليمان بن يقظان حيث أرسل له ذات يوم من قتله وهو في المسجد الجامع، ولم يمنعه من ذلك دين، ولم تصده صحوة ضمير، ولم تردعه مروءة.

وبعد مدة من الزمن سار عبدالرحمن الداخل بجيش إلى سرقسطة لقمع تمرد الحسين، وانضم إليه عيشون بن سليمان انتقاماً لمقتل أبيه، وقد نزل الحسين على حكم عبدالرحمن الداخل بعد حصار مرير فأبقاه عبدالرحمن والياً على سرقسطة وأخذ ابنه سعيد رهينة، غير أنه فرَّ من الجيش في أثناء عودته إلى قرطبة، وقد توجس عبدالرحمن الداخل خيفة من عيشون بن سليمان فأمر بقتله.

أما الحسين بن يحيى الأنصاري الذي أبقاه عبدالرحمن الداخل والياً على سرقسطة فقد عاد إليه ابنه سعيد بعد هروبه من جيش عبدالرحمن فنكث العهد وغدر وخان وأعلن العصيان، فغضب لذلك عبدالرحمن الداخل وأرسل جيشاً كبيراً بقيادة «غالب ابن تمام بن علقمة»، فكانت معارك شديدة هزم فيها الحسين وأسر ابنه يحيى، وكان عبدالرحمن الداخل قد عزم على تصفية التمرد في سرقسطة فأمر بقتل يحيى ومن معه، وكان الحسين قد امتنع وتحصن في بعض المواقع فسار عبدالرحمن الداخل بنفسه إلى سرقسطة وقبض على الحسين وجمع غفير من أعوانه وقتلهم جميعاً، أما سعيد بن الحسين فقد فر مرة أخرى.

صفحة مليئة بالطمع والحقد والحسد والانتهازية وغياب الضمير سجلت في أوقات من تاريخ الأندلس في عصر عبدالرحمن الداخل، ولم تكن هذه الصفحات السوداء التي جلبت الدمار والمآسي على الأندلسيين الصفحات الوحيدة، فصفحات البطولة والسعادة كانت موجودة إلاَّ أن هذا الجزء من الكتاب يتناول المآسي التي عاشها الأندلسيون.

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ومن كرمت طبائعه تحلى	**بآداب مفضلة حِسان**
ومن قلت مطامعه تغطى	**من الدنيا بأثواب الأمان**
وما يدري الفتى ماذا يلاقي	**إذا ما عاش من حدث الزمان**
فإن غدرت بك الأيام فاصبر	**وكن بالله محمود المعاني**
ولا تك ساكناً في دارِ ذُلٍّ	**فإنَّ الذُلَّ يقرن بالهوان**
وإن أولاك ذو كرم جميلاً	**فكن بالشكر منطلق اللسان**

واجـه عبدالرحمن الداخل غدراً من نوع جديد، وطمعـاً مُرّاً، وجُرحاً غائراً، فقد أُتِيَ من مأمنه.

فهـا هو يستقدم جميع من نجا من بني أميـة إلى الأندلس؛ حتى يكونوا له سنداً، وفي خاصـرة أعدائه خنجراً، وحتى ينعموا بما فتح الله عليه من رغد العيش، وأيضا ليتباهى عليهم بما نال، فإذا بهم وبال عليه بدلاً من أن يكونوا رِفداً له.

فقد طمع في مقامه ابن أخيه عبيد الله بن أبان بن معاوية وكذلك عبدالسلام بن يزيد ابن هشام المعروف باليزيدي وهو ابن عم عبدالرحمن الداخل وساعدهما أبو عثمان كبير الدولـة، فاكتشـف عبدالرحمـن المؤامرة ولم يجد حرجاً في قتل ابـن أخيه وابن عمه وعفا عن أبي عثمان لجليل أعماله السابقة وقال: هو أبو سلمة هذه الدولة، يشير إلى «أبي سلمة الخلال» الذي كان يلقب وزير آل محمد، وقد تخلص منه العباسيون حين تمهدت الدولة.

كما أن التوفيق قد حالفه في اكتشاف مؤامرة أخرى كان على رأسها «المغيرة بن الوليد ابـن معاوية» ابن أخيه الوليد و«هذيل» ولد الصميـل بن حاتم، فلم يتردد في قتلهما، وقد نقـل لنا صاحب كتاب «المسهـب»، والمقري في «نفح الطيـب»، أنَّ أحد موالي عبدالرحمن الداخـل دخل عليه إثر قتله ابن أخيه المغيرة وهو مطـرق شديد الهم، فرفع رأسه، وقال: «مـا عجبي إلاَّ من هـؤلاء القوم، سعينا فيما يضجعهم في مهـاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنـا حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنـا ويسَّر الله تعالى أسبابه، أقبلوا علينا بالسيوف، ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا ووردت عليهم أخلاف النعم، هـزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسَمُوا إلى العظمى، فتنازعونا فيما منحه الله تعالى، فخذلهم الله بكفرهم النعم، إذ أَطْلَعَنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم وساء أيضاً ظنه فينا وصار يتوقع من تغيرنا عليه مـا نتوقـع نحن منـه، وإنَّ أشدَّ ما علي في ذلـك أخي والد هذا المخـذول وكيف تطيب لي نفسـ بمجاورته بعـد قتل ولده وقطع رحمه؟ أم كيف يجتمع بصـري مع بصره؟ أُخْرُجْ له الساعة فاعتذر إليه، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه واعزم عليه في الخروج عن هذه الجزيرة إلى حيث شاء». قال: فلما وصلت إلى أخيه وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء،

فآنسته وعرفته ودفعت إليه المال وأبلغته الكلام فتأوه وقال: إنَّ البليغ لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه، وهذا الولد العاق الذي سعى في حتفه قد سرى ما سعى فيه إلى رجل طلب العافية وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معَرَّة الزمان وكَلِّه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا مرد لما حكم به وقضاه.

ورجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله، فقال: إنه نطق بالحق، ولكن لا يخدعني بهذا القول عما في نفسه، والله لو قدر أن يشرب من دمي ما عفَّ عنه لحظة، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم، وأذلَّهم بما نووه فينا، ثم طلب من أخيه الوليد مغادرة الأندلس إلى المغرب».

لقد نافس الكثير من القيادات العربية بالأندلس عبد الرحمن الداخل على الحكم فكان بينهم وقائع مهولة، وخطوب عظيمة، وكانت العاقبة له.

فاسْتَراب من العرب وخشي تغلبهم عليه برغم اعتماد أجداده من بني أمية عليهم ويبدو أنه تذكر قول شاعرهم:

ونحن أناس لا توسط بيننا … لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فخشيهم وأبعدهم عن مراكز القرار وقرب القبائل الأخرى مثل أخواله البربر واتخذ الموالي وجعلهم مأمنه وخزينة سره.

ويقال: إن عبد الرحمن الداخل قد بلغه مِنَّةٌ بعضٍ ممَّن أعانه حتى وصل إلى ما وصل إليه وأنَّه نال ما نال بسعده، لا بتدبير عقله، فكتب شعراً قال فيه:

لا يُلف ممتنٌ علينا قائل … لولاي ما ملك الأنامَ الداخل

سعدي وحزمي والمهند والقنا … ومقادر بلغت وحال حائلُ

إنَّ الملوك مع الزمان كواكب … نجم يطالعنا ونجم آفل

والحزم كل الحزم ألا يغفلوا … أيروم تدبير البرية غافل؟

ويقول قومٌ: سعده لا عقله … خير السعادة ما حماه العاقل

أَبَني أميَّة قد جبرنا صدعكم … بالغرب رغماً والسعود قبائل

مادام من نسلي إمام قائم … فالملك فيكم ثابت متواصل

كان عبدالرحمن الداخل كما قال ابن حيان: «راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغاً، مفوهاً، شاعراً، محسناً، سمحاً، طلق اللسان».

إنَّ ما ذكره ابن حيان عن عبدالرحمن الداخل يجسد صفات القائد الذي يريد بناء صرح دائم ويمهد طريقاً لمن يعقبه ويرسخ دعائم دولة تدوم.

تلك الخلال التي ذكرها ابن حيان تدل على القوة والحزم والحذر الشديد، وقد كان الموقف في الأندلس يتطلب ذلك فكان عبدالرحمن يبالغ في حذره، ويتطرف في احتياطاته، ويقسو في انتقامه، ويظلم خَوْفَ الغدر، ويقمع لوَأْدِ الفتنة في المهد، ولا يتورع في النيل من الظالم ومن معه من الأبرياء دون تمييز، فالغاية لديه تبرر الوسيلة، والشك عنده يصبح يقيناً من فرط حذره، فيأخذ بالشك حتى أقرب الناس إليه، فقد قتل أقرب الناس إليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد وعبيد الله بن أبان، وقتل كذلك ابن عمه عبدالسلام، كما أبعد أخاه الوليد إلى المغرب، كما لم يتورع عن قتل بعض ممن آزره في محنته ووقف بجانبه يوم وفد إلى الأندلس شريداً، فبدر مولاه الذي أرسله إلى الأندلس للدعوة إليه، والذي استطاع بفضل حنكته تهيئة الأمور له واستغلال التناقضات لمنفعته، ذلك المولى الذي قد رأى فيه عبدالرحمن في بادئ أمره صنيعته فأحسن مكافأته وأعلى منزلته، جرَّده بعد هذا من كل مناصبه وأمواله؛ لأن بدراً احتد في موقف عتاب عبدالرحمن وأسرف في قول ما يراه صواباً، متجاوزاً حدود اللباقة، ولم تفلح جميع المحاولات التي بذلها بدر لاسترضاء سيده عبدالرحمن فلم يصغِ إلى مقاله.

وقد أورد المقري بعضاً من الرسائل المتبادلة بين بدر وعبدالرحمن الداخل في هذا الشأن، فقد أرسل بدر رسالة إلى عبدالرحمن الداخل بعد تجريده من مناصبه قال فيها: «أما كان جزائي في قطع البحر، وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى، غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهيي عند

من يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحسدني على الطمع والرجاء، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت في أيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا فإنا لله وإنا إليه راجعون».

فلما وقع عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه فوقع عليها: «وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطابك، ودناءة أدبك، ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا مكاناً أتيت بما يهدم كل مكان مشيَّد مما تُمنُّ به، مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقد حث في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح إذلالك، فلعل ذلك يضمع منك ويردعك حتى نبلغ منك ما تريد إن شاء الله تعالى، نحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذْ شَرُّكَ مكتوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا».

فلما ورد هذا الجواب على بدر سقط في يده وسلَّم للقضاء وعلم أنه لا ينفع فيه قول، ووجه عبد الرحمن من استأصل ماله وألزمه داره، وهتك حرمته، وقصَّرَ جناح جاهه، وصَيَّرهُ أهون من قعيس على عمته، ومع هذا فلم ينته بدر يستلينه، تارة يُذكِّره وتارة ينفث مصدوراً بخط قلمه ما يلقيه عليه لسانه غير مفكر فيما يؤول إليه، إلى أن كتب له: «قد طال هجري، وتضاعف همي وفكري، وأشد ما علي كوني سليباً من مالي، فعسى أن تأمر في إطلاق مالي، وأتحِدَّ به في معزل لا أشتغل بسلطان، ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت، فوقَّع له: إنَّ لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته، ولا سبيل إلى رد مالك، فإن تركك بمعزل في بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلي من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فايأس من ذلك فإن اليأس مريح».
فسكت لما وقف على هذه الإجابة مدة إلى أن أتى عيدٌ فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة من يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس، فكتب إليه ذلك في رقعة: «قد أتى هذا العيد الذي خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى في خراب دولتك ممن عفوت عنه، فتبنَّك النعمة في ذراك، وافتقد ذروة العز، وأنا على ضد من هذا سليب من النعمة، مطروح في حضيض الهوان، أيأس مما أكون، وأقرع السِنَّ على ما كان».

فلما رأى هذه الرقعة، أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر وكتب له على ظهر رقعته: «لتعلم أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر، فبالله إلاَّ ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق به معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان، وما تقَوَّلوهُ عليك، ومالك عدو أكبر من لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك».

وكان صاحبه الثاني في المؤازرة والقيام بالدولة صهره أبو عثمان بن خالد، وكان ضَمِنَ لأبي الصباح رئيس اليمانية في داخل الأندلس أشياء لم يَفِ بها عبد الرحمن الداخل، بل قَتَل أبا الصباح، فانعزل عبد الله بن خالد وأقسم ألاَّ يشتغل بسلطان قط ومات منعزلاً عن السلطان.

وكان ممن ناصره «تمام بن عقبة» وهو الذي عبر البحر إليه وبشره باستحكام أمره فقتل هشام بن عبد الرحمن ولد تمام المذكور، وكذلك فعل بولد أبي عثمان.

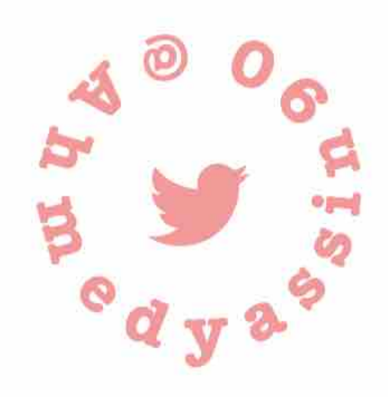
وقد حكي أنه لما هرب من الشام قاصداً أفريقية، نزل عند رجل من البربر يقال له «وانسوس»، وأن الطلب لحق به فخبأته زوجة وانسوس واسمها «تكفات» بين جسدها وثيابها، فلم يعثروا عليه.

وعندما استتب له الأمر وفد إليه وانسوس مع عائلته، فأكرم عبد الرحمن الداخل وفادتهم وأحسن إليهم، وقال عبد الرحمن الداخل ذات يوم مداعباً تكفات زوجة وانسوس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات، على ما كان بي من الخوف، وسعطتني بأنتن من ريح الجيف، فكان جوابها له: بل ذلك كان والله يا سيدي، منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها وأغضى عن مواجبتها بمثل ذلك.

ومع أنَّ عبد الرحمن الداخل قد سفك الكثير من الدماء وأضاع الكثير من المال وأفنى السلاح إلا أن الكلمة أجمعت عليه خوفاً وطمعاً ليؤسس دولة بني أمية التي قللت من الفوضى التي كانت سائدة قبل دخوله الأندلس، فمع المآسي التي جناها على الكثير من أبناء الأندلس إلا أنَّ ثماراً قد أينعت وكان قطافها فيما لحق من عصور.



إحدى قلاع مدينة سرقسطة التي استعصت على كارل مارتل (شارلمان) عندما حاول الاستيلاء عليها بمساعدة سليمان العربي.


@Ahmedyassin90

هشام بن عبدالرحمن الداخل

لم يكن هشام أكبر أبناء عبدالرحمن الداخل سناً غير أنَّ أمه أجمل نساء عبدالرحمن وأقربُهُنَّ إلى قلبه واسمها «حُلَل»، وهي جارية أهدتها ابنة يوسف بن عبدالرحمن الفهري إلى غريم أبيها عبدالرحمن الداخل بعد زوال سلطان والدها وانضمامها مع أهلها إلى نساء قصر عبدالرحمن الداخل كما ذكر ذلك ابن القوطية، وهي أم ولد لم تقف عند امتلاك قلب عبدالرحمن فحسب، بل نفذت من خلال ذلك القلب الهائم إلى صنع نفوذ في قرارات عبدالرحمن الداخل المصيرية كان أهمها تجاوزه في ولاية العهد اثنين من أبنائه كانوا أكبر سناً من هشام وهما «سليمان» و«عبدالله المسكين» (البلنسي).

وكان هشام كما تصفه الكتب أبيض، أشهل، مشرباً بحمرة، وبعينه حول. وعلينا أن نكون منصفين، فهشام مع كونه ابن أجمل نساء عبدالرحمن وأحبهم إلى قلبه، فقد كان أهلاً لثقة والده به، حيث وافق سلوكه وثقافته ما في قلب والده، وقد أورد بعض المؤرخين مقارنات بين سليمان الابن الأكبر لعبدالرحمن الداخل وهشام، ومن ذلك قولهم: إن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عين أبيه بقدر ما يصغر سليمان.

قال عبدالرحمن الداخل يوماً لابنه هشام: لمن هذا الشعر؟:

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ... ومن خاله أو من يزيد ومن حُجَر

سماحة ذا، وبِرَّ ذا، ووفاء ذا ... ونائل ذا، إذا صحا، وإذا سكر

فقال له: يا سيدي، لامرئ القيس ملك كندة، وكأنه قاله في الأمير أعزَّه الله، فضمَّه إليه استحساناً بما سمع فيه وأمر له بإحسان كثير وزاد في عينه.

ثم قال لسليمان على انفراد: لمن هذا الشعر؟ وأنشد البيتين، فقال: لعلهما لأحد أجلاف العرب، أمَا لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب؟ فأطرق عبدالرحمن، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية.

وقيل: إنَّ هشاما لمَّا وليَ أمر الأندلس أشخص المنجِّم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء إلى قرطبة وكان في علم النجوم بطليموس زمانه حذقاً وإصابة، فلمَّا أتاه خلا به وقال له: يا ضبي، لست أشك في أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم ندع تجديد النظر فيه، فأنشدك الله إلاَّ ما نبأتنا بما ظهر لك فيه، فلجلج وقال: اعفني أيها الأمير، فإنني ألمت به، ولم أحقق النظر فيه لجلالته في نفسي، فقال له: قد أجَّلتك لذلك، فتفرغ للنظر فيما بقي عليك منه، ثم أحضره بعد أيام، فقال: إنَّ الذي سألتك عنه جَدَّ مني مع أنِّي والله ما أثق في حقيقته إذ كان من غيب الله الذي استأثر به ولكني أحب أن أسمع ما عندك فيه فالنفس طُلعَة، وألْزَمَه الصِّلة أو العقوبة، فقال: اعلم أيها الأمير، أنه سوف يستقر ملكك، سعيداً جدُّكَ، قاهراً لمن عاداك، إلاَّ أنَّ مُدَّتك فيه فيما دلَّ عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: يا ضبي، ما أخوفني أن يكون النذير كلَّمني بلسانك، والله لو أنَّ هذه المدة كانت في سجدة لله تعالى لقلَّت طاعة له، ووصله وخلع عليه، وزهد في الدنيا والتزم أعمال البر.

وقد أنجبت تلك الحادثة حاكماً خيِّراً تقِيّاً يخشى الله في السر والعلن ويحرص على نشر الدين، وفعل الخير، ونصرة المظلوم، ومواساة المكلوم، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُوَر، فيسألون الناس عن سيرة عُمَّاله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إلى حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله بعد ذلك.

وكان شجاعاً، عادلاً، تقياً، ورعاً، جمَّ التواضع، محباً للخير، تولى الحكم شاباً يبلغ الثلاثة والثلاثين عاماً، وقد وصفه صاحب العقد الفريد وصفا طيباً فقال عنه: الكامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذي أخذ الزكاة على حلها ووضعها في حقها، لم يعرف عنه هفوة في حداثته ولا زلة في أيام صباه، وكان يطوف بأسواق قرطبة؛ ليسمع المظالم، وكان يذهب إلى المسجد في المطر الغزير، وكان يصر أموالا في صرور، ويخرج بها بين المغرب والعشاء، يتفقد المسجد فيعطي لكل من وجد فيه صرة تشجيعاً للناس على ريادة المساجد، وقال عنه ابن خلدون: «إنه كثير الخير والصلاح، وكان كثير الغزو والجهاد، وهو الذي أكمل بناء الجامع بقرطبة الذي كان أبوه شرع فيه، وأخرج المصرف لأخذ الصدقة على الكتاب والسنة».

ومع سيرته التي أجمع المؤرخون على أنها تتَّسم بالورع وحب الخير، فقد كان شديد الحزم في توطيد الحكم، لا يركن إلى الراحة، ولا تسري إليه غفلة.

لم يطب لأخيه سليمان تولِّيه الحكم، وهو الأكبر سناً، فهو يرى أنه الأحق برغم وصاية أبيه، فقام بثورة مناهضة وانضم إليه أخوه عبدالله المسكين، فلم تجد ثورتهما القبول من الناس ولم يبلغا شأوهما، ولم ينالا بغيتهما، فاضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو فاستجاب له أخوه وأعطاه ستين ألفاً على أن يغادر إلى المغرب وسار معه أخوه عبدالله.

كما يجدر بنا الإشارة إلى حادثة حدثت في زمن والده عبدالرحمن الداخل، وذلك أنَّ الشاعر أبا المخشي عاصماً بن زيد قد مدح سليمان بن عبدالملك الداخل فظنَّ أخوه هشام بن عبدالرحمن أنَّ في ذلك الشعر الذي قاله تعريضٌ به فاستدعاه هشام وعاقبه أشدَّ عقاب، وذلك بأنْ سَمَلَ (فقأ عينَيه)، وهناك من قال: إنه قطع لسانه أيضا، والأقرب للصحة أنَّه سَملَ عينيه ولم يقطع لسانه. وعندما علم والده الأمير عبدالرحمن الداخل بالأمر دفع له دِيَّةَ عينيه مضاعفةً كما أنَّه منحه ألْفَي دينار وعَنَّفَ ابنه هشام على فِعلتِه، كما أنَّ هشامًا نفسه قد عاد إلى رشده وعطف عليه ودفع له دِيَّةً مضاعفةً أخرى، وللدلالة على أنه لم يقطع لسانه شعرُه في العمى:

خضعت أم بناتي للعدا	أن قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضريرا إنما	مشيه في الأرض لمسٌ بالعصا
فاستكانت ثم قالت قولة	- وهي حرَّى - بلغت مني المدى
ففؤادي قرح من قولها:	ما من الأدواء داء كالعمى

كما قام عدد من ولاة الشمال بثورات عديدة لم يكتب لها النجاح، فوظف تلك الثغور في الجهاد والفتوح وعمل على التقريب بين الثقافات بجعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود مما يسر لهم معرفة المزيد حول الإسلام.

وفي عصر هشام انتشر مذهب الإمام مالك الذي يرتبط به هشام روحياً من خلال بُغضه لبني العباس، وكان مذهب الأوزاعي هو السائد في الأندلس، بل في معظم العالم الإسلامي حتى تولى هشام الحكم فنشر مذهبه واستقدم كثيراً ممن تتلمذ على يده من

أهـل الأندلس وأهـل المشرق، وقرَّب الفقهـاء والعلماء فكان لهم نفوذ غـاب في عهد أبيه عبدالرحمـن الداخـل. وكأنَّ هشامًا قد حدَّثته نفسه بما نظمـه الإمام الشافعي فيما بعد في شعر قال فيه:

يا من تعـزَّزَ بالدنيا وزينتها	الدهر يأتي على المبني والباني
وَمَـنْ يَكُنْ عِـزُّه الدنيا وزينتَها	فعـزُّه عن قليل زائل فاني
واعلم بأنَّ كنوزَ الأرض من ذهبٍ	فاجعلْ كنوزَكَ من برٍّ وإيمان

تأهـب هشام لمحاربـة الإفرنج بالشمال واختـار لذلك عبدالملك بـن عبدالرحمن بن مغيـث ونازل بعض الـولاة الذين تحالفوا مـع الإفرنج في الثغور، وعندمـا علم «شارلمان» بزحف المسلمين أمر ابنـه «لويس» لصدهم فأرسل جيشاً وتقابل الجيشان ووقعت معركة لم يكن فيها منتصر ولا مهزوم، غير أنَّ المسلمين جنوا الكثير من الغنائم حتى بلغ خمس الغنائم خمسة وأربعين ألفاً من الذهب.

كما ثار البربر في «رندة» وخلعوا الطاعة فأرسل إليهم هشام جيشاً بقيادة عبدالقادر بـن إبان، وقتـل كثيراً من البربر. وسيرَّ حملـة إلى «جليقة» فانتصر فيهـا وقُتِلَ كثيرٌ من النصارى وأيضاً من المسلمين وعاد الجيش الأموي بعد أن حاز بعض الحصون.

والواقـع أنَّ عهـد هشام بن عبدالرحمن ليس فيه من الأحـداث ما يمكن الإشارة إليه مـن ناحية التوسع في الأرض أو فقدها، كمـا أنَّ الفتن الداخلية كانت فتناً محدودة أمكن السيطرة عليها قبل استفحالها، فكان عهداً ساده الاستقرار والخير ونشر الدين، لا سيما المذهب المالكي.



الحكم بن هشام

تولى الحكم وعمره اثنان وعشرون عاماً، وبقي في الحكم سبعة وعشرين عاماً، وأمه أم ولد تدعى «زخرف». وكان على نقيض أبيه الزاهد التقي الورع المتواضع جليس الفقهاء، فهو الطاغية المسرف ذو الآثار السيئة القبيحة كما ذكر صاحب «المعجب»، وكان منهمكاً في لذاته، ميالاً للهو والبذخ، يؤثر مجالسة الندماء، مولعاً بالصيد، متكبراً، مسرفاً في الأبهة، وهو يماثل جده عبد الرحمن الداخل في القتل وسفك الدماء وقاعدة «الغاية تبرر الوسيلة»، يقتل بالظِّنَّة، ويأخذ البريء بجرم المذنب، لكنَّ جَدَّه كان متواضعاً، لينَّ المعشر، ويسير في الجنائز ولم يتخذ حُجاباً، بينما الحكم كان طاغية استكثر من المماليك والحاشية والترفع عن الناس.

لقد تولى هذا الطاغية الحكم بعد أبيه الذي كان النفوذ في عهده بيد الفقهاء والعلماء الذين أدناهم مثل يحيى بن يحيى الليثي وطالون بن عبد الجبار وهما من أعظم فقهاء المالكية.

هذه النقلة الكبيرة من سلوك حاكم يحرص على تنفيذ تعاليم الدين الإسلامي ويأنس بمجالس الفقهاء والعلماء الذين قوي نفوذهم، إلى سلوك حاكم لم يكن سلوكه الشخصي أو تطبيقه العملي متوافقاً مع التعاليم الإسلامية جعل المجتمع الأندلسي يعيش مأساة من نوع جديد تتمثل في البعد الاجتماعي، إضافة إلى البعد السياسي، فتقمُّصُ الدولة سلوكًا ومن ثَمَّ خلعه وتبنِّي نقيضِه جعل المجتمع الأندلسي بأسره - عرباً وبربراً وبلديين «مولدين» - يعيش في فوضى اجتماعية أينعت عن حروب وخطوب واستمرار في مسيرة ضياع الفرص وجنوح عن نبل المقصد ومن ثم مأساة أخرى من مآسي الأندلس.

ولنا أن نشيد ببعض الصفات التي يمتلكها الحكم بن هشام التي ساعدت على صون الحكم الأموي من الانهيار، ومنها مباشرته الأمور بنفسه وعدم الاعتماد على غيره، وأيضاً شجاعته وحسن تدبيره العسكري، وإنفاق المال للتجسس على أعدائه واستمالة من يرقُّ قلبه منهم لقرع الدنانير.

وما إن تولى الحكم شؤون الأندلس حتى خرج عمَّاه سليمان وعبدالله يعاودان الكرة بقناعة منهما أنهما أحق بالولاية من الحكم، وقد حاولا إقناع ابن الأغلب صاحب أفريقية في الأمر، غير أنه لم يستجب لبغيتهما.

وبعد أن يئسا من مناصرة ابن الأغلب توجها إلى داخل الأندلس، متسللين يحثان الناس على الثورة، فانطلق عبدالله صوب الشمال، مُيَمِّماً إلى غريمهما وغريم دولتهما (شارلمان) راجياً منه العون على ابن أخيه، وهي مأساة إضافية شهدتها الأندلس بأيدي مروانيٍّ يجلس ابنُ أخيه على كرسي الحكم.

رحب (شارلمان) بقدوم عبدالله ووجدها فرصة سانحة للنيل من الوجود الإسلامي في الأندلس إن لم يكن القضاء عليه وسيَّر (شارلمان) ابنه لويس وسار متجهاً جنوباً ومالأه بعض المناوئين مثل الأخوين عبدالملك وعبدالكريم ابنا عبدالواحد بن مغيث.

عندما علم الحَكَم بالأمر سار بجيشه إلى الشمال فخشي لويس من عواقب الأمور ونَكْث بعض القيادات لعهودهم فآثر الغنيمة والعودة تاركاً الأمور لأعنتها.

وعندما أدرك زعماء الثورة من غير بني مروان اتجاه الأمور، آثروا السلامة وطلبوا العفو والعودة إلى الطاعة، أما عبدالله المسكين «البلنسي» عمُّ الحَكَم بن هشام فقد اتصل بأخيه سليمان الذي استطاع أن يحشد كثيراً من الأنصار، لا سيما من البربر وحاول الهجوم على قرطبة في محاولتين فشل فيهما جميعاً.

ولحق جند الحكم بسليمان واجْتُزَّ رأسه مع عدد كثير من معاونيه وطيف بها في أسواق قرطبة، بينما استطاع عبدالله المسكين «البلنسي» الفرار إلى بلنسية وطلب العفو من الحكم فعفا عنه بشرط بقائه في بلنسية، وأرسل عبدالله ابنه عبيد الله فزوجه الحكَم إحدى أخواته.

لم يتوقف الإفرنج المتربصون بالمسلمين والطامعون فيما تحت يدهم عن إرسال الحملات المتوالية فقد عاد لويس مرة أخرى بجيشين كبيرين وعزم على تحقيق النصر، فدخل برشلونة بعد صراع مرير ومقاومة باسلة من أهلها، وجعل عليها حاكماً من أهلها

النصارى ليخسر المسلمون بذلك أهم ثغر في شمال مملكتهم ويقيم الحاكم الجديد لبرشلونة إمارة خاصة به غير خاضعة للإفرنج، وبهذا ينحسر الحكم الإسلامي إلى الجنوب بعد أن فقد سيطرته على الشمال الإسباني.

هذا الحدث المأساوي كان نتيجة الاقتتال الداخلي ليتجسد في خسارة أرض ظلت تحت الحكم الإسلامي أكثر من مئة عام، وهي نذير بداية خسائر متلاحقة استطاع بعض المصلحين ترميم بعض الأنقاض إلا أن النهاية آلت إلى خسارة كاملة للأندلس.

بعد ثورة الأقرباء وغزو الإفرنج حلت مؤامرة أخطر كانت غايتها خلع الخليفة الحكَم وإبداله بالمنذر أخيه، وكان قادتها هذه المرة مجموعة من الفقهاء والعلماء المالكية الذين كان نفوذهم سائداً في عصر هشام وكانت كلمتهم مسموعة لديه ولهم الحظوة دون سواهم ونالوا مراتب متقدمة في الولايات والجيش مثل يحيى بن يحيى الليثي وطالون بن عبدالجبار وعيسى بن دينار.

وقد ساعدهم على الثورة كون المتربع على كرسي الحكم شاباً شغوفاً بالبذخ والإسراف، مقبلا على اللهو والمجون، طاغية في تعامله، متعاليا على من حوله.

لقد وجد هؤلاء الفقهاء أنَّ من واجبهم الديني تصحيح نهج سلوكي لحاكم يفترض أن يكون قدوة مثل أبيه أو أن يكف عن المجاهرة باللهو.

وربما كان الحافز الدنيوي عاملاً أساسياً في مؤامرتهم تلك، لفقدهم مكانة يرونها حقاً لهم، فأخذوا يحثون الناس على الورع، وأحدثوا إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل، وأمروا المنشدين بأن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعرض بالخليفة الحكَم مثل أن يقولوا: «يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه، المصر على كبره، المتهاون بأمر ربه، أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك».

كانت أفعال الحكم تصنع أرضية خصبة لقبول أقوال الفقهاء، فانضم إليهم جمع من الولاة وعامة الناس من العرب وغيرهم وهجموا على قصره للوقوع به.

حكى ابن حيان: أنه لما تُسُوِّرَ عليه القصر وأحس بالشر قال لأحظى غلمانه: اذهب إلى زوجتي فلانة وقل لها أن تعطيك قارورة الغالية (قارورة عطر) فأبطأ الغلام وتلكأ، فأعاد ذلك

عليه فقال: يا مولاي، أهذا وقت الغالية؟ فقال: ويلك يا ابن الفاعلة، بم يُعرَف رأسي إذا قُطِع من رؤوس العامَّة إن لم يكن مُضمَّخاً بالغالية؟ إنَّه الغرور حتى في أحلك الأوقات وأحرجها.

غير أنَّ جيش الحكم أحاط بالفقهاء قبل بلوغهم مرامهم فقتل منهم جمعاً غفيراً وهدم البيوت وأحرق المساجد وصلب منهم أكثر من سبعين رجلاً باتجاه مشارف القصر، وكان من ضمن المقتولين عمَّاه مسلمة المشهور بكُليب وأمية ابنا عبدالرحمن لارتيابه بهما، مع أنَّهما لم يباشرا الحرب. وبسبب هذه الواقعة وهدمه لبيوت الفقهاء في مكان يقال له الربض سمي الحَكَم الربضي.

مَنْ يا ترى يناصر مثل هذا مع إجماع عناصر المجتمع على كرهه من عرب وبربر ومولدين وفقهاء؟

لقد كوَّن حوله عددا من المرتزقة واستكثر من الحشم والخدم واتخذ المماليك وكان يسميهم الخُرس لعُجمتهم، وكانت له عيون تطالع أحوال الناس، وكان معظم جنده من الصقالبة الذين يتم جلبهم رقيقاً من بلاد الإفرنج وحوض البحر الأبيض المتوسط، ويتم تعليمهم الإسلام وحمل السلاح وخصيهم؛ ليكونوا حماة حكمه، كما يتم تعليمهم شؤون القصر ومراسيمه ليصبحوا قادة في السنوات اللاحقة، وقد أثبتوا كفاءتهم وولاءهم يوم الربض، فأعتق معظمهم وأغدق عليهم.

وقد قال شعراً لما قَتَلَ أهل الربض من الفقهاء ومعاونيهم وهدم منازلهم:

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعاً	**وقِدْماً لَأَمْتُ الشَّعْبَ مذ كنتُ يافعاً**
فسائل ثغوري: هل بها اليوم ثَغرة	**أبادرها مُستنضيَ السيف دارعاً**
تنبئك أني لم أكن في قراعهم	**بوان، وقِدْماً كنت بالسيف قارعاً**
وهل زدت أن وفَّيتهم صاع قرضهم	**فوافوا منايا قُدِّرَتْ ومصارعا**
فهذي بلادي، إنَّني قد تركتها	**مِهاداً ولم أترك عليها منازعاً**

السلوك المشين للحَكم جعله يجلب الكثير من المآسي على الأندلس، منها الحروب الداخلية، ومنها تأصيل أطماع المتربصين في الشمال الأندلسي وضياع برشلونة، ومنها

التغير الإستراتيجي الذي بدأه جده عبد الرحمن فرسَّخه الحَكَم ألا وهو الاعتماد على الخدم والرقيق والمماليك والصقالبة، والبعد عن العرب؛ خشية أطماعهم، وقد أدت هذه الإستراتيجية الخاطئة إلى فقدان الأندلس فيما بعد.

وعلينا أنْ نذكر أنَّ حكم الحَكَم الذي امتد نحو سبعة وعشرين عاماً أفرز عدداً من المبرزين في شتى المجالات، ففي الشعر برز عباس بن ناصح الثقفي الجزيري الذي لم يقتصر نبوغه على الشعر، بل كان عالماً بالفلك والفلسفة واللغة، وولاه الحكم قضاء الجزيرة مسقط رأسه.

وكان هناك يحيى الغزال البكري الذي لديه علمٌ بالفلك والفلسفة، وشاعر رقيق سمي بالغزال لجماله، يشبب بالنساء في أشعاره، وقد اتهم في عقيدته، وكان يتعرض للفقهاء في نثره وشعره دون احترام أو أدب، فسخطوا عليه، وهو القائل فيهم:

لست تلقى الفقيه إلا غنياً ليت شعري من أين يستغنونا
نقطع البر والبحار طلاب الرزق والقوم هاهنا قاعدونا
إنَّ للقوم مضرباً غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وقد هجا الغزال القاضي يخامر بن عثمان بن حسان، وكان القاضي يعامل الناس بخلق صعب، ومذهب وعر، وصلابة جاوزت المقدار، فتسلطت عليه الألسن وكثرت فيه المقالة، فقال فيه:

فسبحان من أعطاك بطشاً وقوة وسبحان من ولى القضاء يخامرا

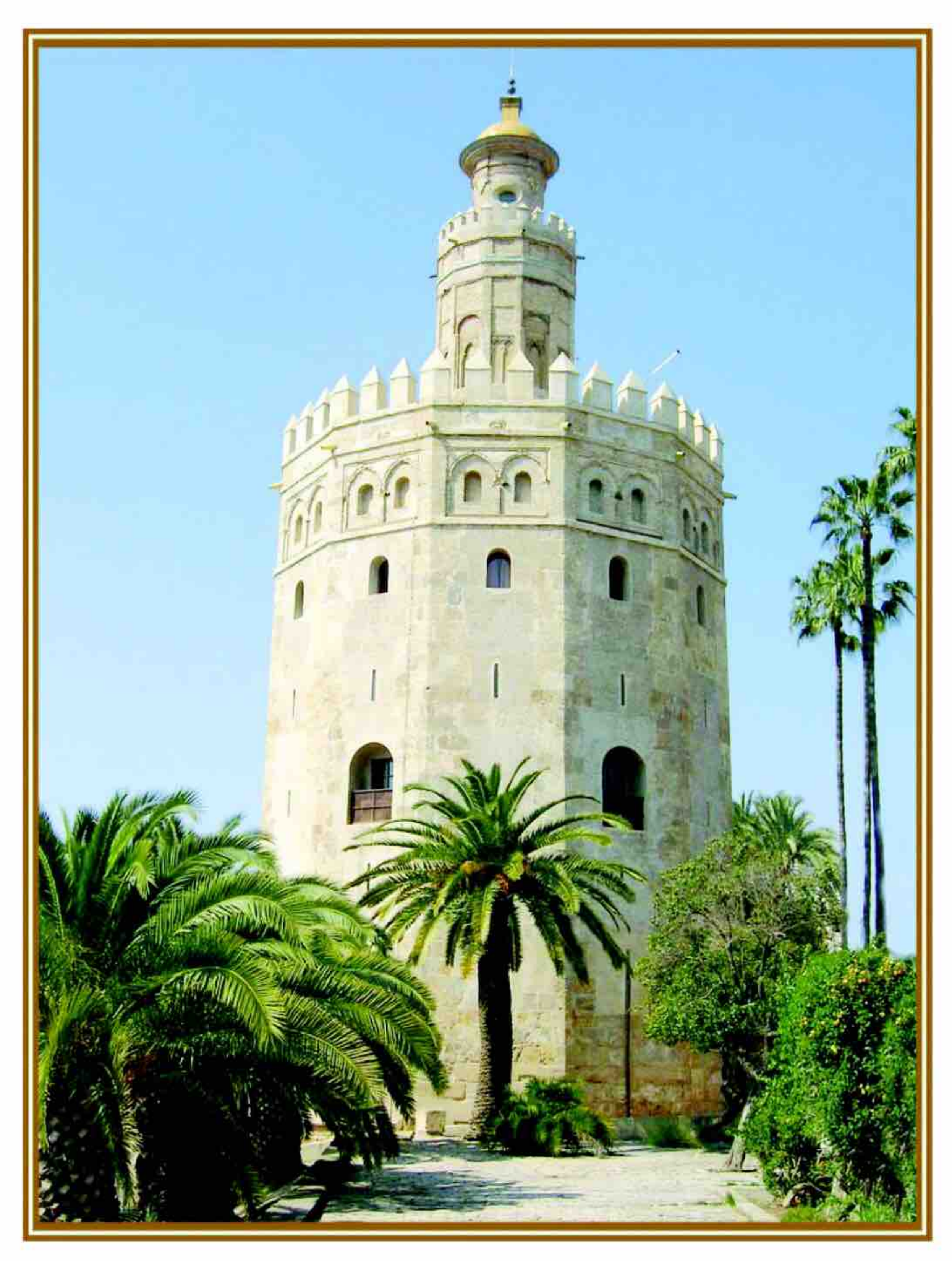
وقال في قصيدة أخرى:

قفاك قفا خرباً ووجهك مظلماً وعقلك ما يسوى من البعر درهما
فلا عشت مودوداً ولا عشت سالماً ولا متَّ مفقوداً ولا متَّ مسلما

ومن أشهر الشخصيات العلمية التي عاشت في عهد الحكم «عباس بن فرناس» وهو بربري الأصل، كان عالماً فيلسوفاً كيميائياً فلكياً موسيقياً ماهراً في الصناعة فقد صنع آلة سماها «الميقاتة» وهي التي تحدد الوقت، كما صنع الزجاج من الحجارة، وهو أول

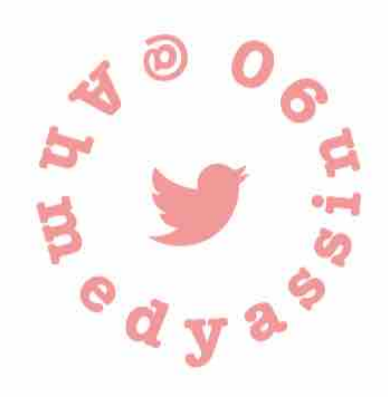
مـن حاول الطـيران حيث جعل لنفسه جناحـين وطار بهما فسقط، وقـد اتهم عباس بن فرناس بالزندقة، وقد يكون لاندهاش الجهال باختراعاته سبب في اعتقادهم أنه يتعامل مع مخلوقات أخرى، غير أنَّ القضاء لم يجد سبيلاً إلى إدانته وقد عمَّر طويلاً حتى عهد حفيد الحَكَم الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحاكم.





البرج الذهبي: أحد أبراج مدينة أشبيلية

وقد بني هذا البرج مع برج آخر مقابل له وتم الربط بينهما بسلسلة حديدية لمنع عبور النورمنديين (المجوس كما يسميهم المؤرخون العرب) عبر النهر إلى الأندلس.


@Ahmedyassin90

عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط)

ويلقب بعبدالرحمن الأوسط وأمه أم ولد اسمها «حلاوة» تولى الحكم وعمره واحد وثلاثون عاماً بعد أنْ مهَّدَ له والده الأمر بحزمه وعزمه، غير أنَّ والده قد سنَّ سنناً تجنَّب ابنه عبدالرحمن الأوسط بعضاً منها وتمسك ببعضها الآخر.

سار عبدالرحمن سيرة أبيه في البذخ وبناء القصور، والاحتجاب عن العامة، وحب سماع الموسيقى، والشغف بالنساء، لكنه لم يجاهر بمعصية ولم يقتل بالظنة ولم يكن جباراً قاسياً.

كان متسامحاً، شغوفاً باقتناء الكتب حيث كون مكتبة كبيرة، مولعاً بالأدب، إدارياً فذاً، أحاط نفسه بثلَّة من الكفاءات العالية، سواء من الوزراء أو الفقهاء وكان دقيقاً في اختيار قيادات الجيش والقضاة، وامتد حكمه واحداً وثلاثين عاماً كان همه فيها مزيداً من الفتوح، فأشغل الناس ببلوغ الغاية بدلاً من التناحر الداخلي، إلا أنَّ عهده مع ذلك لم يخل من منافسات ومماحكات.

بدت في عهده ظواهر جديدة مثل ثورات المستعربين «النصارى أهل الذمة الذين بقوا على نصرانيتهم تحت الحكم الإسلامي» وهجمات النورمانديين الذين تُسميهم المصادر العربية القديمة المجوس؛ لأنه لا دين لهم، وهم سكان السويد والدنمارك وشمال ألمانيا وغيرها من تلك المناطق.

كانوا قوماً غير متحضرين، يستخدمون البحر وسيلة لمباغتة المدن المتحضرة؛ لينهبوا ويسلبوا ما يقع تحت أيديهم ثم يعودوا أدراجهم.

وفي عهده تم إرسال السفراء إلى قيصر القسطنطينية وهي خطوة للتحرش بالدولة العباسية، فعلا كعبه لدى الأمم الأخرى وذاع صيته.

وعلينا أنْ نذكر أنَّ عصر عبدالرحمن الأوسط لم يكن عصر مآس في الأندلس بل عصر رخاء واستقرار في الغالب، وفتوح وتشييد قصور ومساجد، وابتكار أساليب جديدة في الري وغيره من أنشطة، وحتى الموسيقى تطورت في عصره باستقدامه زرياب.

مع ذلك لم يخل عصره من منغصات على النمط القديم، فها هو عمٌّ أبيه عبدالله المسكين «البلنسي» يقود ثورة عليه مع كبر سنه، ويسير في جمع غفير لانتزاع الحكم من عبدالرحمن، فيموت في الطريق قبل الوصول إلى مقصده، ليتصرف عبدالرحمن الأوسط بحكمة حيث تكفل بأولاد عمِّه وضمهم إليه وأكرمهم وعفا عمن سار معهم.

وكانت الحروب مع الثغر الشمالي قائمة تارة لنصرة مستغيث وتارة رغبة في صَدِّ العدو. وقد مُنِيَ «لويس» ملك الإفرنج بهزيمة ساحقة على يد جيش عبدالرحمن الأوسط بعد انضمامهم إلى «البشكش» الذين استغاثوا بالمسلمين فأغاثوهم، وعاود الإفرنج بقيادة حاكم برشلونة التابع لهم التحرك صوب المسلمين فسار الجيش الإسلامي من قرطبة بقيادة عبيد الله بن عبدالله المسكين «البلنسي» الأموي فأوقف تحركهم وسار إلى الشمال ليصل إلى فرنسا، لكنَّه عاد بعد أن بلغ مراده ولم يحاول الاحتفاظ بما أصاب من أراض.

لجأ الإفرنج إلى وسيلة أخرى قديمة حديثة ألا وهي إشغال المسلمين من الداخل من خلال إثارة النعرات القبلية والمذهبية، فقد ثار أحد البرابرة واسمه محمود بن عبدالجبار وانضم إليه النصارى من أهل الذمة فسار إليهم عبدالرحمن الأوسط بنفسه، فانهزم محمود وفرَّ مع المقربين منه.

وكانت لمحمود أخت رائعة الجمال، فارسة شجاعة ذائعة الصيت، فنزل مع أخته على «ألفونسو الثاني» فأجاره وأكرم وفادته، وبعد مدة من الزمن عنَّ لمحمود العودة إلى قرطبة طائعاً فراسل عبدالرحمن الأوسط في ذلك وعلم «ألفونسو» بالمراد فأحاط بقصره وقتله وسبا ذويه ومن ضمنهم أخته المشهورة، فكانت من نصيب أحد الأساقفة، فتحولت إلى الديانة النصرانية وتزوجها الأسقف فأنجبت أسقف «باقب» المشهور.

لم يفتأ الإفرنج عن مواصلة الدسائس، فحاولوا تجربة مكيدة أخرى من المكائد، فاتجهوا إلى العامة وذوي الحرف والمتشردين، واختاروا لذلك أحد الحدَّادين بطليطلة واسمه «هاشم الضراب»، والتف حوله عدد غير يسير من البربر وأهل الذمة وبعض العامة، فأرسل عبدالرحمن الأوسط له «محمد بن رستم» في عدد من الجند، فكانت معركة ضارية انهزم فيها «هاشم الضراب»، ولم تهدأ طليطلة بعد ذلك، فقد ظهرت

الأسلحة الخفية هذه المرة من جانب المتربصين القاطنين في الشمال مستغلين التنوع المذهبي والعرقي، فقامت عدة ثورات بطليطلة اضطرت عبد الرحمن الأوسط للذهاب بنفسه في جيش كبير لإخضاعها، فخضعت.

الدسائس والمكائد تعود مرة أخرى ويساعد عليها سلوكٌ خاطئٌ لبعض الولاة، فقد حكى ابن حزم أنَّ «موسى بن موسى القسي» أحد ولاة عبد الرحمن الأوسط كان من نسل «الكونت كاسي» من أشراف القوط، وكان جده الأعلى حاكماً للثغر الشمالي عندما فتح موسى بن نصير تلك الثغور، واعتنق الإسلام على يد الخليفة الوليد بن عبد الملك في المشرق فحافظ بذلك على ماله وسلطانه وعاد إلى الأندلس وبقي زعيماً في قومه الذين عرفوا فيما بعد بالمولدين، وقد مال إلى المضرية ضد اليمانية في أثناء الحروب العرقية، وسار أحفاده سيرة أجداده في الفروسية والقيادة وظلوا معتزين بأصلهم القوطي النبيل، وصاهروا بعض أمراء النصارى بصفتهم من الطبقة الحاكمة في نصرانيتهم وإسلامهم حتى وإن أصبحوا من موالي الخليفة الوليد بن عبد الملك.

وولَّاه عبد الرحمن ولاية «تطيلة» ثم بدا لعبد الرحمن أنْ يتولى «عامر بن كليب» على تطيلة وأخوه «عبد الله بن كليب» على سرقسطة فما كان من عامر بن كليب إلا أن اعتدى على أملاك موسى وخرَّب حدائقه، كما أنَّ عبد الله بن كليب اصطفى أموال أخِ موسى لأمه «بنقة بن ونقة»، فما كان من موسى إلا الخروج عن الطاعة والتحالف مع زعيم البشكش «غرسية» فكانت معركة عنيفة كَمَنَ فيها المسلمون لعدوهم فخرج موسى وفرَّ هارباً، بينما قتل ابن عمه وبعض من أعوانه المقربين.

ونقل لنا ابن خلدون رواية عن الحادثة، فقال: «وفي سنة ستة وعشرين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الإفرنجة، وانتهوا إلى أرض سرطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة، ولقيهم العدو فصبروا حتى هزم الله عدوهم، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود ووقعت بينه وبين بعض قواد عبد الرحمن ملاحاة وأغلظ له القائد فكان ذلك سبباً لانتفاضته، فعصى على عبد الرحمن وبعث إليه الجيوش مع الحارث بن بزيع فقاتله موسى وانهزم وقتل ابن عمه ورجع الحارث إلى سرقسطة.

ثـم زحف إلى تطيلـة وحاصر بها موسى حتـى نزل عنها على الصلـح وأقام الحارث بتطيلـة أياماً ثم سار لحصار موسـى فاستنصر موسى بغرسية مـن ملوك الكفر فجاءه وزحف الحارث فأكمنوا له فلقيهم على النهر وأوقعوا به وأسروه وقد فقئت عينه.

واستشاط عبدالرحمن لهذه الواقعة وبعث ابنه محمداً في العساكر سنة تسع وعشرين وحاصـر موسى بتطيلة حتى صالحـه، وتقدم فأوقع بالمشركين وقتـل غرسية الذي أنجد موسـى علـى الحارث ثم عاود موسى الخـلاف فزحفت إليه العساكـر فرجع إلى المسالمة ورهـن ابنه عبدالرحمن على الطاعة فقبلـه عبدالرحمن الأوسط وولاه تطيلة فسار إليها واستقرت في عمالته».

مـن هنا يظهر أنَّ عبدالرحمن الأوسـط يحاول تجنب القتل والانتقام؛ خشية الاقتتال الداخلي، فمرامه يعلو إلى الرخاء ومزيد من الفتوح لأجل ذلك قلَّت المآسي في عصره.

وحـدث آخر يظهر علـى الساحة الأندلسية في عهد عبدالرحمن الأوسط، لم يكن هذا الحدث من صنع الإفرنج أو البشكش أو غيرهم، كما لم يكن ذلك لسبب عرقي أو مذهبي، ولم تؤججـه المكائد والدسائـس، بل هو حدث بذاته، فقد قدمت مـن الشمال عبر البحر نحـو ألـف سفينة عليها رجال شداد شقر سماهم المسلمون المجوس؛ لأنه لا دين لهم، كما سموهم النورمانديين، نزلوا البر الأندلسي واقتحموا القرى البحرية ووصلوا إلى أشبيلية التي لم تكن محصنة، فلم يستطع المسلمون مقاومتهم، فعاثوا فساداً وقتلاً.

أرسـل عبدالرحمن الخيل لإنقاذ البلاد من هذا الهجوم الغريب بوجوه جديدة، وعبر البحـر الـذي لم يعتادوا ركوبه ذلك الوقـت ولم يكن لديهم من السفن مـا يستطيعون به منازلتهم في البحر، فقدم الخيل ولحقها الجيش فكانت واقعة قتل فيها الكثير من المجوس وقيـل: إنَّ عـدد القتلى بلغ نحو ألف، وعـدد الأسرى أكثر من أربع مئـة، ليفِرَّ ما بقي من المجوسـ ويتحصنـوا فيما بقي من سفنهم، وقـد قتل المسلمون أسراهـم وسملوا أعينهم وصلبوهم على جذوع النخل.

وافتدى المسلمون بعض أسراهم بما يستطيعون من سلع، وكان المجوس يستجيبون؛ لأنَّ مرادهـم يكمن في النهب والسلب وليس الاستقـرار والاحتفاظ بالأرض، وتوقفوا في أثناء انكسارهم في «ليلة» و«باجة» ثم «أشبونة» ثم غادروا الأندلس.

وكان «نصر الخصي» مولى عبدالرحمن الأوسط والأثير لديه، قائد الحملة ضد الغزو الجديد، فأغدق عليه عبدالرحمن ووصله بصلات كبيرة.

هذه الحادثة المؤلمة كانت الانطلاقة لتحصين الثغور وبناء الأسطول البحري الأندلسي الذي وصل في عهد عبدالرحمن الأوسط إلى مئتي سفينة حربية.

ويثور مرة أخرى موسى بن موسى القسي ناقضاً للعهد وساعده أخوه لأمه ابن ونقة أمير بنبلونة، فيرسل له عبدالرحمن جيشاً فيهزمه ويعود للطاعة مع أخيه لأمه، ويقدم ولده إسماعيل رهينة فيقبل عبدالرحمن طاعته ويثبته على ولايته، وهذه سياسة حكيمة من عبدالرحمن الأوسط لتقليل عدد المناوئين ما أمكن ومحاولة تجاوز المماحكة الداخلية إلى ما هو أجلُّ من ذلك، وتخطت بعض الحملات الإسلامية حدود الأندلس حتى وصلت جنوب فرنسا وجنوب إيطاليا لكنها لم تحتفظ بالأرض.

في أواخر عهد عبدالرحمن الأوسط أخذت الدسائس تشتد ضراوة لإشعال الفتنة بين المسلمين وأهل الذمة مدَّعين أنَّ المسلمين لم ينصفوهم في مظالمهم وأنَّ المسلمين يحتفظون بامتيازات خاصة؛ ليظل النصارى خاضعين لهم، وأنَّهم كانوا يتدخلون في إسناد وظائف الأساقفة لمن يجيد الملق والتزلف بغض النظر عن الكفاءة الدينية، كما لاموا على الأمير عبدالرحمن الأوسط حياة البذخ والإسراف التي كان ينعم بها.

والحقيقة أن أهل الذمة من نصارى أو يهود كانوا يتمتعون بحقوقهم شأنهم شأن غيرهم، أما الممارسات الفردية الخاطئة من العامة أو الخاصة فيمكنها النيل من أهل الذمة والمسلمين على حد سواء، ذكر الأديب التاميرا: «اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الديني عند الفتح، وكان أشراف العرب يحترمون النصارى، لكنَّهم لم يستطيعوا منع الدهماء في أوقات الحماسة المغرقة من إهانة القساوسة عندما يسيرون في الشوارع فرادى أو في مواكبهم، وكانت هذه الحوادث ومثيلاتها تثير حفيظة النصارى، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى حقد الورعين لا سيما القساوسة، وحاولوا أن يحدثوا ثورات عن طريق الاستشهاد من خلال الطعن في النبي محمد ﷺ لأن القانون يعاقب عليه بالموت، وعلم الأمير عبدالرحمن بما يرمي إليه هؤلاء القساوسة فما كان منه إلا أن لجأ إلى

تشكيل مجلس من الأساقفة يرأسه أحد المطارنة، ومَثَّلَ الأمير عبد الرحمن فيه أحد كتابه المقربين منه، وهو جونت بن أطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة، ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد وإنما أصدر قراراً باستهجان مسلك المتطرفين، ومن أولئك سيدة ذات جمال أخَّاذ ابنة أحد المسلمين من أم نصرانية، اعتنقت النصرانية واسمها «فلورا» وأصرت على نصرانيتها، مفيدة أنها نصرانية منذ صباها، وأنها ليست مرتدة، غير أنَّ الحكم صدر بقتلها بعد منحها مدة كافية للمراجعة».

في عهد عبد الرحمن الأوسط أصبح للأندلس تواصل مع العالم الخارجي كما أسلفنا، فكانت هناك سفارات عديدة، فأرسل قيصر القسطنطينية أحد رجالاته إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط يذكره بالعلاقات الجيدة بين أجداده من بني أمية في المشرق وبين البيزنطيين ويشكو إليه أفعال الأسلاف، من بني العباس المأمون والمعتصم ويسميهم باسم أمهاتهم تحقيراً، فيقول: ابن مراجل وابن ماردة، ويحثه على استرجاع حكم أجداده في المشرق.

فرد عليه عبد الرحمن بإرسال سفيره الشاعر الأديب «يحيى الغزال» ومعه «يحيى بن حبيب»، وكان يحيى الغزال قد جاوز الستين لكنه مازال يحتفظ بالكثير من أناقته وبهائه وظرفه، فوصلا إلى قيصر وقدما له الكتاب الهدية، وأعجب يحيى الغزال بزوجة قيصر وابنه ميخائيل الذي أصبح قيصراً فيما بعد فقال قصيدة منها:

وأغيد لين الأطراف رخص ... كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغضارفِ قيصري ... العمومة حين ينسب والخؤول

كما أنَّ الأمير عبد الرحمن الأوسط أوفد يحيى الغزال إلى بلاد النورمانديين مع وفد كبير فقوبلوا أحسن استقبال، وشغف يحيى الغزال بإحدى النساء فقال فيها شعراً ظريفاً وعاد إلى قرطبة بعد مضي عشرين عاماً.

لقد كان عهد عبد الرحمن الأوسط عهد رخاء وأدب وعلم وثقافة، برز فيه عدد غير قليل من الفقهاء والعلماء والفلكيين والموسيقيين، فمن الفقهاء عيسى بن دينار، ويحيى بن يحيى، وعبد الأعلى بن وهب، ويحيى بن مدين، وبقي بن مخلد، ومن الموالي،

نصــر أبو الفتوح الــذي حارب النورمانديـين «المجوس» «الفايكنــج» وهزمهم شرَّ هزيمة وكان مدبــراً شديــد البأس يخشاه الناس كبيرهم وصغيرهــم، خاصتهم وعامتهم، وكان يستمد قوته وحظوته لدى الأمير عبد الرحمن من علاقته المميزة والمتينة مع طروب جارية عبد الرحمن الأثيرة لديه.

ونصــر هذا اشتهــر بالجمال والظرف وهو مــن أبناء الأحرار الذيــن تم خصيُهم في عصر الحكَم واستخدامهم في القصر وكان أبوه من المولدين.

وقــرَّبَ عبد الرحمــن الأوسط عــدداً من الفلكيــين والشعراء مثل عباس بن فرناس، ويحيــى الغزال الشاعــر والأديب والسفــير، والشاعر عبد الله بن الشمــر بن تمير، وكان منجماً يلجأ إليه عبد الرحمن الأوسط لقراءة طالعه، وما أحسبه على ذلك قديرا، فالعلم عنــد الله، لكنَّ عبد الرحمن الأوسط كان شغوفاً بالتنجيم والفلك وعلى دراية كبيرة بهذا العلــم، شأنــه شأن أجــداده. ووفد إليه «زريــاب» الموسيقي المشهور بعــد أن أبعده أستاذه «إسحــاق الموصلي» خوفاً مــن منافسته له عند الخليفة هارون الرشيــد، فَقَدِمَ إليه فرفع منزلتــه وأعلى مكانته لموافقته حب الأمير عبد الرحمن للموسيقى وشغفه بها، فذاع صيته وظلت أناشيده وأهازيجه تردد حتى هذا اليوم، كما أخذ عنه الأندلسيون أناقته في الملبس وأسلوب معيشته.

وحيــاة عبد الرحمن الخاصة كانت مليئــة بالبذخ والسرف والموسيقــى والنساء، لكن ذلــك لم يثنه عن الحكم وطلــب المعالي مبقياً أثر ذلك محصوراً في نطاق الأمور المحيطة بالقصر ولم تصل إلى الأمور ذات العلاقة بالقرارات المصيرية وإن كانت تمس في أحايين كثيرة بعض الرموز القيادية حول البلاط.

وقــد أكثر عبد الرحمن من الجواري الحســان، وكان مشغوفاً بهِنَّ يختارهنَّ لأصولِهنَّ وجمالهــنَّ، وبرزت لديه منهنَّ عــدد غير قليل كان على رأسِهِنَّ «طروب» أم ولده عبد الله، و«مؤامرة» أم ولده المنذر، و«شفاء» أم ولده المطرِّف، وله من الولد أكثر من مائة وخمسين ومن البنات مثلهم.

وقصته مع طروب مشهورة قال المقري في ذلك: «وكان كثير الميل للنساء (يعني عبدالرحمن) وولع بجاريته طروب وكلف بها كلفاً شديداً، وهي التي بنى عليها الباب ببِدَر المال حين تجنَّت عليه، وأعطاها حليّاً قيمته مئة ألف دينار، فقيل له: إنَّ مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك، فقال: إنَّ لابسه أنفس خطراً، وأرفع قدراً وأكرم جوهراً، وأشرف عنصراً».

وفيها يقول:

إذا ما بدت لي شمس النهار طالعة ذكرتني طروبا

أنا ابن الميامين من غالب أشبُّ حروباً وأطفي حروبا

وساق بعض المؤرخين قصة طروب هذه بقوله: «إنَّ السلطان المذكور أغضبها فهجرته وصدَّت عنه وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها، فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك، فأرسل من خصيانه من يكرهها على الوصول إليه، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم وآلت ألاَّ تخرج إليهم طائعة ولو انتهى الأمر إلى القتل، فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها واستأذنوه في كسر الباب عليها، فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببِدَرِ الدراهم ففعلوا، وبنوا عليها بالبِدَر، وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً راغباً في المراجعة على أنَّ لها جميع ما سُدَّ به الباب فأجابت وفتحت الباب، فانهالت البِدَر في بيتها، فأكبت على رجلِه تقبلها وحازت المال، وكانت تبرم الأمور مع نصر الخصي، فلا يرد شيئاً مما تبرمه».

ولقد تمالأت «طروب» و«نصر» على إبعاد «ابن شهيد» وزير الأمير عبدالرحمن من الوزارة، فوافقهم على ذلك مستغلين مرضه، وبعد أن برئ أعاده إلى سابق منزلته، ولا شك أنَّ نفوذ البلاط وتمتعه بالميزات وخشية الناس سطوتهم سواء الفتيان أو النساء، كانت من مثالب عصر عبدالرحمن الأوسط.

وكاد يصل ذلك النفوذ من قبل نصر وطروب إلى تولية عبدالله بن عبدالرحمن بن طروب ولاية العهد دون أخيه محمد، لكنَّ عيسى بن شهيد الذي حاول إبعاده كانت له النصرة عليهم في إقناع الأمير عبدالرحمن بأنَّ محمداً أجدر بالإمارة من أخيه فتمَّ له ما أراد.

محمد بن عبدالرحمن الأوسط

تـولى محمـد بن عبدالرحمن الحكم عقب وفاة أبيه ولم يكـن أكبر أبناء عبدالرحمن سناً غير أن والده كان يُعده لحدث مثل هذا لا سيما أن لعبدالرحمن أكثر من مئة وخمسين ولداً ومثلها من البنات ومن أمهات مختلفات، وقد لعب الحاجب عيسى بن شهيد دوراً في تولية محمد لقطع الطريق على تنصيب أخيه عبدالله ابـن الجارية الحظية لدى الأمير عبدالرحمن وبسعي من نصر الخصي الممالئ لها.

وقد كان لمحمد عيون داخل القصر وكان «حبيب الخصي» عين محمد الموثوقة، فعندما توفي الأمير عبدالرحمن سارع حبيب بإرسال مرسوله إلى محمد يستحثه على المجيء فجاء محمـد مسرعاً إلى القصر وقد أخفى سلاحه بين ملابسه؛ خشية دسائس أخيه عبدالله، وكان الصقالبـة وموالي القصر النافذين قد أغلقوا أبواب القصر ووقعت بينهم مداولات حـادة انتهت بالاتفـاق على تولية محمد، وتم استدعـاء إخوته وأهل بيتـه وكبار القيادات وأخذت البيعة لمحمد، ومن ثم تمت البيعة من الشعب في المسجد في أيام متوالية.

قبـل أن ندلـج في الحديث عن الأمير محمد بن عبدالرحمـن الأوسط يمكننا أن نقف هنيهـة عند تَرِكَـة الأمير عبدالرحمن الأوسط السياسية لابنـه، فقد ترك بلاداً مترامية الأطـراف، مستقـرة، مهيبة الجانب، ثريـة، ذاع صيتها في الآفاق، غـير أنَّ التركة أيضا تحـوي نفوذ الصقالبة والجـواري في القصر وخارجه، ونمطاً باذخا في المعيشة والقصور والخيول وغيرها، وعدداً من الأبناء والجواري المتنافسين، ووهج رماد، ووميض نار، تختبئ تحتها دسائس أعدائه النصارى المتربصين بدولته المستغلين للتباين الإثني والطائفي.

وكان الأمـير محمد أميراً ذكياً فطناً بالأمور، كمـا قال ابن حيان وقال عنه الحميدي صاحـب «جذوة المقتبس»: إنَّ أمه أم ولد اسمها «تهتز»، وكان للعلوم مؤثراً ولأهل الحديث عارفاً، حسن السيرة، وكذلك قال عنه الضَّبي في البغية.

استمـر في الاستفادة مـن خدمات الحجاب والوزراء الذين كانـوا في عهد أبيه فأبقى على عيسى بن شهيد، وبعد وفاته خلفه «عيسى بن الحسن بن أبي عبدة» ونافسه في ذلك

هاشم بن عبدالعزيز وكان أقرب إلى قلب محمد من ابن أبي عبدة، وقد نقل لنا ابن عبدالبر أنَّ هاشما قد أفسد على الأمير أمره: «فشرهه، وصلفه، وحمله على المنهج من محمود أمره، وعدل عن اختيار ثقات العمال من الشيوخ والكهول أولى النهي والأصول إلى الأحداث من أولي الشر والخيانة ودناءة الأصول، فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال، فنجحت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر في الأرض الفساد».

والواقع أنَّ الأمير محمدًا لم يكن بذلك السوء وإن كانت به خلال تختلف عن أبيه حسنها وسيئها، فقد كان صلفاً حاداً، قرَّب إليه أهل الشام من الوزراء على حساب المولدين، غير أنَّه كان أقل بذخاً من أبيه ونأى بنفسه عن نفوذ الجواري وحشم القصر كما أنَّه حدَّ من الدسائس والمماحكات التي تحدث داخل القصر.

ومن سوء طالع الأمير محمد أنَّ الدسائس والمكائد الخارجية وليست الداخلية -كما كانت في عصر الأندلس الأول- أخذت طابع التخطيط والتنظيم، ولهذا فقد أمضى جُلَّ حكمه الذي بلغ خمسة وثلاثين عاماً في القضاء على الثورات الداخلية فاستعاض أعداؤه بأعوان السوء لتجنب خيل الأمير محمد وسيفه.

قال ابن حيان واصفاً تلك الحال: «والمشوب آخره بالتنكيد، المنصرم عن فرقة الجماعة، ونجوم النفاق بكل جهة»، وحسبي أن أقول: إنَّ أفول نجوم الدول تتم عبر سطوع نجوم النفاق.

ثارت سيدة الثورات طليطلة مرة أخرى منتهزة وفاة عبدالرحمن الأوسط، وكان زعيم الثورة «سوقة بن مطرف» وهو أحد الفارين من قرطبة، وقد استطاعوا هزيمة جند الأمير وأسروا عاملها وأرغموا الأمير محمداً على مبادلته بأسرى لديه منذ زمن أبيه فكان لهم ما أرادوا.

أحسَّ الأمير محمد بخطر طليطلة فسار بنفسه في أول تحرك له بعد تنصيبه، عازماً على إخضاعها، واستشعر الثوار الخطر، وكان أغلبهم من النصارى والمولدين المدعومين من الخارج، فاستنجدوا بملك ليون وملك نافار، فكان تدخل النصارى بهذه القوة قد أذكى حماس المسلمين لنصرة إخوانهم فانضموا إلى جيش الأمير محمد، وأخفى جزءاً كبيرا من جيشه خلف التلال وتقدم بعدد يسير من الجند، فظن الأعداء أنهم منتصرون

لا محالة، فما لبثوا أن باغتهم الجيش فمزقهم شرَّ ممزق، وقد قتل منهم نحو عشرين ألفاً وقتـل عدد كبير من القساوسة وأعدموا، ورصت رؤوس القتلى وأُذِّنَ فوقها لصلاة الظهر، وربما أنَّ قسوة الأمير محمد قد جعلت المدينة تضطرم بنار الفتنة متحينة فرصة متاحة.

وسار «موسى بن موسى» بجيش إلى الشمال فأخضع كثيراً من البلاد التي كانت بيد النصارى، وموسى بن موسى هو ذلك الثائر فيما سلف على عبد الرحمن والمتحالف مع النصارى بسبب جور ولاة عبد الرحمن عبد الله وعامر عليه، والعائد إلى الطاعة بعد هزيمته.

لم يأمن الأمير محمد غائلة طليطلة فسار إلى المدينة وحاصرها وقتل الكثير من أهلها وخرَّب أسوارها وهدم حصونها وقتل رئيس الفتنة والمحرض عليها القس الوخيو ومساعدته السيدة ليوكزيسيا، فطلب أهل طليطلة الأمان وخضعوا للطاعة.

عاد المجوس «النورمانديون» للظهور مرة أخرى على الشواطىء الأندلسية محاولين جمع ما يمكن جمعه من الغنائم والسبايا بعد التخريب والترهيب فكانت لهم الجيوش البحرية والبرية الأندلسية بالمرصاد، غير أنَّ تكاثر سفن المجوس «النورمانديين» أجبر البحرية على الانكسار، فسار المجوس «النورمانديون» إلى عدوة المغرب فنهبوا، ثم عادوا إلى الأندلس فكانت حرباً أخرى انهزم فيها «النورمانديون» فعادوا صوب الشمال ودخلوا بافار وأسروا ملكها ثم أطلقوه؛ لقاء فدية كبيرة.

بعد أن أطلق المجوس «النورمانديون» ملك بافار غريسة تحالف مع ملك ليون وحاولوا مهاجمة المسلمين فانهزموا وخرَّب المسلمون حصونهم وأُخِذَ فرنوند ابن غرسية أسيراً، وظل كذلك في قرطبة مدة عشرين عاماً.

وقامت معركة أخرى بين موسى بن موسى وصهره وحليفه غرسية من جهة وبين ملك ليون من جهة أخرى، هزم فيها موسى وقتل صهره غرسيه وعدد كبير المسلمين، كما جرح موسى بن موسى جروحاً غائرة أدت إلى وفاته فيما بعد.

بعد موت موسى لم يكن ابنه إلب ذكياً مثل أبيه، فتحالف مع ملك ليون، فسار إليهم جيش الأمير محمد، وتوفي إلب على إثر إصابته، وكان الأمير محمد قد استبدل بأبناء

موسى حكاما، من قبله؛ خشية انفرادهم بالسلطة كما يفعل أبوهم، إلاَّ أن اختياره لم يكن موفقاً، وربما يثبت ذلك ما قاله ابن عبد البر فيما سبق.

ولجأ أبناء موسى إلى ملك ليون متحينين فرصة للانقضاض عندما تحين. حانت الفرصة لأبناء موسى بن موسى، إسماعيل ومطرف للسيطرة على بعض مدن الشمال بسبب عدم جدارة الولاة الذين اختارهم الأمير محمد، وربما باستشارة هشام ابن عبد العزيز وزيره وقائد جيشه، وهو أحد المولدين الشجعان مع صلافة وخشونة في التعامل، وقد استطاعوا نيل مرادهم بالاستيلاء على تطيلة وسرقسطة، فسارع الأمير محمد بالخروج إلى الثغر الشمالي، واستولى على تطيلة وقبض على مطرف وبنتيه، وعندما عاد إلى قرطبة أمر بقتل مطرف وبنتيه، وعلقت رؤوسهم على باب القصر، وعاد فرتون الابن الثالث لموسى فاستولى على تطلية.

عزم الأمير محمد على سحق التمرد في الثغر الشمالي، فأرسل جيشه إلى هناك، وانضم إليه محمد بن إلب بن موسى بن موسى الذي كان على خلاف مع عمه إسماعيل لاستئثاره بالسلطة، وطلب إسماعيل الأمان فأمّنه الأمير محمد وأبقاه، وما إن رحل الأمير محمد وحلَّ بقرطبة حتى دبَّ الخلاف بين محمد بن إلب بن موسى وعمِّه إسماعيل بن موسى، فانتصر محمد بن لب وحكم سرقسطة بموافقة الأمير محمد، ثم بدا للأمير محمد انتزاع الولاية منه، فتحالف لب مع الفنسو، فسير الأمير محمد الجيش مرة أخرى إلى الشمال فأخضع محمد بن لب بن موسى واتفق على هدنة مع الفنسو، وكان من بين قيادات الجيش عمر بن حفصون الذي ثار على الأمير محمد فيما بعد، مما يدلُّ على سوء اختيار الأمير محمد لبعض الولاة وبما يتفق مع ما قاله ابن عبد البر.

مرة أخرى يكون سوء التصرف أو الصلف مدعاة للفتن والمشكلات فقد تلاحى القائد هاشم بن عبد العزيز مع عبد الرحمن الخليقي وأهانه وصفعه، فتحين عبد الرحمن الفرصة وهرب من قرطبة متخفِّياً مع جمع من أنصاره، وتوافد عليه عدد قليل من المناوئين منهم مكحول بن عمر، وانضم إليه سعدون بن عامر من زعماء المولدين، وبعد حصار شديد من قبل جيش الأمير محمد لهم استجار عبد الرحمن بعبد الله ابن الأمير

محمد فألَّح على أبيه بالقبول، فوافق بشرط ذهابه إلى بطليموس ورهن بعض أبنائه وأنصاره، ففعل.

غير أنه تحصن في بطليموس واستعان بأحد أعوانه يقال له سعدون، وكان المدد يأتيهم من ملك ليون، وهُزِمَ جيش هاشم بن عبدالعزيز وأسر، ثم افتداه الأمير محمد بعد عامين، ولجأ عبدالرحمن بن مروان وسعدون إلى ملك ليون، ثم غادر عبدالرحمن ليون مغاضباً وتحصن في بطليموس، وحاول الأمير محمد القضاء عليه فلم يتمكن، فنزل على شروطه وأبقاه وهي بداية التنازلات.

ظهر اسم جديد كان له شأن فيما بعد هو ذو النون بن سليمان الهواري، مرَّ به الأمير محمد ذات يوم وقد مرض له خصي مقرب لديه، فاعتنى به ذو النون، وعندما برئ جاء به إلى الأمير محمد في قرطبة، فكافأه الأمير محمد بتوليته طليطلة، وظل طيلة عمره موالياً للإمارة في قرطبة، وخلفه ابنه موسى فراودته نفسه على الخروج ففعل، ولما توفي سار ولده مظفر على سيرته، وكانوا من زعماء الفتنة في عصر الطوائف.

في الجنوب ظهر عمر بن حفصون وكان من أعظم ثوار الأندلس وأشدَّهم بأساً، وكان عمر من المولدين سليل أسرة نصرانية، وكان أبوه ذا مال وجاه قال عنه ابن حيان، وهو يذكر الخوارج: «إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون، أعلاهم ذكراً في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطانا، وأعظمهم كيداً، وأبعدهم قوة».

وربما تكون صلافة وظلم وعنف يحيى بن عبدالله بن يحيى عامل الأمير هناك سبباً في قيام الناس عليه.

وبهذا يظهر لنا مرة أخرى مأساة صنعها الولاة، وربما يمكننا القول: إنَّ الأمير محمد قد صنعها بالاختيار غير الجيد للولاة.

أرسل الأمير محمد ابنه المنذر مع وزيره هاشم بن عبدالعزيز لقتال ابن حفصون، فظل محاصراً له مدة شهرين حتى نزل ابن حفصون من حصنه وأخذ في قتال جيش الأمير محمد، ثم فرَّ مرة أخرى إلى الحصن، وقد جرح جرَّاء المعارك وكاد أن ينزل

لحكم الأمير محمد، فجاء الخبر إلى المنذر بوفاة أبيه، فهرع مسرعاً إلى قرطبه تاركا ابن حفصون الذي سارع في الاستيلاء على ما حوله وتحصين نفسه.

كان عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط الذي دام نحو خمسة وثلاثين عاماً، مليئاً بالمآسي والحروب والثورات والفتن والصراع المرير والدسائس والمكائد، فكان مأساة تضم إلى مآسي الأندلس الكبرى.

لم يكن الأمير محمد جباناً بل كان شجاعاً مغواراً، لم يركن إلى الراحة ولم يخش القتال، لكن كان حظه غير جيد في التوقيت الذي تولى فيه الحكم، فقد قويت شوكة أعدائه من النصارى، وأظهروا تغيراً واضحاً في الإستراتيجية بالركون إلى الدسائس والمكائد وإثارات النعرات، ومن ثم الاقتتال الداخلي، وكان التغير واضحاً في أسباب مآسي الأندلس في عصر الأمير محمد، فلم تعد الأطماع الشخصية أو الخلافات داخل البيت الأموي سبباً في المآسي، وإنما الأمر أكبر من ذلك فهو تأليب من قوة خارجية.

ولقد ساعد على انتشار هذا السم الزعاف إخفاق الأمير محمد في اختيار الولاة، وكذلك عدم انتهاج الحكمة التي تستوجب اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ومن شواهد ذلك ما ذكره ابن القوطية من أنه حدثت مجاعة سنة مئتين وستين، ووليد بن غانم كان واليا على قرطبة، وكانت سنة لم تزرع فيها الأندلس حبة، فاستدعى الأمير محمد واليه وقال له: «العشور، ما ترى فيها؟ قال: إنما يؤخذ العشور بسبب الزراعة، ولم تزرع رعيتك، فأنفق من مخازنك وبيوت أموالك، فلعل الله أن يأتي في العام المستقبل بخير، فبهره قوله، فقال له: لا والله، لا تَقلَّدتُ تحريك حبة واحدة منه».

ويبدو أن بعض المنافقين ممن حول الأمير أشاروا عليه بعدم المساس بما في مخازن القصر، ويمكن أن يجدوا من الأعذار والأسباب ما يوافق هوى الأمير محمد برغم فساد الرأي، ومكمن الفرق بين الصواب والخطأ يقع في التفريق بين تغليب الهوى والمصلحة، أيهما ينتصر.

واتصل الخبر بالناس وما دار فيه، فرفع حمدون بن بسيل المعروف بالأشهب، وكان من الطغاة البغاة، فسأل ولاية المدينة على أن يضمنوا إيراد العشور برغم أنوفهم، حتى

هتك الستور، وضرب الظهور، وقتل الأنفس بالتعليق، ففر الناس إلى الله -عز وجل- منه، فأماته الله بغتة.

قال ابن القوطية: «فاتصل الخبر بمحمد وما نال الناس منه، فأوصل إلى نفسه وليد ابن غانم، واعتذر إليه، وسأله أن يرجع إلى المدينة، ليصل ما أخذ الميت قبله، فقال: أما، وقد صرت عندك في محل من بيده حمدون بن البسيل أو مثله، كلا والله لا آخذ مثله في المدينة أبدا، فوَلَّى غيره».

فكانت ثلة المنافقين وبالاً على الأمير محمد بن عبد الرحمن، حتى تجرأ الصالحون على رفض الولاية له.

وقد انطبق على الأمير محمد قول الشاعر:

وماكنت أرضى من زماني ما ترى ... ولكنني راضٍ بما حكم الدهر

فإن كانت الأيام خانت عهودها ... فإني بها راضٍ ولكنها قهر





مدينة طلة التي استطاع محمد بن عبدالرحمن الأوسط
إخضاعها بعد أن ثار سكانها عليه بمساعدة ملك ليون وملك نافار.

المنذر بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط

كان المنذر محل ثقة أبيه وكثيراً ما أرسله على رأس جيوشه مع هاشم بن عبدالعزيز لمحاربة الخارجين على حكم بني أمية وعاصمتهم قرطبة، وهو ليس أكبر أبناء الأمير محمد البالغ عددهم ثلاثة وثلاثين ذكراً وإحدى وعشرين بنتا، ولكنه كان محل ثقته، وربما يكون للنساء دور في ذلك.

علم المنذر بوفاة أبيه عندما كان محاصراً لابن حفصون، فعاد إلى قرطبه للتربع على كرسي حكم بني أمية في الأندلس.

والمنذر كان رجلاً عاقلاً شجاعاً امتد حكمه قرابة عامين، وأمه أم ولد يقال لها «أثل». أبقى وزير والده هاشم بن عبدالعزيز على مكانته بادىء الأمر، وقد بلغ هاشم بن عبدالعزيز من النفوذ والسطوة والمال ما جعله نافذ الكلمة مطاعاً، والأمير المنذر أكثر الناس معرفة بغاياته وطباعه وقدراته الحربية؛ نظراً لمرافقته في جُلّ غزواته.

تولى الأمير المنذر الأمور والفتنة على أشدها وكان بين ناظريه ذلك الثائر في الجنوب ابن حفصون الذي منعته وفاة والده من الإجهاز عليه، ورأى الأمير المنذر أنَّ من الأجدر إصلاح ما تحت يده قبل الشخوص إلى خارج القصر.

وكثر الحديث عن هاشم بن عبدالعزيز وصلفه وطغيانه واستئثاره بالمال والجاه، فوافق ذلك هوى في نفسه لمعرفته بحاجب أبيه، فبعد يومين من توليه، أمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه وأودعه السجن ثم قتله وأبقى على أولاده في السجن حتى أطلقهم أخوه الأمير عبدالله، وأعاد لهم أموالهم بعد وفاة المنذر.

قال هاشم وهو في السجن شعراً منه:

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني   وما من قضاء الله للمرء مهرب

فمن يَكُ أمسى شامتاً بي فإنه   سينهل في كأسي وشيكاً ويشرب

وبدأ حربه بمحاولة إخماد رأس الفتنة طليطلة فقتل من الثوار ما قتل وعاد، ثم غزا محمد بن لب بن موسى بن موسى في الثغر الأعلى ورجع بعد إخضاعه.

وبعد أن اطمأن إلى إسكات طليطلة والثغر الأعلى، خلص إلى أنَّ الوقت قد حان لمنازلة غريمه ابن حفصون، فسار إليه عازماً ألاَّ يعود دون القضاء عليه مبتدئاً بمحاصرة أحد أعوانه يقال له عيشون، ثم قتله وأرسله إلى قرطبة، وصلبه وصلب معه خنزيراً وكلباً إمعاناً في إذلاله.

وبقي ثلاثة وأربعين يوماً محاصراً لابن حفصون وكاد أن يقع في يده غير أنه لجأ إلى الحيلة، فأعطاه الأمير المنذر الأمان وزوده بالمؤن فعاد إلى التحصين والنكوص.

وظل المنذر محاصراً له حتى كاد يستسلم، فأراد الله أن ينقذ ابن حفصون مرة أخرى حيث مرض المنذر ومات ليكون موت الأمير محمد ومن بعده الأمير المنذر سبيلاً لنجاة ابن حفصون.

اختلفت الروايات في سبب مرض المنذر وموته، فهناك من المؤرخين من يزعم أنَّ الأمير المنذر قتل بتدبير سيئ من أخيه عبدالله الذي كان يطمع في الحكم، وأنه قد أوعز إلى طبيب المنذر أن يسُمَّه في أثناء حجامته ففعل، وقد يكون الزعم حقاً لما لعبدالله من خصال تتسم بالقسوة والجبروت، كما يرى ابن حزم.

ومهما كان السبب فالموت واحد، المهم أنَّ الأمير المنذر لم يخلف أحداً لخلافته في الحكم من عقبه.

مأساة الأندلس في عهد الأمير المنذر تكمن في عدم قدرته على إخماد الثورة لقِصَر مدة حكمه، وكذا استمرار انتشار دعوة ابن حفصون (وهو من المولدين) الداعية إلى التخلص من العرب والبربر وعلى رأسهم بنو أمية للحصول على مزيد من الحرية كما يزعم والتخلص من ظلم الحكام في قرطبة.

فهذه الدعوة نقلت الأندلس من دسائس النصارى في الشمال ومكائدهم من خلال العصبية والفتن إلى خطوة متقدمة، تجلت في اعتبار العرب والبربر محتلين يجب التخلص منهم وترك الأندلس للمولدين (أهل الأندلس الذين دخلوا الإسلام) وأهل الذمة من النصارى، وهي نقلة نوعية في الإستراتيجية المتبعة للإجهاز على الوجود الإسلامي في الأندلس الذي يخشاه النصارى في الشمال.

الأميرعبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط

تولى الحكم بعد وفاة أخيه أو ربما بعد قتله لأخيه بالسم كما يزعم ابن حزم، وأمه أم ولد يقال لها «عشار» أو «أشار» وقال آخرون: إنَّ اسمها «بهار»، والأمير عبد الله شخصية غير مفهومة، ويحق لنا أن نقول: إنه متناقض، فالأمير لا يحب البذخ والإسراف ولا يشرب الخمر وينأى بمجالسه عن الرذائل، ولذا تعد مجالسه من أنزه مجالس حكام بني أمية في الأندلس ويكاد لايبزه في ذلك سوى أخيه المنذر ومن قبله جده هشام، وكان يلجأ إلى العلماء والعقلاء لأخذ المشورة، ويحف بمجلسه ثلة من الأدباء والشعراء والكتاب، مثل عبدالملك بن جهور العالم والأديب الذي سيكون لعائلته شأن كبير في تاريخ الأندلس، وابن عبد ربه الكاتب والشاعر المشهور صاحب كتاب العقد الفريد، وموسى بن حُدير المعروف بالورع والزهد، وكذلك الفقيه بقي بن مخلد فقيه عصره.

وكان فصيحاً أديباً شاعراً له توقيعات بليغة، قال عنه ابن حيان: «كان متصرفاً في الفنون، متحققاً منها بلسان العرب، بصيراً بلغاتها وأيامها، حافظاً للغريب من الأخبار، آخذاً من الشعر بحظ وافر»، قال في الزهد:

يا من يراوغه الأجل	حتَّامَ يلهيك الأمل
حتَّامَ لا تخشى الردى	وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجاة	ولا نجاة لمن غفل

ويقول عنه الرواة: إنه من أصلح خلفاء بني أمية، وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة.

ومع هذا الجانب المضيء من شخصيته، تظهر لنا شخصية أخرى نقيضة، فقد حدث في عصره وعلى يده وقائع مؤلمة داخل البيت الأموي كانت منافية لتلك السجايا الحميدة التي مارسها خلال عمره المديد.

فقد اتهم بقتل أخيه المنذر بالسم طمعاً في الخلافة. كما كان هناك صراع بين محمد والمطرف أبناء الأمير عبدالله لمنافسة بينهما، حيث يرى المطرف أنه أحق بولاية العهد من أخيه الأكبر محمد لكونه محل ثقة أبيه وعضده الذي يذود عنه ويعهد إليه قيادة

الجيوش والمنافحة عن البيت الأموي، ودأب المطرف على السعاية ضد أخيه محمد لدى أبيه ولم يهن عزمه عن ذلك حتى أوغر صدر أبيه، ويقول ابن خلدون: إنَّ محمداً لحق حينئذٍ بابن حفصون ثم طلب الأمان فعاد.

وهناك من يقول: إنه همَّ ولم يفعل، أو أنَّ المطرف استطاع إقناع أبيه بأن أخاه محمداً ولي العهد كان يتواصل مع ابن حفصون، فغضب عليه أبوه وسجنه في إحدى غرف القصر، وعندما ثبت لدى الأمير عبدالله براءة ابنه محمد وعزم على إخلاء سبيله بادر المطرف بالدخول على أخيه وإثخانه بالطعن حتى أجهز عليه.

أما ابن خلدون، فيقول: إنَّ الأمير محمداً عندما خرج في بعض غزواته، واستخلف ابنه المطرف على قصره قتل أخاه في محبسه مقتاتاً بذلك على أبيه، فحزن الأمير عبدالله على محمد، وضم ابنه عبدالرحمن إليه، وهو ابن يوم واحد.

أما ابن الأثير فيذكر أنَّ الأمير عبدالله قتل ولده محمداً في حد من الحدود، وكان عمر محمد عند قتله سبعة وعشرين عاماً.

بعث الأمير عبدالله ابنه مطرفاً لقتال بعض الخارجين عليه، وأرسل معه وزيره عبدالملك بن أمية، ففتك المطرف بالوزير لعداوة كانت بينهما، وبعد العودة من الصائفة ومحاربة الخارجين سعى أعداء المطرف عند أبيه وأوغروا صدره عليه، واتهموه بالطموح لنيل الحكم بعد التخلص من أبيه، فقتل الأمير عبدالله ابنه المطرف واجتز رأسه.

وعَيَّن الأمير عبدالله أمية بن عبدالملك بن أمية ابن وزيره السابق المقتول وزيراً بدلاً من أبيه، ويقول ابن خلدون: «فسنح على الفقراء بأنفه، وترفع على الوزراء، فمقتوه وسعوا فيه عند الأمير عبدالله بأنه بايع جماعة من سماسرة الشر لأخيه هشام بن محمد، ولفقت بذلك شهادة اعتمد القاضي حينئذٍ قبولها وأشار للساعين في أن يجعلوا في الجماعة للمشهود عليهم بالبيعة بعض أعدائه فتمت الحيلة، وقتلَ الأميرُ عبدالله أخاه هشام بن محمد، كما قتل أمية بن عبدالملك بن أمية الوزير بن الوزير وعددا ممن يرغب الأمير قتلهم».

كما أنَّ الأمير عبدالله ارتاب من أخيه القاسم، فقبض عليه وزج به في السجن ثم دسَّ عليه من قتله بالسم.

كما أنه قتل عدداً من أمراء بني أمية وكبار القادة الذين يتوجس منهم خيفة، ولهذا فقد قال عنه بعض المؤرخين: إنه قتَّال تهون عليه الدماء، مع الذي كان يظهره من عفته.

وقال آخر: وغمصوا عليه دينه بما كان من هون الدماء عليه، وإسراعه إلى سفكها حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهما من صحابته ورعيته، آخذاً لأكثرهم بالظنة، مقوياً في اتهامهم بالشبهة.

شخصية تتسم بهذه الصفات الحميدة من غير المتوقع أن تهون عليها الدماء، لكنه الإنسان ذلك المزيج من المحاسن والمساوىء، ويكون منها بدرجات متفاوتة، فلا تخامرنا الدهشة في شخصية الأمير عبدالله، فالتاريخ أورد لنا في صفحاته الكثيرة العديد من الرجال الذين ماثلوا الأمير عبدالله في تناقض عجيب.

وقد امتد عهد الأمير عبدالله نحو خمسة وعشرين عاماً، وطال عمره حتى جاوز السبعين، كما طال عمر أمه فماتت قبل موته بنحو سنة فقط.

واجه في عهده المديد الكثير من الفتن والثورات والقلاقل، فلم يهنأ براحة قط عبر هذه السنين الطويلة، كما لم تتح له هذه المنغصات من الوقت والجهد والمال ما يمكن أن يبني به مسجداً أو يشق جدولاً أو يشيد قصراً، فذهب ربع قرن من عمر الأندلس في عهد الأمير عبدالله دون بناء أو تشييد، وإنما فتن، وقتل، وخيانة، وغدر، وتفتيت، ومكائد، ودسائس، ودعوات ضلال.

بدأت الفتن المبنية على الدسائس الخارجية في عهد عبدالرحمن الأوسط ومن ثم ابنه محمد ومن بعده ابنه المنذر، لتصبح الأندلس أقرب إلى السقوط من خلال التفتيت.

كانت الفتن منحصرة فيما مضى في الجبال وبعض المدن، وفي عهد الأمير عبدالله نزلت إلى العديد من المدن إضافة إلى الجبال، وكانت فتن المولدين مثل ابن حفصون وأبناء موسى بن موسى القسي وغيرهم هي أكثر الفتن خطراً على البيت الأموي في الأندلس، غير أنَّ الأمر تجاوز المولدين في عهد الأمير عبدالله، حتى بدأت القبائل العربية تدلي بدلائها؛ لتروي ظمأها للسلطة والجاه والمال.

ولم يقف البربر بمنأى عما أقدم عليه المولدون والعرب فانضموا إلى قافلة الاستزادة من لذة الحكم.

كان ابن حفصون قد كوَّن له منعة فيما تحت يده من أرض الأندلس لا سيما الجنوب فيها، فأرسل إليه الأمير عبدالله جيشاً، فأراد ابن حفصون المهادنة فأرسل أحد أبنائه، ويقال له حفص، للتفاوض مع الأمير، فوافق الأمير وردهم رداً جميلاً، وبعث معهم والياً من قبله؛ ليشارك ابن حفصون في الأمر على أن يلتزم الطاعة، لكنَّ ابن حفصون عاد إلى سيرته الأولى، فطرد الوالي، واستقل بالأمر، وأخذ في التوسع، كما أرسل إلى والي أفريقية ودعا إلى العباسيين لعله ينال دعمهم فتكون له الطائلة في الأندلس، وأرسل الأمير عبدالله قائده عبيد الله بن أبي عبدة الذي استطاع هزيمته دون القضاء عليه.

وفي هذه الأثناء أخذت الثورات العربية تندلع في الشرق الأندلسي، ليقوم يحيى بن صقالة القيسي بثورته العربية مستفيداً من ماله الكثير، ونفوذه الكبير، في استمالة العديد من القبائل العربية لإعانته على بلوغ مرامه، واستطاع في بادىء الأمر السيطرة على كثير من نواحي شرق الأندلس، لكنه ما لبث أن قُتل، ليحل محله سوار بن حمدون القيسي، واستمر في الصراع مع المولدين وعلى رأسهم ابن حفصون، ثم مالبث أن قتل سوار فخلفه في قيادة القبائل العربية سعيد بن سليمان السعدي من قبيلة هوازن الذي استطاع مقارعة ابن حفصون، فأقرَّه الأمير عبدالله على ما تحت يده، ويقال: إنه قتل غيلة بتدبير من الأمير عبدالله.

وفي إشبيلية ثار ابن أبي عبيد وابن خلدون - وهو من أجداد ابن خلدون صاحب المقدمة - وابن حجار وابن مسلمة.

قال ابن خلدون: «وكان أول هؤلاء أمية بن عبدالله بن أبي عبيد، واستبد أمية بولايتها ودس على عبدالله بن الحجاج من قتله فقام أخوه إبراهيم مكانه، فثاروا به وحاصروه في القصر، ولما أحيط به خرج إليهم مستميتاً بعد أن قتل أهله، وأتلف موجوده، فقتل وعاثت العامة برأسه، وكتب ابن خلدون وأصحابه بذلك إلى الأمير عبدالله».

وكان هنـاك صراع على السلطة تنازعه أكثر من بيت من بيوت العرب، واستمر الغدر والقتل إلى أن استقرت الحال بيد إبراهيم بن حجاج الذي كان لطيف المعشر لبيباً سياسياً حـاول التوافق مع الأمير عبدالله بدل التنافر، وكان يرسل لـه الهدايا، فأبقاه وأقرَّه على إشبيلية، واستمر كذلك حتى عهد الناصر.

لم تكـن الثـورة العربيـة في إشبيلية هي الأخطر علـى البيت الأمـوي في الأندلس من الخطـر الجسيم الذي كان يحدق بهذا البيت الذي أخذ في الترنح، فقد تحالفت جبهتان خطيرتان مـن المولدين، هما ابن حفصون في الجنوب والغرب ومحمد بن لب القسي من أبناء موسى بن موسى في الثغر الشمالي، غير أن موت والد محمد بن لب جعله يعود دون أن يحقق الحلف المراد منه.

فاجأ عمر ابن حفصون من حوله بإعلانه اعتناق النصرانيه مع أفراد أسرته، وسمى نفسه صمويل، فنفر المسلمون من حوله وسخطوا عليه، فطلب الحلف مع بني قسي وألفنسو ملـك ليون، كما حـاول مفاوضة بعض العرب، لكنهم أنفوا منه ولم يساعدوه، إلا أن زعيم إشبيليـة إبراهيم بن حجاج مالأه وحالفـه انتقاماً من الأمير عبدالله لرفضه إطلاق ابنه الذي كان محجوزاً لديه.

هـذه مأساة كبيرة أخرى تظهـر لنا جلية في خطوة جديدة لم تكـن قط مألوفة، وهي مناصرة المرتد في سبيل تحقيق الغاية، لتضاف هذه المأساة إلى مآسي الأندلس الكثيرة، من قتل الأقرباء والأبرياء، والمكائد، والدسائس، وغيرها كثير؛ طمعا في السلطة.

خشـي الأمير عبدالله مـن هذا التحالف، غير أنـه عزم على منازلتـه، فأرسل قائده أحمـد بن أبي عبدة، فانهزم ابن حفصون، وآثر ابن الحجاج السلامة وعاد إلى الطاعة؛ خوفاً من قتل الأمير عبدالله لابنه عبدالرحمن الذي كان رهينة لديه.

وعلينـا أن نذكـر أنَّ بطليموس بقيـت في يد عبدالرحمن بن مـروان الحليقي الذي لم يستطع الأمير عبدالله زحزحته عنها فأبقاه.

أمـا طليطلة فكانت في يـد بني ذى النون من قبيلة هـوارة البربرية، وكان لب بن محمد مستولياً على تطيلة، وقد أشغل نفسه بالصراع مع ملك ليون ألفونسو، فكان شوكة ظلت تؤرق مملكة ليون حتى توفي، فتولى ابنه محمد بدلاً عنه وقد انضوى تحت لواء الأمير عبدالله.

ويذكـر ابن الخطيب أسباباً لهذه الفتن يذكر منها: «علو الهمم، وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمـال لثقل الطاعـة، إذ كان ما يحصل بالأندلس أشراقـاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعضـ، وكذلك الاستناد عند الضيقـة والاضطراد إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض.

فـكان الأمـراء من بني أمية يـرون أن اللجاج في أمورهم، يـؤدي إلى الأضلولة، وفيها فساد الأموال، وتعذر الجباية، وتعريض الجيوش إلى الانتكاب، وأولياء الدولة إلى القتل، ولا يقوم السرور بغلبة الثائر بما يوازنه من ترحة الأمور».

ويمكننـي أن أضيف إلى ذلـك أنَّ حكَّام الأندلس من بني أمية يتركون للوالي متسعا من القـوة والنفوذ، ويكتفون بما يجبيه من المال وإرساله إليهم، فتتعاظم سطوة الولاة ويكونون لأنفسهـم مراكـز قوى بعيدة عن العاصمـة المركزية، لا سيما أنَّ وسائـل الاتصال في ذلك الوقت كانت محدودة وكان من الأجدر تغيير الولاة بصورة دورية للحد من مراكز النفوذ.

كمـا أنَّ حكام الأندلس في أحايين كثيرة يُقـرُّون كثيراً من الولاة الخارجين عليهم بمجرد عودتهـم للطاعة واستمرارهم في دفع الخراج، فيعيد هـؤلاء الطامعون محاولاتهم كلما رأوا الفرصة متاحة لهم طالما أنَّ جذورهم متأصلة في الثغر الذي يتولون إدارته، وطالما أنَّ مطامعهم ليسـ لها حدود، وقـد يكون سلوك بعض بني أمية مدعاة للتضجر الشعبي الذي ينتهزه هؤلاء الولاة الطامحون؛ ليكون وقوداً لثوراتهم المتوالية في مناطق كثيرة من الأندلس.

كان عصـر الأمير عبدالله عصر الذروة من المآسـي والفتن منذ قيام الدولة الأموية، وكان العامل الخارجي أكثر العوامل تأثيراً على الدولة، وظلت دولة الأندلس في عهده دولة واحدة تحكم من خلال ولايات شبه مستقلة.

توفي الأمير عبدالله بن محمد بعد أن ترك اثني عشر ابناً وثلاث عشرة بنتاً، وبعد وفاته تدخل دولة بني أمية في الأندلس عصراً جديداً فذاً بقيادة الأمير ثم الخليفة عبدالرحمن الناصر.

عبدالرحمن النـــاصر

أمـير المؤمنين عبدالرحمـن الناصر، جمع الكثير من الغرائـب والحظوظ المتلاحقة، فقـد كان والـده محمد بن الأمير عبـدالله ولي عهد أبيه، فقتله أخـوه المطرف بن الأمير عبـدالله وكان عمـر عبدالرحمـن وقتذاك يوماً واحـداً، كما تولى الحكـم بعد موت جده في وجـود عدد من أعمامه وأعمام أبيه وعمره نحـو اثنين وعشرين عاماً، ولم يزاحمه في الأمـر منهم أحـد برغم صغر سنه وكونه حفيداً وليس ابناً، غير أنَّ جده كان يوليه عطفه منذ صباه ويركن إليه في الملمات، وهناك من يقول: إنَّ جده قد أعطاه خاتمه بعد اشتداد المرض عليه في إشارة واضحة إلى استخلافه، وربما يكون للقادة والوزراء وموالي القصر دور في ذلك، ومن المستبعد أن يكون للنساء يد في مثل هذا الأمر، وقد كان عمه أحمد بن عبـدالله أول المبايعين، فقال: «والله لقد اختـارك الله على علم للخاص منا والعام، ولقد كنت أنظر هذا من نعمة الله علينا».

ومن التوفيق الذي صاحب هذا الأمير أن حكمه دام طويلاً حيث بقي حاكماً للأندلس خمسـين عامـاً، واستطاع خلال هذه المدة أن يحد من الفتن والخروج عليه، إما من خلال السياسة وحسن التدبير، أو بموت الخصم أو خوفه منه، وكذلك الانتصار عندما يتطلب الأمر استخدام الجيش لإخماد نار الفتنة أو فتح المزيد من المناطق لتوسيع النفوذ.

والأمير عبدالرحمن الناصر هو أول من تسمى بأمير المؤمنين في الأندلس عندما خبا نجم بني العباس في المشرق واستبد موالي الترك على بني العباس، حتى إنمؤَّنس المظفر قتل الخليفة المقتدر، فاستغل الأمير عبدالرحمن هذا الحدث ليلقب نفسه بأمير المؤمنين وهو العاشق للأبَّهة وعظمة الملك.

وأمُّ عبدالرحمن الناصر جارية نصرانية اسمها «ماريا»، تطلق عليها الروايات العربية اسم «مزنة»، وقد تولى عام ٣٠٠ هـ وامتد حكمه حتى عام ٣٥٠ هـ.

تتلمذ على يد الأديب المعروف صاحب العقد الفريد أحمد بن محمد بن عبد ربه الذي كان قريباً أيضاً من أجداده الأمراء.

وقد قال ابن عبد ربه شعراً بمناسبة تولي عبد الرحمن الناصر الإمارة جاء فيه:

بدا الهلال جديداً والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدي إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

وكان له من الولد أحد عشر ابناً، ورثه منهم تسعة أبناء كان أكبرهم ولي عهده الحكم وأمه جارية اسمها «مرجانة»، وكان لولي عهده شقيقان عبيد الله وعبد العزيز، وله ولد واحد من زوجته القرشية الحرة بنت الأمير المنذر، وسمى ولدها المنذر على والد زوجته وعم أبيه المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط.

ليس في عهد عبد الرحمن الناصر من المآسي الكثير، فهو عهد ازدهار وهدوء وانحسار للفتن والقلاقل مع عدم خلو عهده منها، ولم يخل قصر الأمير من المماحكات والصراعات التي لم يمتد أثرها إلى سواه، فهناك القصة المشهورة بين زوجتيه القرشية فاطمة بنت الأمير المنذر والجارية مرجانة التي أصبحت أقرب نسائه إلى قلبه فيما بعد، فقد ذكر ابن حيان في المقتبس أن السيدة الكبرى مرجانة أم الخليفة الحكم كانت من السريات المفضلات عليهم بفضل أدب كان لها ورشاقة حركة يستحسنها مولاها الناصر لدين الله منها، فلا يزال كذلك يستدنيها كثيراً، ويعجب بحذقها، ويكثر تقريبها، وتعجبه لياقتها، وقد أوتيت من اللبابة، والفطانة، واللطف، والحلاوة، وجمال الصورة، وعذوبة المنطق، وملاحة الإشارة، وحلاوة الخليقة، أفضل ما أوتيته أنثى، فكانت صواحبها يحسدنها ذلك وينافسنها فيه فتتقوى باستعمال ذلك وتترقى وتزداد به عند الناصر لدين الله حظوة، إلى أن بذَّتهن جميعاً واعتلت على عظيمتهن جميعاً الحرة القرشية، فنالت ذروة السيادة وتفردت بأَثَرة الخليفة مولاها، وكان السبب في إيثاره لها على سيدتها ابنة عمه القرشية فاطمة بنت الأمير المنذر وجميع حظاياه، أنه انفرد يوماً للراحة في بعض رياض القصر بمن استدعى من جواريه، فقضى وطراً من لذته وطرب إلى التحول إلى حُرَّته السيدة القرشية بنت الأمير المنذر عمِّ أبيه، وكانت من سروات النساء، قد شُغِفَ بها أول خلافته فكانت أول نسائه، تزوجها بقصر الخلافة إذ كان مسكنه فيه في كنف جده الأمير

عمهـا الذي تبناها بعد موت أخيه المنذر، فكفلها الأمير عبدالله جدُّ عبد الرحمن الناصر وأحسن إليها، فنكحها الناصر لدين الله لما صار الأمر إليه وحظيت عنده، وولدت له منها ابنهـا المنذر بن عبدالرحمن الناصر المعروف بابـن القرشية هو ونسله، وكانت من أكرم عقائـل بني أميـة وأشرفهم، إلاَّ فيما لا تسلم النساء فيه من ضعف الرأي وغلظ الحجاب (كما يقول ابن حيان).

قال: «فلما تشوقها الناصر لدين الله في يوم سروره ذلك دعا ببعض الوصائف القوامات، فقـال لإحداهن: انطلقـي إلى السيدة الكبرى فاطمـة القرشية بعينهـا فأبلغيها سلامنا، وعرفيهـا أننـا ضيوفها الليلة فلتستعد لنـا إن شاء الله». قال: «فانطلقـت إليها الوصيفة، فأبلغتهـا رسالـة الخليفـة، فاهتشَّت لها وقالت: يـا مرحباً بسيدي وأهـلاً وكرامة ورحباً، حبذاها من بشرى أنا لها ساعية، وبعرجها طائرة» وأمرت للوصيفة بجائزة سنية.

وصـادف أن كان في المجلس عند حديث الوصيفة بعض كرائـم القصر وأمهات أولاد الخليفـة وفيهن جاريته مرجانة، فلم تمتلك بغالب ظرفهـا ومرهف حيلتها أن قامت إلى القرشيـة مهنئة لها بالفرحة غابطتها بالليلة، فأكبت على أطرافها مقبلة، وقالت: «بارك الله لـك أيتها السيـدة الشريفة، في هذه النعمة الحادثة، وهنأك هـذه البشرى القادمة، وأفرغ عليك فيها الاستحسان، ومنحك نهاية السرور والموافقة، طوبى لك أن يكون خليفة الله ضيفـك الليلة، وتبيتين ضجيعة سيد البرية، ثـم أخذت مرجانة العود فقرعته مغنية بإيقاع هزَّ أعطافها، ونظمت شعراً في حينها فقالت رجزاً:

يا ليلة لو أنها تبتاع لي أو تشترى — شريتها بكل ما أطلبه من المنى

فقالـت لهـا القرشية: «ويحك يا مرجانـة، لقد أفرطت في إطرابي هـذه الليلة وذلك من فـرط صلفـك ومجونك، وهذه ليلة من ليـالي الأنس الغر المحجلة، ليـالي الأنس، وما قد سرني به في هذه الليلة المزرية بكل الليالي ففيها زيادة لمنزلتي عنده وحقي عليه»، فقالت لها مرجانة: «يا سيدتي، اللذَّة مع الحِبرْة، والله إنَّ الدنيا بأسرها لتقل عند ما أحدثه الله لـك من هذه النعمة فهنيئتها تامة، والله لو استطعت شراءها بجميع ما أملكه ولا أحاشي سوى ثوبي الذي أستتر به لخرجت من جميعه طيبة النفس، ولعددت أني رابحة الصفقة».

فقالت لها القرشية في سبيل الشطط ومعنى المهازلة والمزاح: «أعطني بها عشرة آلاف دينار وأنا أبيعها لك»، فقالت: «قد قبلت واشتريت واغتبطت». ثم انطلقت من منزلها إلى القصر فجمعت ما كان عندها في القصر وقدمتها للقرشية، ولحقت القرشية في حينها الرغبة في المال وقالت لقهرمانتها (خادمتها) اقبضيها منها، فقالت مرجانة للقرشية: «لا بد والله أن آخذ رقعة بخط يدك العزيزة أيتها السيدة الكريمة، ببيعك مني هذه الليلة واستحقاقي إياها؛ لأستظهر بها عند مولانا أمير المؤمنين فيعطيني بحقي»، فاستخفت القرشية بالأمر، وتوكلت على لطفه معها ومحبته لها، وقدرت أنَّ فعلها يجري عند الخليفة ابن عمها مجرى أعباث النساء المضحكة، فكتبت لمرجانة رقعة بخطها، وأشهدت لها من حضرها من كرائم الخليفة معتقدة أنَّ الأمر لا يعدو كونه مزاحا تسعد به الخليفة.

أما مرجانة فكانت قد بيتت الاستفادة من هذا الموقف للاستئثار بقلب الخليفة والإطاحة بابنة عمه المفضلة لديه.

وانصرفت مرجانة بالرقعه إلى منزلها ومقصورتها وأعدت عدتها وبالغت في عطرها وزينتها، وقعدت في طريق الخليفة الذي يقوده إلى القرشية، فلما أن تحرك من مكان منتزهه ومشى وأقبل قاصداً قصر حُرَّته القرشية، تصدَّت له مرجانة في أجمل شارة، وأفخر حلية، وأسطع طيب، فقالت: «إليَّ إليَّ، يا ابن الخلائف، فقد حباني الله بقربك، وعرضني لعدلك، وأنت حاكم الحكام ورحمة الله على الأنام، قد اشتريت مبيتك الليلة عندي بما حوته يميني، وأديته فضلاً عليه، وناولته الرقعة بخط القرشية والشاهدات عليها من كرائمه ببيعها منها الليلة، فلما نظر إليها عظم عليه، فاربدَّ وجهه، وهاجت نفسه غضباً على ابنة عمه القرشية، ثم تطلق سريعاً ارتياحاً لمرجانة وعجباً من شرف فعلها بصدق مودتها وقال لها: «يا مرجانة، حملت الرغبة في قربي والحرص على الاستكثار مني أن بذلت له مثل هذا المال الذي أهديته لك، في ثمن ليلة تعجلتها مني لم تكن لتفوتك بدنو نوبتك».

فقالت له: «يا ابن الخلائف، وتراني في فعلي غبينة؟ والله، والله، لو أني ملكت هذا القصر، وما يحويه لما رأيته ثمناً في ساعة أخلص فيها إليك، ولحظة أنفرد بها منك، فكيف أنْ أستكثر ليلة منك بهذا المال الذي جادت به يدك الكريمة؟».

فقال لها: «فأبشري ثم أبشري، فقد ربحت تجارتك، وزكت صفقتك، ودَلّلْتِ على شرف نفسك، وصدق مودتك، وتبت يدا ابنة عمي التي جهلت حقي، وباعتني بالثمن الخسيس زاهدة في، والحق أولى فيك، فاقتاديني إلى قصرك، فإنني طوع يمينك، وحبس هواك».

ثم صار إليها وبات عندها، وأطال المقام أياماً لديها، وكان ذلك سبب استحواذها عليه وغلبتها على قلبه، ورعى لها حق تحببها إليه وازدلافها لديه، فاتخذها سيدة نسائه، وكبرى حظاياه، وقمة قصره، وألقى إليها بمقاليده، ووثق بها في سره وجهره، وعوضها عن المال الذي دفعته للقرشية وأعطاها أضعافه.

فتقدمت لديه جميع نسوانه حتى كانت كرائمه وحظاياه لايصلن إلى مطالبهنَّ ورغباتهنَّ من الناصر لدين الله إلا بشفاعة مرجانة لهنَّ إليه، وتوسلهنَّ بها لديه، لغلبتها على قلبه. ورزقه الله منها بثلاثة من الذكور وبنتين وكانوا جميعاً أقرب أولاده إلى قلبه.

أما الحرَّة القرشية، فقد أقسم ألاَّ يدخل عليها، وخيرها بين المقام على أن يعتزلها مستمسكة بعصمته أو أن يسرحها، فاختارت المقام لديه إلى أن ماتت بعد موت مرجانة، لا سماء بكت عليها ولا أرض، كما يقول ابن حيان.

الحقيقة أنَّ كثيراً من العظام يكونون أضعف ما يكونون عند النساء، فهذا الذي تأتيه السفارات من ملوك الأرض ويحارب ويصارع ويتولى الأمور بنفسه صغيرها وجليلها، تستطيع جارية من جواري القصر السيطرة على قلبه وانتزاع قلبه من ابنة عمه بسبب مزاح لم تدرك أثره، وكيف لرجل عظيم مثل عبدالرحمن الناصر أن تغيب عنه في تلك اللحظة حقيقة مكائد النساء، فينصرف قلبه عن ابنة عمه التي أحبها منذ صباه بسبب احتضان جدها له ولها ليعيشا عاشقين مدة غير يسيرة من شبابهما، فما يلبث أن يجفوها بسبب حيلة من أحد جواريه؟

لقد أورد ابن حزم في كتابه نقط العروس في نوادر الأخبار شيئاً من معايب أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر، فقال: «وما كان عبدالرحمن الناصر لدين الله بالبعيد من جدِّ جدِّه الحكم بن هشام في انهماكه في المعاصي، والتباسه بالريب، وعبثه في الرعايا، واستهتاره باللذات، وتغليظ العقوبات، وتهوينه للدماء.

فهـو الذي علق أولاد السـودان في ناعورة قصره بدلاً من القواديس (الدلو) الغارفة للماء فأهلكهـم، واشترى رسيس الماجنة مضحكته، وتقلـدت بسيف وقلنسوة وهي عجوز سوء فاجرة، إلى مناكير كانت له باطنة، والله أعلم».

ولقد حمل أكبر خواصه من الخصيان ساكني داره ومشاهدي غيبه الكثير من القصص العجيبـة، ومنهـا أنَّ جارية من عليات حظاياه المعتدات بعلاقته، كان في خلقها بأو (فخر) لاتوفيـه به حق تعاظمه، خلت به يوماً من أيام أنسه بالشراب بروضة الزهراء جالسة إلى جنبه والكأس قد عملت فيه، فألحَّ على محياها باللثم والعض حتى كلِّفت من فعله، فكسرت طرفهـا (أي أمالت بنظرها عنه)، وثنت جيدها عابسة سروره، فأثارت من غضبه ما أمر الخصيـان من أجله بإمساكهـا، وإدناء الشمعة من وجهها، وإحـراق محاسنها، وطمسها حتى خمشوا وجهها، وأساؤوا إحراقها، وقضوا عليها فكانت من أقبح فعلاته.

وحكى سيافه أبو عمران، أنَّ الأمير استدعاه ليلة إلى مجلسه بقصر الناعورة، فدخل إلى الأمـير في مجلس شرابه، فوجده جالساً القرفصاء وجارية كالمهاة محبوسة في أيدي الخصيان إلى ناحية وهي تسترحمه فيرد عليها أغلظ رد، ثم قال: «دونك الفاسقة يا أبا عمران، فاضرب عنقها»، فتأنيت فقال لي: «اضرب قطع الله يدك وإلاَّ قطعت عنقك».

فأدناهـا الخادم إلي وقـد شمر غدائرها وكشـف عن عنقها، قـال: فضربتها ضربة فأطرت رأسها، وسمعت لوقع الشفرة صليلاً لم أعهده، فرفع جسد المرأة، ومسحت سيفي في نطعي وطويته وانطلقت به.

وقال ابن حيان: «ومما رعَّب عبدالرحمن الناصر الناس به من فظيع المخاوف اتخاذ الأسُود إرهاباً لعذابه، وذلك من أفعال جبابرة الملوك في المشرق، ذهب إلى اقتفاء أثرهم فيهـا، وهي سباع استدعاها من قبل ملوك المغرب وقـد سلَّطها على بعضٍ مما لا يروقون له إلى أن زهد فيها آخر عمره».

وأمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر كان يحسن التوازن السياسي، لكنه كان صارماً في الوقت الذي تستوجبه الضرورة، بل يتعداه إلى أن يكون جائراً في أحايين كثيرة.

فقد قتل ابنه عبد الله عندما انتهى إلى علمه أنَّ عبد الله يحسد أخاه الحكم ولاية العهد ويرى أنه الأجدر بها، وأنه اتفق مع أحد الخصيان في القصر يقال له: ياسر على محاولة زحزحة أخيه، وانضم إليه في هذا الأمر عدد من رجال الدولة، فانكشف الأمر فلم يتوان في قتلهم، حيث قتلهم جميعاً بمن فيهم ابنه عبد الله. وفي قول آخر: إن عبد الله سمت نفسه إلى طلب الخلافة وتابعه قوم فقبض عليهم جميعا وسجنهم إلى أن كان يوم عيد الأضحى سنة ٣٩٣ هـ وأحضرهم بين يديه وأمر ابنه أن يضطجع له فاضطجع فذبحه بيده والتفت إلى خواصه فقال: هذا أضحيتي في هذا العيد وليذبح كل منكم أضحيته، فاقتسموا أصحاب عبد الله فذبحوهم عن آخرهم.

وكان صراع مرير آخر قد حدث في البيت الأموي، فقد سعى عمٌّ أبي الأمير عبد الرحمن الناصر واسمه محمد بن عبد الجبار بن الأمير محمد باتهام أحد إخوة الأمير عبد الرحمن واسمه القاضي بن محمد، وقال: إنه يحاول العصيان على أخيه، كما أنَّ القاضي بن محمد أخي الخليفة عبد الرحمن الناصر وشى عند الخليفة بعمٍّ أبيه محمد بن عبد الجبار واتهمه بالتهمة نفسها، فاستطلع الأمير على الجليّ من أمرهما فقتلهما جميعاً.

وقام الناصر بقتل عدد من أبناء عمومته لا سيما أبناء إسحاق بن محمود بن إسحاق ابن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وهو لا يتورع عن قتل أقربائه أو وزرائه في سبيل استتباب أمنه والحفاظ على ملكه.

لقد كان عبد الرحمن الناصر صارماً مثل جده الأعلى عبد الرحمن الداخل، وكان يمسك مقاليد الأمور بيده ولا يركن إلى أحد قط، فقد قال لأحد السفراء الذين قدموا إليه: «مع أنَّ ملككم أمير حكيم، لكن هناك ما لا أستسيغه في سياسته، فهو يوزع سلطاته على أتباعه بدلاً من أن يقبض جميع السلطات من يديه؛ لأنه يعتقد أنه يربح بتوزيع تلك السلطات، فهذا خطأ فادح فإنَّ مداراة العظماء لايمكن إلاَّ أن تزيد من كبريائهم وتذكي رغبتهم في الثورة».

هـذه الجملـة الأخيرة توضح لنا أسلـوب عبد الرحمن النـاصـر في الحكم، ولهذا فقد استأصل رؤسـاء القبائل العربية ذوي العصبية والزعامـات البارزة، واعتمد على بطانة ذليلـة من الفتيـان الصقالبـة والمولدين. والصقالبـة كما أسلفنا مجموعـة من الأسرى والخصيـان الذين يتـم جلبهم صغاراً وخصيهم للعمل في القصـر، وهم مع مرور الوقت أصبحوا مزيجا من الفرنسيين والألمان والأسبان والإيطاليين وغيرهم، وكانوا من الجنسين ذكـوراً وإناثـاً ويُعَلَّمُونَ الإسلام واللغـة العربية كما يتم تربيتهم علـى القيم العربية، وفي عصـر عبد الرحمن النـاصر أصبح لهم نفوذ كبير في القصر وإدارة الجيش فنالوا الكثير مـن المـال والضياع، وقد بلغ عددهم في عصر عبد الرحمن الناصر ثلاثة عشر ألفا وعدد النسـاء بالقصـر نحو سبعـة الآف يغدق عليهم مـن الطعام والمـال، وكان يرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم امتهاناً لهم وإذلالاً؛ حتى تتكسر هيبتهم.

عبد الرحمـن النـاصر كان كثير التوفيق في حروبه، كما أن ظروفا كثيرة تظهر لتمنحه مزيداً من الانتصار، حتى المحل (قلة المطر) الذي حلَّ بأرضه مرتين خلال عهده ساعده في النيل من مناوئيه، كما أنَّ الصراعات بين أعدائه تخرج بين الفينة والأخرى لتدفع عنه عناء حرب أو لتسهِّل له درب انتصار.

فقـد قـام فتح بن موسى بـن ذي النـون ومعه محمد بـن إدريس الرباص على والي الخليفة؛ رغبـة في الاستئثار بالحكم، وتنازعا فأرسل لهـم الخليفة عبد الرحمن الناصر قائديـن مـن قواده، وجلب رأس محمـد بن إدريس إلى قرطبة فـكان أول رأس من رؤوس الخارجين يجلب إليها.

قبل أن يبدأ عبد الرحمن الناصر أول غزوة له يتمكن قاضي البيرة من إقناع أهلها بالعدول عن العصيان والانصياع والطاعة للخليفة الجديد، فيتم له ذلك، وهذه من بوادر التوفيق.

وقـد حاول أحد العصاة القابعين في حصن «المتلون» واسمه سعيد بن هذيل أن يجرب حظـه في المقاومة، فكان عبد الرحمن النـاصر صلفاً قوياً أحرق الحصن، فاستسلم سعيد بعـد قتـل عدد مـن رجاله، وقد جعلـت هذه الحادثه عـددا من الحصون تتهـاوى تهاوي النجوم.

وعندما وصل إلى معاقل غريمهم القديم، عمر بن حفصون، استسلمت كثير من الحصون وامتنع أحد الحصون التي يقطنها بعض من المولدين والنصارى، فضربهم بالمنجنيق، وقطع الماء عنهم ثم دخل عنوة فقتلهم جميعاً، فخاف أعداؤه من بطشه، وكان جعفر بن عمر بن حفصون في إحدى تلك القلاع، وعندما علم بما حلَّ بغيره هرب في جنح الظلام حتى لحق بأبيه في معقله «بينشر» فنزل عند طاعته نحو ثلاث مئة ما بين حصن وبرج، فقال الشاعر في ذلك:

في نصف شهر تركت الأرض ساكنة — من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا

لما رأوا حومة الشاهين فوقهم — كانوا بُغَاثاً حواليها ودُرَّاجا

وفي إشبيلية يساعد الحظ عبدالرحمن الناصر فيموت حاكمها عبدالرحمن بن حجاج المتمرد على السلطة المركزية في قرطبة، ويجتمع أهلها على تأمير أحمد بن مسلمة متجاوزين أخا المتوفى محمد بن حجاج، فينحاز محمد بن حجاج بمن معه إلى جانب الأمير عبدالرحمن، وعندما علم أحمد بن مسلمة بالأمر خشي العاقبة، فأرسل رسله إلى عبدالرحمن الناصر طالباً مد يد الطاعة بشرط بقائه في حكم إشبيلية، وتوسط في ذلك إسحاق بن محمد القرشي المرواني وعمر بن عبدالعزيز المعروف بابن القوطية وموسى الخولاني، لكنَّ الأمير عبدالرحمن الناصر لم يقبل شفاعتهم وردهم خائبين.

وعندما عادوا بخطاب الرفض من الأمير عبدالرحمن الناصر، استغاث بعمر بن حفصون، فقدم بجيشه لنصرته لكنَّ محمد بن سلمة قابله خارج المدينة، فتمت معركة ضارية انهزم فيها عمر بن حفصون، ففرَّ بعد أن خسر الكثير من رجاله وعتاده.

فوجد أنه واقع لا محالة، ففكر طويلاً في حيلة يتخلص بها مما وقع فيه، فطلب من الوسطاء إخفاء خبر الرفض وتزوير خطاب آخر يظهر موافقة الأمير عبدالرحمن الموادعة وإشاعته في إشبيلية مع عودة الوسطاء ثانية إلى قرطبة، وطلب حضور المولى بدر لتسليمه المدينة دون شروط بأسلوب لا يغضب المعارضين لهذه الخطوة المتمثلة في إظهار المعارضين من الفرسان خارج المدينة ومن ثم فتح أبواب إشبيلية للقادمين من قرطبة وإغلاق الباب لإعلان حقيقة الأمر، فيسقط في يد المعارضين، ويسلم العامة من شغب الجند.

ودخل الوفد قرطبة ليلاً، وطرقوا باب بدر، فبادرهم بدر قائلاً: «النفاق بعد الحج؟» فقال له: «أعوذ بالله أيها الحاجب، من الضلالة» لقد فتر النشاط، ومللت الفتنة، فتأنيت للحيلة، وجئتك كيما تسير معي إلى أشبيلية فأدخلكها عفواً بغير مشقة، إن شاء الله، فقم في شأنك ولا تتثبط، فقال له بدر: كيف ذلك بإجماع أو مهاجمة؟» قال: «لا، بل بحيلة تكون كالإجماع» فقال الحاجب بدر: «فاذكرها فإن السلطان لا يعمل على الخطر»، فعرفه بالأمر، وأشار إليه أن يكون هو الخارج إلى أشبيلية في هذا الأمر، فأنكر الحاجب بدر هذا التدبير وقال: «هذا خطأ وركوب غرر، فإن خروج مثلي لايستتر، ولست آمن سبق خبري فيبطل تدبيرك» فقال له رسول الأمير: «إنه قال ما سلمت قط حيلة من المخاطرة، وأنا من تمام ما دبرته على ثقة، فقم فيه بجد، ولا تتلعثم فالجد عليك، والقضاء محجوب عنك».

وذهب بدر إلى الأمير عبد الرحمن وأخبره الخبر، فألزم بدرا الخروج معه وقواه بعزمه، وسار بدر بمن معه، وتم الأمر كما أرادوا، فدخلوا وأغلقوا الباب وبقي الفرسان الذين ليسوا على الطاعة خارج السور ويبلغ عددهم نحو ألف، وعندما سمعوا بالخبر عادوا إلى المدينة لدخولها فوجدوا الأبواب مغلقة، فانتظروا يومين حتى تم تولي أهل الطاعة أمن المدينة، وأمر بدر الحاجب بفتح أبواب المدينه ليلاً حتى يذهب الفرسان إلى منازلهم دون أن يعرفهم أحد حتى لا يروا مكروهاً فيما بعد.

وهكذا يستمر التوفيق حليف عبد الرحمن الناصر دون عناء كبير حتى في فتح المدن الكبيرة مثل إشبيلية.

وساء محمد بن مسلمة ما فعله غريمه أحمد بن مسلمة برغم أنهما أبناء عمومة فحاول النكوص فلم يفلح.

وحدثت مأساة من مآسي الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر وهي وقعة «بابرة» بين «أردون بن أدفوتش» ملك الجلالقة وبين المسلمين الذين في «بابرة» وكان واليها مروان ابن عبد الملك بن أحمد، انهزم فيها المسلمون بعد أن أبلوا بلاءً حسناً، فقتل مروان في مسجده، وسبي جميع نسائه وولده وأهله، وأصيب بها من السبي ما نيف على الأربعة آلاف من النساء والولدان.

ومـن المأسـاة إلى التوفيق، فقد وجد غريمه اللدود عمر بـن حفصون أن لا سبيل إلى مواصلـة الانشقـاق بعد فشلـه المتواصل وسقـوط الحصون في يد عبد الرحمـن الناصر، ووجـد أنه من الأجدر له ولأسرته العودة إلى الطاعة لا سيما أنَّ ذلك تم قبل وفاته بثلاث سنوات، مما يمكن معه القول: إنه قد أحس بقرب أجله أو إنَّ مرضاً قد ألمَّ به فنظر بعين البصير المتعامل مع الواقع، والذي ينظر إلى مستقبل أهله وأعوانه.

وعندما عزم علـى الطاعة، رأى أن يذَكِّرَ الأمير عبد الرحمن الناصر بموقفه من أبيه قبـل قتله، وأن يجعـل ذلك ركيزة حديثـه لشفعائه، وكان طبيب الأمـير وحاجبه الوجهة التـي رغب عمر بن حفصون في طرقها لتوصيل رسالتـه إلى الأمير وذلك لسابق صداقة معهم،فتم ذلك، وفرح الأمير بالخبر وتم له ما أراد. وبعد مدة هلك عمر بن حفصون بعد أن ظل مناوئاً لأمراء بني أمية قرابة ثلاثين عاماً.

مأساة كبيرة عاشتهـا الأندلس وذلك بهزيمة المسلمين في موقعة غزوة الخندق، وهي الغـزوة التي خـرج فيها الأمير عبد الرحمن الناصر بنفسه لقتـال أهل جليقية فكاد يلقى حتفـه، فكانت سبباً في تغير إستراتيجية الأمـير عبد الرحمن تغيراً كاملاً حيث لم يخرج بعدهـا لحـرب قط، بل يرسل قادته للقيـام بالغزو، ورد العدو، كمـا كانت سبباً في تحول الأمـير إلى الاستمتاع ببناء القصـور كقصر الزهراء والركون إلى الدعـة، وأيضاً كانت سببـاً في تسليمـه كثيراً من الثغور إلى أكابر ساكنيها ووراَّثهـا من الأجداد والآباء مكتفياً بطاعتهـم له وإرسالهم الجباية، تاركا لهم إدارة مطلقة لتلك البلاد، مثل آل نجيب، وآل ذي النـون، وآل زروال، وآل غزوان، وآل الرزيـن، وآل الطويل، واكتفى بإرسال العون لهم عند الحاجة وتركهم شوكة في خاصرة عدوه يكتفي بهم شره ومكره.

وكانت هذه السياسة نواة لحكام الطوائف فيما بعد حيث عظم شأنهم، وازداد نفوذهم، وكثر أتباعهم، وأصبح من العسير نزولهم طواعية عما هم فيه من الجاه والمال والسلطان.

وحدث آخر لم يمتد أثره كثيراً غير أنه جدير بالتنويه، فالأندلس كانت موحدة المذهب يعتنـق أهلها مذهـب مالك، وإذا بدعوة جديدة تحط رحالهـا في هذه الأرض الغائبة عن فـتن المذاهب، وهي دعوة تدعو إلى مذهب المعتزلة من الجدل والتأويل إضافة إلى الزهد والتقشف، وقد حمل لواءها عالم متحدث اسمه محمد بن عبد الله بن مسرة.

قال عنه ابن حيان: «كان مذهب الظنين المرتاب المرائي بالعبادة، المنطوي على دَخَل السريرة، محمد بن عبدالله بن مسرة، الرابض للفتنة، دبَّ في الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد وأبداه من الورع، وتشدد في المكاسب، وأيأس من التجاوز، وأوحش من الناس، وَأكثَر من الانتباذ عنهم، وقد أوتي من عذوبة الكلام، ومتانة الحجاج، والغوص على دقيق المعاني، والافتنان على ضروب العلوم، ما يستلب منه القلوب، ولا يعيبه عنه الصواب».

ولم يلبث دعاته مع انتشارهم في البلاد أن تلبسوا بعده بما أوعزهم من مكنون علمه، وأخذ عليهم من بيانه، وصغت إليه أفئدة جماعة من الناس من خاصة وعامة أذاعوا سرّاً وأفشوا من مذهبه، فكثر القول في شأنه وشيم الخلاف من تلقائه فذُعِرَ له أهل السنة من أهل قرطبة وتوقعوا له البلية.

ولم تستمر هذه الدعوة طويلاً حيث كثر الإلحاح على الأمير عبدالرحمن من قبل العلماء، فحد من انتشار تلك الدعوة بعد موت صاحبها بعشرين عاماً.

وظهرت أيضاً الدولة الفاطمية في المشرق، فاستغلها الطامعون في الحكم أداة لنيل المرام، وكان الأدارسة في المغرب أصحاب الإمارة فيه، ففرع سار مع الدعوة الشيعية، وفرع نأى بنفسه عنها وانحاز إلى بني مروان نكالاً ببني عمه.

وتحدث ابن حيان عن عبيد الله الشيعي فقال في حقه: «فأشاع الفساد، فهوى إلى دعوته الضالة أكثر هؤلاء الأمراء الأدارسة نصراً للعصبية، وإغماضاً عن الدنية، وإبعاداً في الأذية، وانحرافاً عن هوادة بني أمية للأحقاد القديمة على علم منهم بما يخبئونه من الجراية، استهدف بذلك بعضهم إلى الناصر لدين الله، فاكتسب منه ومن ولده بعده أحقاداً موبئة جرَّتْ عليهم بعد حين، فأحلت بهم الفاقرة.

وناقضهم فيه يومئذ ابن عمهم إدريس بن إبراهيم السليماني الحسني أمير أرشقول من أرض العدوة بالانحراف انعطافاً، وبالتطابق وصالاً، وكاتب الأمير عبدالرحمن الناصر، فقال: قد انتهى إلى أمير المؤمنين سيدي مباعدتي لكلب السوء اليهودي الخنزير، المبدل لدين رسول الله ﷺ المعلن الكفر الجاحد للتنزيل، وقيامي مع ابن خزر ولي أمير

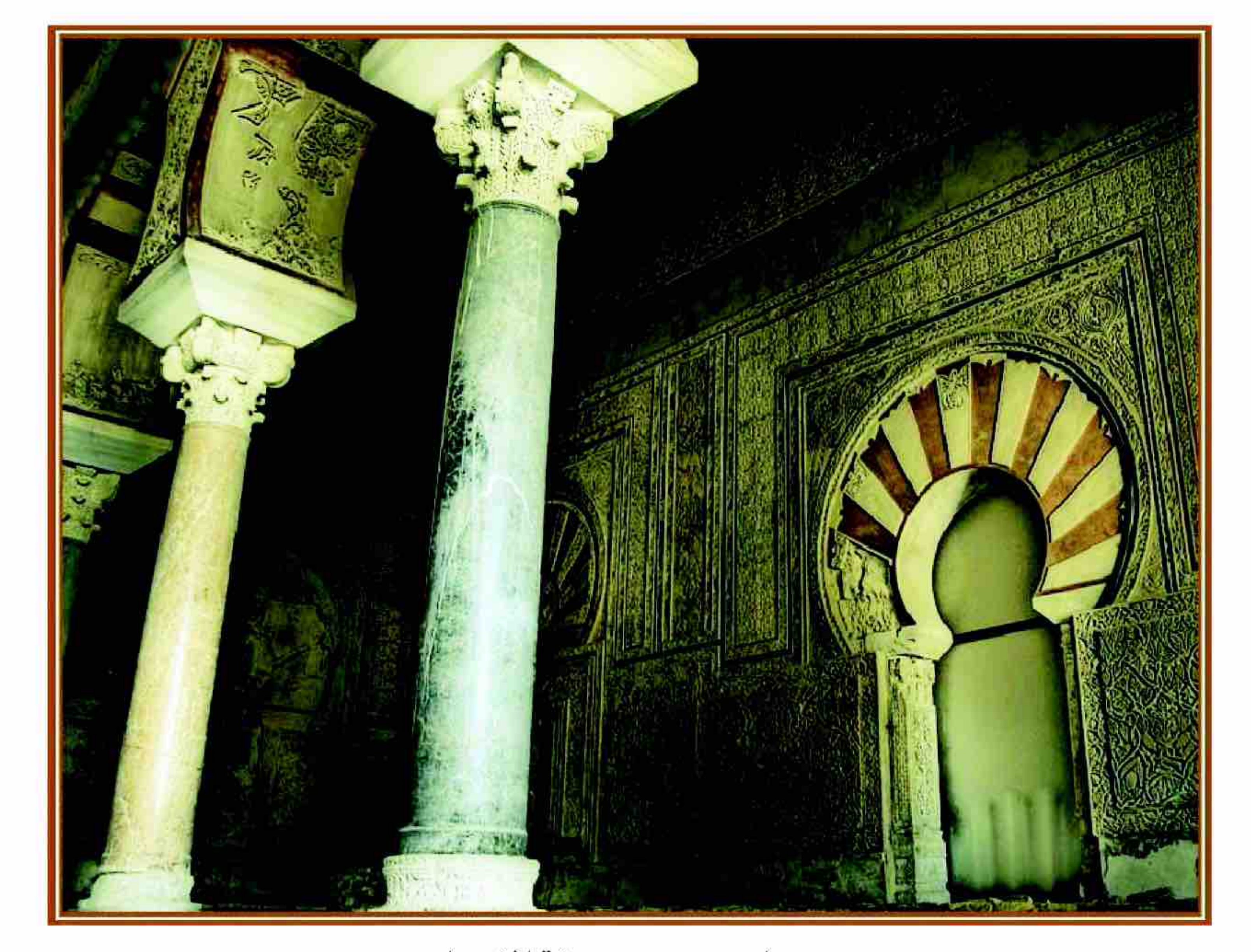
المؤمنين عليـه، وخروجي عن جميع الحسنيين قومي في منابذته، واجتناب طرائقه، وأني لم أدخـل له قط مدخلاً، ولا أقمت له عندي عَلَمَاً، مـع تحسبي له ونكايتي لشيعته، وقتلي لرجالـه، ومقتـي لـذوي محبته، وأرجو عنـد قيامي بدعـوة الإمام سيـدي -أعزه الله-، ونهوضي برايته، أن تكون كلمتي العليا، ويدي الطولى، بنعمة الله ومنته».

موقف بعض من الحسنيين الأدارسة من موالاة عبيد الله الشيعي كان انتقاماً وعصبية، وموقف بعضهم الآخر الموالي لعبدالرحمن الناصر كان تملقاً ونفاقاً وطلباً للدنيا، ومثلهم كان كثير من المسلمين، وبمثل هذه المواقف ولهذه الغايات ضاعت الأندلس.

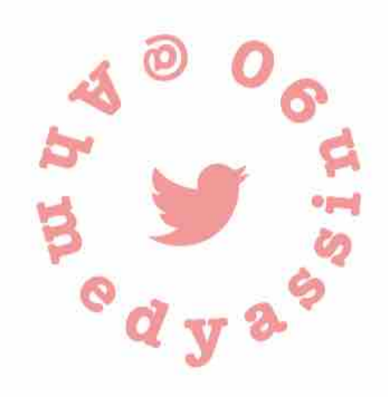




مدينة الزهراء: المدينة التي بناها الخليفة عبدالرحمن الناصر
وطمست معالمها في عهد أحد أحفاده، وهو الخليفة ابن عبدالله المستكفي.



محراب مسجد مدينة الزهراء.


@Ahmedyassin90

الحكَم بن عبدالرحمن الناصر (المستنصر)

الحَكَم أمه أم ولد اسمها «مرجانة»، وهي المرأة التي نالت مالم ينله غيرها من زوجات الملوك للقصة المشهورة عنها مع ضرتها القرشية.

تولى الحُكْم بعد وفاة أبيه وعمره نحو ثمانية وأربعين عاماً، ويقال: إن والده قد ولاَّه العهد منذ أن كان عمره ثماني سنوات ولم يتزوج مدة حكم أبيه، ويقال: إن والده كان يغار عليه ويأبى أن يشاركه أحد فيه، حيث كان يسكنه معه في قصره مع أصغر أبنائه المغيرة، بينما كان لأبنائه الآخرين وعددهم أحد عشر قصور أخرى.

ولم يشهد عهده مآسي يمكن ذكرها في هذا الموضع، فقد أورثه والده إرثاً عظيماً مستتباً لم ينغص عليه فيه سوى وصول الدعوة الفاطمية إلى المغرب الأقصى وخشيته من ولوجها إلى ما تحت سلطانه، وبعض الحروب في الشمال، وكان من خير حكام بني أمية علماً وعدلاً وخلقاً، وأورد المقري في نفح الطيب ما ذكره المؤرخون بحقه فقال: «إنه كان حسن السيرة، مكرماً للقادمين عليه، جمع من الكتب ما لا يعد ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها أربع مئة ألف مجلد، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها، وكان عالماً نبهاً صافي السريرة، وكان ذا غرام بالكتب، قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره، وجمَّت استفادته، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب نسيج وحده، وكان ثقة فيما ينقله». وكان له شعر مثل قوله:

إلى الله أشكو من شمائل مترف	علي ظلوم لا يدين بما دنتُ
نأت عنه داري فاستزاد صدوده	وإني على وجدي القديم كما كنتُ
ولو كنت أدري أنَّ شوقي بالغ	من الوَجْدِ ما بُلِّغْتُهُ لم أكن بنتُ

وكان يقضي مظالم الناس، ويردع الولاة عن ظلمهم، ويتحرى العدل بسريرة صافية نقية، وقال صاحب الجذوة: إنه قد رام قطع الخمر من الأندلس وأمر بإراقتها وتشدَّد في ذلك وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع البلاد، فقيل له: إنهم يعملونها من التين

وغـيره فتوقف عن ذلك، ولقد قال أحد الشعراء وهـو يوسف بن هارون الكندي قصيدته المشهـورة متوجعـاً فيها لشاربهـا، وفي القصيدة يذكّر الشاعر الحَكَـم المستنصر بقصة أبـي حنيفة مـع جاره اليهودي الذي كان يشرب الخمر ليله كلـه وأبو حنيفة قوّام في الليل يعبدالبـاري ويتضرع إليه مصلياً وداعياً وقارئاً للقـرآن، وكان اليهودي إذا أخذت الخمر منه كل مأخذ تمثل بقول الشاعر العرجي:

أضـاعـوني وأي فـتـىً أضـاعـوا	لـيـوم كـريـهـة وسـداد ثغـر

وعندمـا قام الإمام أبو حنيفة كعادته آخر الليل للعبـادة والصلاة، لم يسمع جاره الذي اعتاد على سماع صوته، وسأل من عنده: مافعل جارنا هذا الذي يغني في كل ليلة؟ أهو مريض أم غائب؟ فقالوا: إنه مسجون، فقال: ومن سجنه؟ فقالوا: خرج في الليل لبعض حاجته فلقيه أصحاب عيسى بن موسى صاحب الشرطه فأتوا به، فأمر بسجنه، فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابـه، وركب دابته، وقصد عيسى بن موسى في بيته، فلما أُعْلِمَ عيسى بن موسى بمكان أبي حنيفة خرج يتلقاه مسرعاً، وبالغ في تكريمه وبره، وسأله عن حاجته فقال له: لي في سجنك جار اسمه عمرو، فقال عيسى بن موسى: يطلق كل من كان اسمه عمرو بسجني من أجل جار الفقيه، فأطلقه وخلقاً كثيراً معه، فأتى الرجل أبا حنيفة يشكر له، فلما وقعت عينه عليه قال له: أضعناك؟ قال الرجل لا والله بل حفظت الجوار حفظك الله.

وفي هذه القصة قال الشاعر الكندي:

بخطب الشاربين يضيق صدري	وتـوجِعُـني بليتـهم لعمري
وهل هم غيرَ عشّاقٍ أصيبوا	بفقـد بائـب ومنـوا بهجر
أعُشّـاقَ المدامـة إن جزعتم	لفرقتها فليس مكان صبر
سعى طلاَّبكم حتى أريقت	ومـاءٌ فوق وجه الأرض يجري
تحريتم بـذاك العدل فيها	بزعمكم فإن يك عن تحري
فإنَّ أبا حنيفة وهو عدل	وفرّ عن القضاء مسير شهر
فقيـه لا يدانيـه فقيه	إذا جاء القياس أتى بُدرٍّ

وعاد المسلمون إلى الاقتتال كما سنرى فيما بعد لينقلوا بذرة العلم ويتأخروا في زراعتها فينالها غيرهم، لتزرع هناك وتعطي ثماراً يانعة استمروا في قطفها حتى يومنا هذا.

وقد كان الخليفة الحكم المستنصر عندما كان شاباً يعيب على بني العباس توليهم العهد لصغار السن، وبعدما أصبح كهلاً تاق إلى أن ينجب ولداً فأنجبت له «صبح» النافرية ولداً اسمه عبدالرحمن ما لبث أن مات ثم ولدت هشاماً فكان ولياً للعهد ولقبه بالمؤيد، وبعد أن بلغ سن التعليم تعاقب عليه عدد من الأساتذة المبرزين مثل يحيى بن يحيى والزبيدي والقسطلي.

قال ابن حيان في الحكم المستنصر: «إنه مع رجاحة عقله، كان ممن استهواهم حب الولد وأفرط فيه، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده، في سن الصبا دون مشيخة الإخوة، وفتيان العشيرة، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة، فرط هوى ووهنة، انتقدها الناس على الحكم وعدوها الحانية على دولته، وقد كان يعيبها على بني العباس من قبله فأتاها مختاراً، ولا راد لأمر الله».

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل بشلل أقعده عن الخروج والحركة، وظل لا يفارق فراشه وهو يعاني من الفالج، وكان الأمر والنهي بيد وزيره جعفر بن عثمان المصحفي.

لقد مهد الحكم المستنصر لزوال حكم آبائه من خلال توليته ولاية العهد لابنه الصغير مع علمه بدنو أجله، حيث أصيب بالفالج مما ترك فراغاً كبيراً بعد وفاته استغله القائمون على شؤون القصر مما ستكشف عنه الأحداث اللاحقة.



هشام المؤيد بالله

تـوفي الحكم المستنصـر بعـد أن استوثق من ولاية العهـد لابنه الصبـي هشام الذي لم يتجـاوز الثانية عشرة من عمره، وبهـذا ينقلنا التاريخ إلى مرحلة من مراحل الأندلس حبلت بالكثير من التغيرات الحقيقية لوجه تاريخ المسلمين هناك.

ولا يمكننـا أن نُسمِّـي عهد هشام المؤيد بالله عهد مآس وخـراب ودمار، غير أنه عهد مكر وخداع وتنافس بين أصحاب النفوذ ذهب ضحيته من ذهب من سراة القوم وكبارهم لتدين للمتغلب فيهم، وهو توطئة لزوال حكم بني أمية وظهور دويلات الطوائف.

كما أن قاطنة الأندلس من العامة سلمت من صلا ناره، كما حفظ الله أرض الأندلس في هذا العهد من الضياع بل وطئت حوافر فرسان المسلمين أرضاً لم تطأها من قبل.

لقد أخفى الخصيان والفتيان في القصر بقيادة فائق وجؤذر موت الخليفة المستنصر؛ حتى يمكنهم تدبير أمرهم قبل أن يصل الخبر إلى القادة والعامة، وأجمعوا أمرهم على تنحيـة ولي العهد هشام وتولية عمِّه المغيرة، معتقديـن أنَّ أمراً كهذا سيزيد من نفوذهم ويحد من نفوذ منافسيهم من الوزراء وغيرهم.

وكان المستنصـر قـد جعل أم ولده ومحظيتـه «صبح البافارية» وصيـة على ابنها ولي العهد، وكان الوزير آنذاك هو الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ففاتح الخصيان فائق وجـؤذر الحاجب جعفر فيما همّوا به من تنحية ولي العهد وتولية عمَّه، فتظاهر الحاجب بقبولـه رأيهـم واستحسانه وهو يبطن ما لا يظهر، وخرج مـن القصر وأغلقه، واستدعى علـى عجـل عدداً من خاصة القصـر المؤثرين ممن يثق بهم، منهـم محمد بن أبي عامر وزيـاد بن أملح وغيرهم من القادة، وشرح لهم ما عزم عليه الصقالبة وبيَّن لهم أنَّ فعلا كهذا ستكون له تبعات خطيرة أهمها استفراد الصقالبة بالنفوذ.

وتم تـداول الأمر وقادهم الرأي إلى التخلص من المغيرة بقتله، فانبرى محمد بن أبي عامـر للأمر وكان مديراً للشرطة آنذاك، وسار معه عدد من الجند الموثوق بهم وأحاطوا بقصـر المغيرة، وأبلغه نبـأ وفاة أخيه الخليفة وجلوس ابنه هشـام ولي العهد على كرسي

الحكم وأنه جاء ليتبين موقفه من الأمر، فما كان من المغيرة إلاَّ أن بيَّن لهم أنَّه يوافقهم فيما ذهبوا إليه وأنه مطيع لكل أمر يرونه في ذلك السبيل، غير أنَّ جواب المغيرة لم يمنع محمد بن أبي عامر عما همَّ به، فهو قاتله لا محالة، ففعل ضارباً تضرعه بحقن دمه عرض الحائط، فقتل المغيرة وعمره لم يتجاوز سبعة وعشرين عاماً حتفاً أمام زوجته وأولاده، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ودفن في مكانه.

أما الفتيان فما كان منهم إلاَّ التظاهر بالرضا والاستبشار بما وقع، وبهذا أصبح القصر ذا جناحين، جناح الأحرار بقيادة الحاجب جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر مدير الشرطة، وفي الجناح الآخر الصقالبة بقيادة فائق وجؤذر، وكلّ منهما يتوجس خيفة من صاحبه.

واختفى أثر الأطراف الأخرى من بني أمية الأقربين الذين يمكنهم منازعة الجناحين النفوذ، وبقيت «صبح» البافارية أم الخليفة والوصية على ولي العهد تستمد نفوذها من موقعها الشرعي، وكانت هذه المحظية البافارية فائقة الحسن والجمال، شغف بها الحكم المستنصر وتملكت فؤاده ومن خلال فؤاده ملكت المال والجاه والنفوذ والسلطان، فأصبح لا يرد لها طلباً، ولا ترفض لها شفاعة، حتى إنها كانت تعيِّن الوزراء والحجاب ورجالات الدولة متخطية بذلك حدود القصر، فكان الحاجب جعفر المصحفي وابن أبي عامر مدير الشرطة والصقالبة يتسابقون على استرضائها بأي وسيلة كانت، وبعد موت المستنصر وتولي ابنها الحكم أصبحت أكثر نفوذاً وأعظم أثراً في بادىء الأمر؛ بسبب صبغتها الشرعية، حتى إذا ما استوت على الجودي واستأثر ابن أبي عامر بمقاليد الحكم أطفأ نور سلطانها تحت شعاع شمسه، وهذا ما ستبينه الأحداث التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

قلنا: إنَّ الحُكمَ بصفته الشرعية أصبح في يد خليفة صبي ليس له من الأمر شيء، وظهر على السطح أربع قوى كل منها يرتاب من الآخر ويتحين الفرصة للاستئثار بالنفوذ، صبح الوصية على ولي العهد، والصقالبة، والحاجب جعفر المصحفي ومن والاه، ومحمد ابن أبي عامر مدير الشرطة، وكان لا بد من خروج بعض من هذه القوى بسبب المطامح والتنافس بينها. فتعالوا بنا نبحر في خضم هذا الصراع على النفوذ المليء بالمكائد.

كان الصقالبة وعددهم نحو ألف رجل بقيادة فائق وجؤذر لايزالون قوة لايستهان بها ، فأقدم الحاجب جعفر المصحفي على خطوة في سبيل إزاحتهم عن ساحة النفوذ ، فمنعهم من دخول القصر من خلال الباب الخاص بهم وأجبرهم على الدخول من الباب الذي يدخل من خلاله غيرهم من عامة الناس، وطلب من محمد بن أبي عامر ضمهم إلى حاشيته، ففعل واستطاع بدهائه ترويضهم ليكونوا عوناً له، كما استمال بعضاً من البربر الذين كانوا يمالِئون الحاجب المصحفي مستقوياً بهم لمستقبل يروم إليه، وكان جوده وكرمه وإغداقه الأموال عليهم سبباً في انصرافهم عن الحاجب المصحفي الذي كان شحيحاً حريصاً على صيانة بيت المال.

ووجد الصقالبة أنفسهم وقد سحب البساط من تحتهم ، فأجمعوا كلمتهم حول واحد منهم يقال له درِّي، لكن الحاجب مع ابن أبي عامر ألزماهم دورهم واصْطُفِيَتْ أموالهم وقُتِلَ منهم خلق كثير، فانزاح ركن من الأركان الأربعة التي كانت مصدر النفوذ .

استغل النصارى انشغال المسلمين بالتنازع حول السلطة، فهاجموا بعض حصون المسلمين، فلم يجد الحاجب جعفر المصحفي أنسب لقيادة الجيش من محمد بن أبي عامر؛ حتى لا تدخل قوة أخرى تزاحمه نفوذه.

وسار محمد بن أبي عامر بالجيش الذي جهزه الحاجب جعفر المصحفي، ونشبت معركة بين الطرفين انتصر فيها ابن أبي عامر نصراً مؤزراً، وعاد حاملاً معه الغنائم والسبايا ، فكانت هذه المعركة عاملاً من عوامل بزوغ نجمه وثقة الناس فيه.

ومرة أخرى تنبعث الأحداث بنفحاتها العطرة على محمد بن أبي عامر، فقد لام الحاجب جعفر أحد الفرسان الشجعان والقادة الكبار وهو القائد غالب بن عبدالرحمن قائد الثغر الشمالي، متهماً إياه بالقصور في رد الأعداء والذود عن البلاد، فاستغل محمد ابن أبي عامر الوحشة بين الرجلين وأراد استقطاب غالب بن عبدالرحمن إليه فسعى إلى «صبح البافارية» الوصية على العرش في شأنه، واقترح عليها تعيينه في منصب «ذي الوزارتين» ليضعف بذلك نفوذ الحاجب جعفر وتم له ما أراد، ثم ذهب الاثنان معاً إلى أحد الثغور فغنموا الغنائم وحملوها مع السبايا إلى قرطبة، فازداد الناس ثقة فيه وعلا كعبه، وأصبح أقرب إلى بلوغ شأوه.

وبعد وصول ابن أبي عامر إلى قرطبة أصدر أمراً من الوصية على الحكم صبح البافارية بتنحية محمد بن جعفر الحاجب من حكم قرطبة، وقد كان والده جعفر قد منحه حكم المدينة منذ عصر الحكم المستنصر، وأصْدرَ أمراً آخر بتعيين محمد بن أبي عامر في هذا المركز، فكانت ضربة أخرى للحاجب جعفر لصالح حليفه السابق ومنافسه الحالي محمد بن أبي عامر، فأصبحت المدينة والجيش في يدي ابن أبي عامر.

وجد الحاجب جعفر نفسه أقل نفوذاً لصالح منافسه، فعقد العزم على استمالة القائد غالب بن عبدالرحمن من خلال النساء وذلك بمصاهرته ونكاحه لابنته، فلعل النساء يفعلن ما عجز عنه رأيه وتدبيره، وعلم محمد بن أبي عامر بالأمر فظهر بمكره ودهائه على الساحة، وبرز في وجه الحاجب جعفر وكأنما هو شيطان يلاحقه أينما حلّ، فسار محمد بن أبي عامر واتصل بالقائد غالب بن عبدالرحمن، وذكَّره بما بينهما من حلف وصداقة وبمواقفه السابقة معه وأنه الأولى بنكاح ابنته لا سيما أنه الشاب الوسيم والأديب المفلق، فأجاب غالب سؤله، وانصرف عن الحاجب جعفر وزوج ابنته بمحمد بن أبي عامر، وكان زواجاً باذخاً سار بذكره الركبان.

وسار غالب وصهره الجديد محمد بن أبي عامر في غزوة كان النصر حليفهما فيها، وعادا بالكثير من السبايا والغنائم، فقامت «صبح البافارية» بترفيعه إلى ذي الوزارتين أسوة بصهره.

أخذت مقاليد الأمر والنهي تتجمع في يد محمد بن أبي عامر، وأصبح الحاجب جعفر يدرك مآله برغم منافقة ابن أبي عامر له، وفي وقت رآه محمد بن أبي عامر مناسباً، قام بالترتيب مع «صبح البافارية» الوصية على العرش فصدَّر أمراً من الخليفة بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي من منصبه والقبض عليه وعلى أولاده وأعوانه، كما أخذ في تدقيق محاسبتهم، واصطفاء أموالهم، وقتل من رأى فيه الطموح والنباهة منهم، ثم زج بالحاجب جعفر في السجن مدة من الزمن ثم أخرجه وأبقاه محاصراً في منزله، ثم أعاده إلى السجن مرة أخرى، وأصابته الفاقة حتى باع جُلَّ ما يملك حتى بيته الذي كان يقطنه، وتفرق عنه الأخِلاَّء، وتبرأ منه الأصدقاء، فكأن قد سبق زمنه فقال في نفسه

ما قال ابن زيدون من بعده:

أنا حيران وللأمر ... وضوح والتباس
ما ترى في معشر حالوا ... عن العهد وخاسوا
ورأوني سامرياً ... يُتَّقى منه المساس

وعاش عدة أعوام كمداً ذليلاً مهاناً بعد عزّ عاش فيه، ورغد عيش نال منه أجلَّه.

تحدث المقري في نفح الطيب عن الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي فقال: «قال الفتح في حق المصحفي: إنه تجرد للعليا، وتمرد في طلب الدنيا، حتى بلغ المنة، وتسوغ ذلك الجَنَى، ووصل إلى المنتهى، وحصل على ما اشتهى، دون مجد تفرَّع من دوحته، ولا فخر نشأ بين مَغْدَاه وروحته، فسما دون سابقة، ورمى إلى رُتْبَة لم تكن لنفسه مطابقة، فبلغ بنفسه، ونزع عن جنسه، ولم يزل يستقل ويضطلع، وينتقل من مطلع إلى مطلع، حتى لاح في أفق الخلافة، وارتاح إليها بِعِطْفِه كنشوان السُّلافة، واستوزره المستنصر، عنه كان يسمع ويبصر، وحجب الإمام، وأسكب برأيه الغمام، فأدرك لذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائل والشَّرَك، فاقتنى اقتناء مدخَّر، وأزرى بمن سواه وسخر، واستعطفه ابن أبي عامر ونجمه غائر لم يَلُح، وسره مكتوم لم يبح، فما عطف، ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف، وأقام في تدبير الأندلس ما أقام وبرهانه مستقيم، ومن الفتن عقيم، وهو يجري من السعد في ميدان رحب، ويكرع من العز في مشرب عذب، ويَفُضُّ ختام السرور، وينهض بملك على لَبَّتِهِ مزرور، وكان له أدب بارع، وخاطر إلى نظم القريض مسارع، فمن محاسنه التي بعثها إيناس دهره وإسعاده وقاله حين ألهته سلماه وسعاده، قوله:

لعينيك في قلبي علي عيون ... وبين ضلوعي للشجون فنون
نصيبي من الدنيا هواك، وأنه ... غذائي ولكني عليه ضنين

وكان شاعراً جزلاً قال قصيدة رائعة وهو في السجن منها:

صبرت على الأيّام حتى تولّت ... وألزمت نفسي صبرها فاستمرّت
فوا عجباً للقلب كيف اعترافه ... وللنّفس بعد العزّ كيف استذلّت
وما النّفس إلاّ حيث يجعلها الفتى ... فإن طمعت تاقت وإلاّ تسلّت
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً ... فلمّا رأت صبري على الذُّلِّ ذلّت
وقلت لها: يا نفس، موتي كريمةً ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولّت

ولقد مات -رحمه الله- في سجنه مسموماً، فيما قال آخرون: إنه قد قتل في سجنه، أما ابن حيان فإنه عزا ما حل به إلى انتقام الله منه لقتله المغيرة عم الخليفة هشام وأخ الخليفة المستنصر ولي نعمته.

وبوفاة الحاجب جعفر سقط ركن من أركان الحكم، ليحوز محمد بن أبي عامر على مفاتيح النفوذ، ويملك زمام الأمور، واتجه بعد ذلك إلى التخلص من كل ذي جاه، واستئصال شأفة من تتوق نفسه إلى الحكم من بني أمية، ودك حصون القوة عند كل عربي. فمن هو ياترى محمد بن أبي عامر؟

كان حميرياً من اليمانية وقبيلته مغافر المشهورة، دخل جدّه عبدالملك إلى الأندلس مع طارق بن زياد ووفد محمد بن أبي عامر إلى قرطبة من قرية تركش، وتأدب بها ثم افتتح دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يعنّ له كتب من الخدم والمرافقين للسلطان، إلى أن طلبت السيدة صبح أم المؤيد من يكتب عنها، فعرَّف به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فترقى إلى أن احتاجت صبح البافارية زوجة الحكم إلى من يكتب لها رقعة، فكان موجوداً آنذاك فكتب لها فأعجبها أدباً وهيئة وهو الشاب الذي لم يبلغ السابعة والعشرين عاماً، فأشارت إلى زوجها الحكم المستنصر به، وكان كهلاً أشرف على الستين، بينما مازالت شابة في مقتبل العمر، ورغَّبت زوجها في تشريفه بالخدمة، وكان الحَكَمُ شغوفاً بها لايرفض لها شفاعة فولاه قضاء بعض المواضع، فظهرت منه نجابة واستمال قلبها بما يهديه لها من التحف والخدمة ما لم يتمكّن لغيره، ولم يقصر - مع ذلك - في خدمة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي.

ويبدو أن محمد بن أبي عامر قد سحر «صبح البافارية» زوجة الحكم المستنصر بجمال محياه، وزهو شبابه، واكتمال هيئته، ودماثة خلقه، وبراعته في الأدب، ولباقته في الحديث، وزاد على ذلك تودده إليها بإرسال نفيس الهدايا وجميل التحف.

فازدادت به شغفاً واستحوذ على قلبها، وكان حسنه وأدبه مضرب المثل لدى نساء القصر كافة، وكان الخليفة المستنصر يراقب سحر هذا الشاب لنساء القصر، فقال يوماً لأحد ثقاته: «ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا، حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف

وكانت أمه «صبح» هي التي أظهرت المنصور بن أبي عامر، ويقال: إنها أرضعته، ولهذا كان يقال له: ظئر هشام، فلما تغلب ولم يرع صبحاً قالت لابنها: أما ترى ما يصنع هذا الكلب؟ فقال: دعيه ينبح لنا، ولا ينبح علينا.

ومن تخلفه أنه رام الصعود إلى برج يتفرج فيه، فنزل في دهليز تحت الأرض، فلما طال عليه النزول، وأظلم المكان، قال للذي معه: يا إنسان! أين أعلى البرج؟! قال: فقلت: يا مولاي، ليس هذا بابه، وإنما هذا باب الدهليز الذي تحت الأرض. قال: صدقت. وإلا لو كان باب البرج كان يكون فيه خابية الماء! (زير الماء) وإنما جعل الخابية شرطاً، لأنه كان له برج يعتاد صعوده، وفي بابه خابية.

ونظر يوماً إلى بغلة كانت من تحف الملوك، وقد جعل على فرجها ما جرت به العادة، خوف تعدى السواس عليها. فقال: لم صنعت هذه الأخراس على حِرِّ هذه البغلة؟ فعرَّفه بالعلة، فقال: فاجعل على حجرها (دُبرها) أخراساً أخرى، فقد يكون في السَّواس لاطَة (يحب اللّواط)! قال: فوالله ما قدرت على أن أملك الضحك، فخالسته، وتحملت على تقطيعه وستره، ثم قلت: يا سيدي، البغلة إذا خِيطَ فرجُها قدرت على أن تبول منه، وكيف تصنع إذا خيط حجرها (دُبرها) بما يخرج منه، قال: صدقت، فاجعل على حراستها شاهدين عدلين يرقُبان ذلك الموضع، فقلت له: سأُكلِّم الحاجب، قال: وانفصلت إلى ابن أبي عامر، لأطرفه بما جرى، فلما أخبرته سجد، وجعل يكرر حمد الله. قال: ثم قال لي: أتعلم أنَّ في هذا الذي أنكرته صلاح المسلمين؟! وذلك أن السلطان الذي تصلح معه الرعية اثنان: إما سلطان قاهر ذو رأي، عارف بما يأتي ويذر، مستبد بنفسه، وإما سلطان مثل هذا تدبر الدنيا باسمه، ولا يخشى المتفرغ لحراسة سلطانه غائلة؛ والمتوسط يُهلِك ويهلَك.

ودخل عليه يوماً أحد الفقهاء؛ ليستفتيه في مسألة تختص بحرمه، فلما فرغ من سؤاله، قال له: يا فقيه، إنا في هذا البستان نعرض لمشاهدة هذه الطيور في مُسافَدتها (تزاوجها)، أتراها تحسب علينا قيادة؟ قال: فقلت له: لا، يا أمير المؤمنين، فقال: الحمد لله وتهلل وجهه، وقال: لقد أزلت عني غماً تراكم في صدري! ثم أمر خادماً واقفاً على

رأسه أن يأتيه بسَفط (كِيس)، فلما كشفه إذا فيه حصى كثير، فقال: كل حصاة منها مقابلة لمجامعة بين طوير، ونحن نسبح الله كل يوم بهذا العدد، ليكفر عنا تلك الهنات، فقلت: الأمر أهون فقد رخص الله لأمير المؤمنين في ذلك.

وكانت له جارية من أحسن ما تقع عليه العين، فلما أراد أن يستفضَّها وجدها ثيباً، فسألها، فقالت: بينما أنا ذات يوم راقدة تحت الشجرة الفلانية في البستان، وإذا بمن نزه الله ذكره عن هذا المكان قد جامعني واستفضني، فاستيقظت، فوجدت الدم على رجلي، وخفت الفضيحة، وكتمت ذلك. فبكى هشام المتخلف، وقال: أبلغت أنا من العناية عند الله أن يأتي من أتاك إلى بستاني ويستفض جاريتي؟ أنت حرة لوجه الله! وأمر في الحين أن تبنى بذلك الموضع رابطة يتعبد فيه. ووجد بخطه على هذا البيت:

ترى بَعْر الآرام في عرصاته وقيعانها كأنه حب فلفل

هذا وقت كان بَعْرُ الغزلان فيه ييبس للشمس بدل الزبيب، ويؤكل، فسبحان الذي عوضنا منه بالزبيب الطيب ببركة نبينا محمد ﷺ».

وحاول ابن أبي عامر الحجر عليه ومنع الناس من الاتصال به، إما لغاية في نفسه وهو الأكثر احتمالاً، أو لفساد خِلالٍ في الخليفة خشي افتضاحها.

وقد وصفه ابن الخطيب، فقال: «ولما كان هشام مندرجاً في طي كافله الحاجب المنصور بحيث لاينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور قليل أو كثير، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولاً بالترهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء، ومحادثة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات، المنسوبات».

قال أحد شعراء ذلك العصر يصف الخليفة هشام وأمه «صبح البافارية» والقاضي في ذلك الوقت ابن السليم، ومنه:

اقترب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك

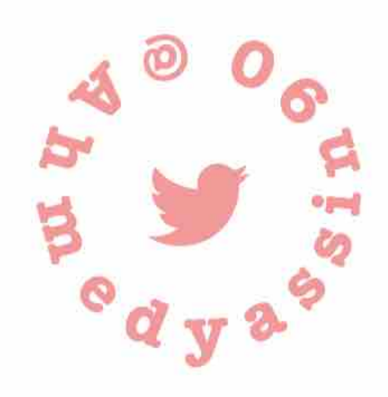
خليفة يلعب في مكتب أمُّه حُبْلَى وقاضٍ.....

والغريب في الأمر أنه لم يخرج أسد من أسود بني أمية من عرينه ولم يثب أحدهم فوق سور شجنه فدانت الدنيا لابن أبي عامر، قال الشاعر:

أبني أمية، أين أقمار الدجى منكم؟ وأين نجومها والكوكب؟

غابت أسود منكم في غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب




@Ahmedyassin90

الفصل الثالث

دولة الحاجب المنصور ابن أبي عامر

- الحاجب المنصور.
- عبدالملك المظفر بالله.
- عبدالرحمن بن أبي عامر المنصور (شنجول).



الحاجب المنصور

لم يدر بخلَد ابن أبي عامر في يوم من الأيام أن يصل إلى ما وصل إليه من جاه وسلطان، لكنه توفيق العلي القدير.

وقد أورد صاحب كتاب «المعجب» قصة ظريفة عن محمد بن أبي عامر مع أحد أصدقائه حدثت عندما كان كاتباً صغيراً عند باب القصر في قرطبة فقال:

كان محمد بن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل، فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلتُ عنه، فقلت له: ما أراك نمت الليلة. قال: لا، قلت: فما أسهرك؟ قال: فكرة عجيبة، قلت: في ماذا كنت تفكر؟ قال: فكرت إذا أفضى إلي الأمر ومات محمد بن بشير القاضي، بمن أبدله، ومن الذي يقوم مقامه؟ فجُلْتُ الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلاً واحداً. قلت: لعله محمد بن السَّليم قال: هو والله هو، لَشَدَّ ما اتفق خاطري وخاطرك.

قال الحميدي: وأخبرني الفقيه أبو محمد علي بن أحمد قال: كان ابن أبي عامر يوماً جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم: ليَخْتَرْ كل واحد منكم خطة أولِّيه إياها إذا أفضى إليَّ الأمر. فقال أحدهم: توليني قضاء كورة رَيَّة، وهي مالقة، وأعمالها، فإنه يعجبني هذا التين الذي يجيءُ منها.

وقال الآخر: توليني حسبة السوق، فإني أحب هذا الإسفنج. وقال الثالث: إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع عليَّ الذباب والنحل. مستبعداً أن يفضى الأمر إليه، بل يراه مستحيلا، فليس أموياً، أو ذو أرومة تجعله يطمح إلى الحكم. وافترقوا على هذا، فلما أفضى إليه الأمر كما تمنى بلَّغ كلّ واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب.

وقد غزا نحو سبعة وخمسين غزوة لم تهزم له راية، ولم يفل له جيش، وقد جلب البربر من المغرب للاعتماد عليهم في غزواته خوفاً من منافسة العرب لسلطانه، وكان يتولى قيادة الجيش بنفسه، قيل عنه: «إنه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من

طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صر البقاع، وتركهم أذلَّ من وتده بقاع». وقيل: «وكان متسماً بصحة باطنة واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده، وإذا ذُكِّر بالله ذكر، وإذا خُوِّفَ من عقابه ازدجر، ولم يزل متنزهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين، وكان عدله في الخاصة والعامة، وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمر مضروب به المثل». وقال عنه ابن الخطيب: «وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي لم يخلعه إلى أن وصل إلى ربه، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله، لا يفضل لذة على تدبيره، وحلاوة نهيه وأمره، فينفذ الأمور، والكأس تدور، والجبال للطرب تمور».

وقد كان يصطحب العلماء والفقهاء معه في حلِّه وترحاله، ويستزيد من زادهم، وينهل من معينهم، وكان حريصاً على الكتب والمكتبات، كارهاً لكتب الفلسفة وعلم الكلام فأمر بإخراجها من المكتبة وحرقها.

عندما أيقن أنَّ الدنيا دانت له، وأنه قد اختلى بالملك، وردع كل ذي إفك، أراد أن يصنع لنفسه قصراً فابتنى مدينة جديدة بالقرب من الزهراء سماها الزاهرة، وتسمى بالحاجب المنصور، وكان يتم الدعاء له على المنابر بجانب الخليفة.

وبعد مرور خمس سنوات أصبح يراسل «بالملك الكريم»، كما تولى ابنه عبد الملك ولاية العهد، وخصه بالحجابة والقيادة، وتفرغ للأمور الكبرى.

ولقد راودته نفسه أن يتسمى بالخلافة، لكن ابن حزم أشار عليه بالعدول عنها خوفاً من إثارة الخاصة والعامة.

ولم تكن كل أيامه سعد، فقد شابها بعض من المنغصات، فقد كان ابنه عبد الله البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً يأخذ على أبيه تقريبه لابنه عبد الملك والرفع من شأنه على حساب إخواته الآخرين، لكن ابن أبي عامر يشك في بنوة هذا الفتى لذلك لم يقلده أمراً من أموره المهمة.

وذهب الفتى إلى أحد ولاة ثغور الشمال وهو عبد الرحمن النجيبي، واتفقا على نزع الملك من المنصور واقتسامه بينهم، وانضم إليهم عبد الله المرواني حاكم طليطلة، لكنَّ المنصور استطاع استمالة ابنه بالحيلة، ووعده بالغالي والنفيس فقدم إليه، كما أنه استمال عبد الرحمن ثم قتله، أما ابنه فقد هرب مع بعض من رفاقه ولجأ إلى حاكم قشتالة، وحاصر المنصور حاكم قشتاله فنزل على طاعته وسلمه ابنه عبد الله، فقام المنصور بقطع رأس ابنه وإرساله إلى الخليفة. كما قامت حروب بينه وبين صهره وحليفه غالب بن عبد الرحمن كانت الغلبة فيها للمنصور.

وتوفي المنصور بعد أن ثبَّت حكم بني مروان الاسمي وحكمه الفعلي، ليورثه لابنه عبد الملك من بعده.

وكان المنصور يحمل معه في ضعنه وإقامته مصحفاً كتبه بخط يده، يجمع كل ما يعلق به من تراب، وقد أوصى بأن يدفن هذا التراب معه في قبره، وأن يُكفَّن بكفن كان يرافقه، داعياً ربه أن يموت مجاهداً، فحقق الله مراده فمات مجاهداً في الشمال على إثر جراح أصيب بها.

وعلينا أن نقول بحق إنَّ عصر المنصور الحاجب خال من مآسي العامة، إلا أنَّ كثيراً من الخاصة اكتوى بالكثير من المآسي، فهو عصر مآسي الخاصة، حيث قتل الكثير من سراة القوم وعلاتهم دون رحمة أو شفقة، وقتل بالظنة ولعل ذلك حيطة وحذراً.

ومأساة أخرى أصابت بنات الأحرار، فقد قَلَّ طالبهم وباروا بأيدي أولياء أمورهم، وكان الرجل يدفع المبالغ الطائلة بمن يتزوج ابنته، ومرَدُّ ذلك إلى كثرة السراري والسبايا من بلاد العجم حتى اكتظَتْ بهم البيوت، وامتلأت بهم الأسواق، وقلَّتْ أسعارهم، وسهل منالهم، فراجت مجالس اللذات وتعددت صنوف المسرات، وهُجِرت مناهل العلم، وقلَّتْ مخافة الإثم.



بوابة إحدى القصور في عصر الحاجب محمد بن أبي عامر

عبدالملك المظفر بالله

عـاد عبدالملك المظفر بـالله ابن الحاجب المنصـور محمد بن أبي عامـر إلى قرطبة وأصـدر الخليفـة أمـراً بتعيينه في منصـب الحجابة، تـاركاً لأخيه عبدالرحمـن العناية بمـواراة جثمـان والده، فتم له مـا أراد وهو في الثامنـة والعشرين من عمـره، وأمه حرة اسمهـا «الذلفـاء»، شأن والده الذي كانـت أمه حرة من بني تميـم، وتسمى «فرهة» بنت يحيى بن زكريا التميمي الذي كان يعرف بابن بَرْطَل.

استمـرت مدة حجابته نحو سبع سنوات، وكانت تسمـى بالسابع تشابهاً بسابع العروس، ولم يكن عصر مآسي على مستوى العامة، غير أنَّ هناك بعض المآسي التي أصابت بعض الخاصة.

بـدأ عصره بإسقاط سدس الجباية، فرغب فيه العامة وحسن رأيهم فيه واستبشروا خيراً بعهده، واعتمد على الصقالبة وبعض أهل الذمة إضافة إلى ركيزته الأساسيةالبربر، لاسيما مغـراوة وزناتة، فكانوا أسـاس جيشه وحرسه، واستبعد العـرب والمولدين، وكان عضـده أخـاه عبدالرحمـن «شنجول» نسبة إلى جـده لأمه سانشو، وهي بنـت ملك نافار سانشـو، قدمهـا والدهـا عروسـاً للمنصور محمـد بن أبي عامـر تقرباً إليـه، فاعتنقت الإسلام، وكانت من أحب نسائه إليه، وسماها «عيده».

واصـل عبدالملك المظفر بالله غزو الشمال مثل ليون وقشتالة، وفي أحد غزواته أصابه وجنـده رعـد وبرق وبرد ومطر شديد كاد يقضي على جيش عبدالملك المظفر بالله، فعاد دون غنائم أو سبايا، فما كان ترحيب سكان قرطبه بالقدر المأمول نظراً لقلة العائد.

كان عبدالملـك المظفـر محباً للَّهو منهمكاً في الملذات، عاشقـاً لشرب الخمر مثل أبيه، ولهذا فقد اعتمد في تدبير شؤون حكمه على خاصته وعلى رأسهم وزيره ووزير أبيه عيسى ابـن سعيد اليحصبي المعـروف بابن القطاع، فكانت مفاتيح التدبـير بيده، وقلائد الملك تحـت إدارته، وزاحمه على ما بيده أحـد الفتيان الصقالبه واسمـه طُرْفة، فكان الحسد بينهما بيناً، والمكائد ظاهرة، وكانت الغلبة لعيسى، ثم استطاع طُرفة إيغال صدر الحاجب عبدالملـك المظفر، فهو ابن القصر الذي تتيح لـه الظروف محادثة الحاجب والدس على

غريمه، ومن خلال طُرفة علا شأن الخصيان الصقالبة، وزادت سطوتهم، وعلا كعبهم، فزادهم ذلك كبراً وطغياناً.

مرض الحاجب ذات مرة، فأخذ الفتى طُرفة في تسيير الأمور دون أمر الحاجب وبما لا يوافق إرادته، وعندما برئ مما أصابه، بقي شيء من الكدر في نفس عبدالملك، وأخذت الريبة تتسرب إلى قلبه، وخرج الحاجب في أحد غزواته ومعه الوزير عيسى بن سعيد، فرأى أنَّ من الصواب استغلال فرصة تفرده بالحاجب للإطاحة بطُرفة غريمه، فأخذ يعدد له مثالب خصمه وتجاوزه حدوده، وبعد عودة الحاجب أمر بالقبض على «طُرفة» وقتله وقتل جليسه ونديمه الأديب عبدالملك بن إدريس الجزيري، وبهذا استطاع عيسى بن سعيد الانفراد مرة أخرى بالنفوذ، وحتى يوطد تلك الثقة، ويأمن غائلة التحول، زوج ابنه عبدالملك بأخت عبدالملك المظفر بالله بنت المنصور، وبهذا تربع على مقاليد شؤون الحكم.

وبقي لعيسى بن سعيد اليحصبي غريم واحد، خلاله السيئة، وأخلاقه القبيحة، وتعاليه وصلفه، وانصرافه عن قضاء حوائج الناس، وتعسفه في معاملتهم، فكثر حساده والناقمون عليه الذين حاولوا الإطاحة به.

وكان عيسى بن سعيد منصرفاً عن مجالس الشرب بينما كان الحاجب عبدالملك المظفر منغمساً فيها، فكانت الفرصة متاحة أكثر لجلاس الشراب والأنس للنيل من عيسى بن سعيد، فبدأت هذه الدسائس تدب دبيب النمل في عقل الحاجب لاسيما أنه كان أذناً يسمع كثيراً للغير، ويتغير موقفه بمقدار ما يسمع من وشاية، وقد زاد الطين بلة موقف عيسى بن سعيد المشجع لزواج الحاجب عبدالملك المظفر من قينة من جواري القصر هام بها، وكانت أم الحاجب «الذلفاء» التميمية رافضة لهذا الزواج مقبحة له عند ابنها، لكن الهيام والغرام ورُسلُ القلب أقوى من رفض أم، أو تحكيم عقل عند الحاجب عبدالملك المظفر بالله.

أحس عيسى بن سعيد بجفاء الحاجب عبدالملك المظفر فراودته نفسه أن يظفر به قبل أن يقصيه، فكاشف هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، وكان صديقاً حميماً له بما في نيته وأنه الأجدر بذلك لكونه الأموي الذي سلب بني عامر حكمهم وهم أجدر

به من غيرهم، فكانت الخطة تقضي بأن تتم دعوة الحاجب عبدالملك المظفر بالله وأخيه عبدالرحمن إلى وليمة بمناسبة مولودة جديدة، ثم يتم الإطباق عليهما والتخلص منهما، وتولي هشام بن عبدالجبار حكم البلاد اسماً وفعلاً.

وشاء الله سبحانه وتعالى كشف المكيدة من خلال أحد خواص عيسى بن سعيد من الخصيان الذي أبلغ الأمر إلى نظيف الفتى الصقلي الذي نقله إلى الحاجب، فقبل الحاجب عبدالملك المظفر الدعوة وقد أعد العدة للإيقاع به قبل بدء تنفيذ مؤامرته، غير أنه أقام حفل لهو تدور فيه كؤوس المُدام قبل تاريخ الاحتفال بالمولود.

ودعي عيسى بن سعيد وأصدقاؤه حسن بن فتح وخلف بن خليفه، واستقبله الحاجب عبدالملك بحفاوة بالغة ، وبعد أن جلس وأخذ قسطاً من الراحة، أخذ الحاجب في تأنيبه، ثم جر سيفه من تحت فراشه وأشهره في وجهه وطعنه به عدة طعنات ثم انهال عليه الفتيان ضرباً وطعناً وكذا فعل بصاحبيه، ثم اجتزت رؤوسهم وألقيت جثثهم في النهر، وصلب رأسه على باب مدينة الزاهرة وظل معلقاً، وسلبت أموالهم،و صودرت دورهم، وأجبر الحاجب عبدالملك المظفر بالله أخته على الطلاق من زوجها عبدالملك بن عيسى، فتم له ما أراد.

وكان أبو العلاء صاحب أبي الحسن اللغوي منقطعاً إلى عيسى ومن أقرب الناس إليه، وبعد أن علم بالأمر مال حيث تميل الريح، ونافق حيث محل النفاق، ومالق حيث موقع الملق، فقلب لصاحبه ظهر المجن وسارع بالانقلاب عليه، فقال شعراً دون خجل أو حياء:

فتلك هامته في الجو ناطقة ... تحدث الناس من آبائها عبرا

مكتوبة الوجه بالهندي يقرؤه ... من ليس يقرأ مكتوباً ولا سَطَرا

وبعد مقتل عيسى بن سعيد اليحصبي باشر الحاجب عبدالملك المظفر بالله أموره بنفسه، وترك مجالس اللهو، وأخذ بزمام الأمور، وأحسن التدبير، فتحسنت أحوال البلاد، لكنه تحسن رافقته الدعة والاطمئنان لا الحذر والتوجس.

وعبدالملك المظفر بالله لين المعشر، وكان أكثر رقة وأحسن معاملة للخليفة، فقد سمح له بالخروج إلى الزاهرة، وكان يشاركه بعض مجالس لهوه ويتلطف إليه.

ولم يكـن الحاجب عبدالملك محباً لمجالس العلـم والعلماء، فكانت مجالس اللهو أحب إلى قلبه، وكان يشاركه فيها الكثير من الصقالبة والأعاجم والبربر.

عـزم عبدالملك المظفر بالله على غزو الشمال لإخضاعـه فأصابته علَّة وهو في مدينة سالم، وسميت لذلك غزوة «العله» وهي آخر غزواته، وانتظر راجياً برأه فطال المقام وتفرق بعض الجند، إلا أنه وثب للغزو بعد أن أحسَّ ببعض التحسن، فعاوده المرض وزاد، فحمل إلى قصره في الزاهره ومات بسبب ما أصابه من مرض، غير أن بعض المؤرخين يرون أن سبب الوفاة سُمٌّ دسَّه لـه أخوه عبدالرحمن، حيث وضعت المائدة وأكل منها عبدالرحمن من موقع خلا من السم بينما جعل السم في موقع أكل منه عبدالملك المظفر.

أمـا ابن الأثير فيقول: إنَّ أخاه عبدالرحمن سمَّه في تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحـد جانبيهـا، فناول أخاه مما يلي الجانـب المسموم وأخذ مما يلـي الجانب الصحيح، فأكله بحضرته، فاطمأن المظفر فأكل ما بيده منها فمات.

وما أظن هذا إلا من قبيل الأحاجي التي تنسج حول كل مشهور.



عبدالرحمن المنصور (شنجول)

مرحلة حرجة من مراحل الأندلس، ونهاية لحقبة من تاريخه وزوال حكم المنصور محمد بن أبي عامر وأبنائه، ونهاية لاغتصابهم السلطة من صاحبها الشرعي الخليفة هشام المؤيد الأموي الذي ليس له منها غير مسماها.

بداية المأساة الحقيقية للأندلس وتحول مسار المنحنى إلى الانحدار الحاد في أحداث سريعة متعاقبة.

لقد تولى عبدالرحمن بن أبي عامر الحجابة بعد أخيه عبدالملك حال وفاته وعمره آنذاك خمسة وعشرون عاماً، ويكنى بأبي المطرف، وتسميه المراجع العربية «شنجول» لشبه ورثه من جده شنجول، وهو تعريب لاسم جده «سانشو»، وكان يجمع من الصفات أسوأها، ومن الخلال أحقرها، ومن الأخلاق أرذلها.

فقد كانت أمه ابنة «سانجو غرسيه» ملك «بافاريا»، وهذه بحد ذاتها مدعاة للريبة والكراهيه لهذا الحاجب الجديد، فجده لأمه من أعداء الإسلام المتربصين به، وإذا به يتولى قيادة المسلمين رغم أنوفهم في ظل وجود خليفة شرعي ضعيف غير قادر على مغادرة قصره.

كان مجاهراً بالمعاصي، ماجناً، مستهتراً، همه اللهو والطرب، ومقارعة كؤوس الخمر، والاستئناس بالمحضيات والغلمان، فجمع من الخنى والفحش أجلَّه.

واصل الحجر على الخليفة شأنه في ذلك شأن أبيه وأخيه، إلا أنَّه كان أكثر تودداً للخليفة، وألطف تعاملاً، وأجمل ملقاً، لغاية يرومها، وهدف يبتغيه، وكان وزير الخليفة وكاتبه هو جهور بن محمد، وإذا برقعة تصل إليه من الخليفة بتدبير من الحاجب عبدالرحمن بالإنعام عليه بلقب «الحاجب المأمون ناصر الدين أبو المطرِّف حفظه الله» فكانت هذه التسمية مدعاة للسخرية والتندر بإضفائها على رجل ليس لديه من الخلال ما يستوجب الإنعام بها عليه.

لم يتوقف عند هذا الحد، بل انتقل إلى مرحلة أخطر بكثير كان فيها حتفه، ونهاية ملك أسرته، فقد أقنع أو أجبر الخليفة الضعيف المحاصر في قصره بأن يوليه ولايه العهد حيث لا عقب له، ومالأه على ذلك قاضي الجماعة أبوالعباس أحمد بن عبدالله بن ذكوان وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد وغيرهم من المنتفعين.

وصدر أمر الخليفة بذلك بحضور الوزراء وكبار القوم ووجهائهم وكتبت شهادتهم جميعاً، وقد استحسنت إيراد نص الأمر لطرافته وتناقض ما فيه من مديح لعبدالرحمن بما لا تنبئ عنه شواهد أفعاله، فكان بذلك خطاب البيعة أنموذجاً للملق والنفاق والسعي وراء المصالح جاء فيه:

«هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمَّه ما جعل الله إليه من الإمامة، وعَصَب به من أمر المؤمنين، واتقى حلول القَدَر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تؤي إليه، وملجأ تنعطف عليه، أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق إليها، ويعوّل في القيام به عليه، ممن يستوجبه بدينه وأمانته، وهديه وصيانته، بعد اطرَّاح الهوى، والتحري للحق، والتزلف إلى الله جل جلاله بما يرضيه، وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده، ويفوض إليه الخلافة بعهد، لفضل نفسه وكرم خيمه، وشرف مرتبته وعلو منصبه، مع تُقاه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبي المطرِّف عبدالرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، وفقه الله، إذ كان أمير المؤمنين - أيده الله تعالى- قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً في الخيرات، سابقاً في الحلبات، مستولياً على الغايات، جامعاً للمأثرات، ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه، فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه، مع أنَّ أمير المؤمنين - أيده الله - بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، يرى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عمرو بن العاص وأبو هريرة رضي

الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**»، فلما استوى له الاختيار، وتقابلت فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهباً، ولا إلى غيره معدلاً، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته وفوض إليه الخلاف بعد وفاته، طائعاً راضياً مجتهداً، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه، وأنجزه ونفذه، ولم يشرط فيه مثنوية ولا خياراً، وأعطى على الوفاء به سره وجهره وقوله وفعله، عهد الله وميثاقه، وذمة نبيه محمد ﷺ، وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه، وذمة نفسه، أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول، وأشهد الله على ذلك والملائكة، وكفى بالله شهيداً، وأُشهد – من أوقع اسمه في هذا – وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المطرِّف عبدالرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى وقبوله ما قلده، وإلزامه نفسه ما ألزمه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة».

خرج عبدالرحمن في موكب عظيم إلى قصر الزاهرة وهو يختال في ثوب الخلافة ظناً منه أنه مستحق لها، وأن لديه من الأرومة ما ترفعه إلى هذا المقام، ومع هذا فقد أقبل إليه المهنئون من بني مروان وهم يرون ملكهم يخرج من أيديهم إلى غيرهم، وجاء القرشيون له مهنئين وهم له مبغضون، وبدأت العصبية القبلية تسري في عروقهم، فكيف تنتقل الخلافة من المضرية إلى اليمانية، بل من القرشية إلى غيرها، وتبعهم في ذلك كبار رجالات الدولة وزعماء القوم على غير رغبة منهم.

قال أحد الشعراء في حق ابن ذكوان وابن برد:

إن ابن ذكوان وابن برد	قد ناقضا الدين بعد عهد
وعاندا الحق إذ أقاما	حفيد شنجه ولي عهد

وأراد عبدالرحمن ولي العهد أن يفعل ما كان يفعل أبوه وأخوه، فأعلن الغزو وخرج إلى الشمال في فصل الشتاء والسماء تبرق وترعد، وتسقط على الأنهار والجبال والوديان مطراً غزيراً زادت معه مشقة السير، وحلَّ العناء بالجيش وولي العهد عبدالرحمن غارق في شربه ولهوه.

وصل إلى حصون أعدائه فوجدها محصنة وأبوابها موصدة، فعاد أدراجه حتى إذا ما وصل إلى طليطلة إذا به يسمع نبأ أمر حلَّ بقرطبة فسارع بالنكوص.

هذا الأمر الذي حل بقرطبة أمر جلل حدثت على أثره متغيرات سياسية كبيرة، ولحق بالأندلس من خلالها عظائم الأمور، فكانت البداية لضرام كان تحت رماد، فحلت المآسي تلو المآسي في بلاد الأندلس، وهذا ما ستسطره لنا الأحداث المتعاقبة.

بعد أشهر من حكم عبد الرحمن بن أبي عامر الذي نصب نفسه ولياً للعهد، يتبين للناس سوء فعله ومجونه واستهتاره، فتحادث الناس فيما بينهم صغيرهم وكبيرهم، دهماءهم وزعماءهم، من خلال التندر على الخليفة وولي عهده وولاتهم، ونفاق خاصتهم من فقهاء وولاة مع علمهم بفساد سريرتهم.

استغل هذا الوضع عدد من الناقمين على حكم ابن أبي عامر وأبنائه، سواء لمآرب شخصية أو لدوافع انتقامية، وكان هناك رأسان مدبران للانتقال من السخط الخاص والعام إلى عمل ميداني يتم به إزاحة عبد الرحمن بن أبي عامر عن السلطة، وربما هشام المؤيد بالله عن الخلافة.

كانت «الذلفاء» والدة عبد الملك المظفر أحد الرأسين الفاعلين، ظناً منها أن عبد الرحمن ولي العهد المزعوم قد سمَّ ابنها عبد الملك المظفر ليتفرد بالحكم، وكان لديها من الجاه والمال والأتباع ما تظن أنها تستطيع به فعل شيء للإطاحة بعبد الرحمن، وأخذت على عاتقها الاتصال ببني أمية لعلها تجد فيهم من تكون لديه النجابة وسداد الرأي والجرأة للقيام بمهمة إقصاء عبد الرحمن، وكان محلَّ ثقتها في التواصل أحد الخصيان الصقالبة فتى يسمى بشرى، وكان من فتيان المروانية المنقط لهم بالولاء ثم انتقل إلى العامرية مع من انتقل من القصر، ورحب الكثير من بني أمية برأيها واختاروا رجلاً من بينهم في الثالثة والثلاثين من العمر أمه أم ولد تدعى «مزنة»، فيه من صفات المغامرة والجرأة الشيء الكثير، غير أنه أبعد ما يكون عن النجابة وسداد الرأي.

ولم يكن بنو مروان الأشد سخطاً على حكم بني أبي عامر، بل يماثلهم في ذلك القرشيون والبيوت العربية النجيبة، لأجل ذلك كانت الظروف متاحة للانقضاض، قال

ابـن الخطيـب: «وقد جبل الله أهـل قرطبة على الملل مـن ملوكها، والقلق بـذوي أمرها، والإرجاف بما يتوقع لها، وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة تُؤْثَر عنهم في العامريين نوادر حارة، كان المنصـور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم، ويأمرهم بإنهاء وعيده، ويشاقههم بانكساره، ولايزال حكامه يبلغون في تغيير ذلك وانكساره أقصى المبالـغ، ضربـاً للظهـور، وقطعاً للأسنـة، فلما ذهـب عبدالرحمن هذا المذهـب، وأطاع هذاالخرق، كثر الحمل، وشهرت البغضة».

وفي اليوم السادس عشر من جمادى الأول عام ٣٩٩ هـ، كان اليوم الذي رآه محمد بن هشام المرواني مناسباً لبدء مهمته، وهذا اليوم جدير بأن يسجل، فهو يوم تحول كبير في تاريخ المسلمين في الأندلس يستحق التنويه به.

سار محمد بن هشام الشاب المغامر مع اثني عشر فتى من الصقالبة منهم طرسوس المجوسـي، ودخل علـى حاكم المدينة وابن عم عبد الرحمن بن أبـي عامر واسمه عبدالله ابـن أبي عامـر وكان يحتسي الخمر مع قينتـين، فأحضر إلى محمد بـن هشام مخموراً فأمـر بقتله واجتز رأسه ورفعـه على أحد الرماح، فلما رأت العامة ما حلَّ بحاكم المدينة، التف الناس صالحهم وطالحهم حول الوافد الجديد رغبة في التغيير، فانتشرت الفوضى وسـارت العامـة إلى سجـن العامرية فأطلقوا كل مـن بالسجن مـن مظلومين ومجرمين ولصوص، فاختلط الحابل بالنابل وهجر العقل وغلب الهوى.

وعلـم الخليفـة هشام المؤيد المحجـور عليه في قصـره بالأمر، فأمـر الفتيان بإغلاق أبـواب القصر ثم صعد إلى سطح قصـره مع اثنين من خدامه ورفعوا المصاحف، وحاول أن يتحـدث إلى النـاس فأسمعـوه ما لا يرضيه، وتسلق بعض مـن أعوان محمد بن هشام الأسوار كما حاول بعضهم الآخر اقتحام الأبواب، واستطاع من تسلق إلى القصر الوصول إلى مخـازن السـلاح فكان لهم مـا أرادوا فقويت شوكتهم، فأسـرع الخليفة هشام المؤيد بإرسال مبعوث إلى محمد بن هشام متعهداً بإبعاد ابن عامر ومشاركته إياه في الخلافة، فأبى محمد بن هشام وطلب من المبعوث أن يبلغ الخليفة بضرورة فتح باب القصر، فأمر فتـاه فاتن بفتح الأبـواب واتخذ من فوره قرارات مهمة منها تعيين سليمان بن هشام أحد

رجالات بني أميه ولياً للعهد كما عهد إلى محمد بن المغيرة إدارة الشرطة، وعبدالجبار ابن المغيره في الحجابة، وطلب من هشام خلع نفسه من ليلته تلك، ودعا هشام أبناء عمومته وكبار قيادات قرطبة والعلماء والفقهاء والوجهاء في جوف الليل، فخلع نفسه وتقلدها محمد بن هشام ولقب نفسه بالمهدي.

وبهذا تنتهي حقبة الخليفة الضعيف هشام المؤيد بعد أن قضى في الخلافة الاسمية نحو ثلاثة وثلاثين عاماً كان الحكم الحقيقي فيها للمنصور بن أبي عامر وأبنائه.

هذا التحول الكبير بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من الاستقرار والهدوء والنصر المؤزر الذي أحرزه محمد بن أبي عامر المنصور وابنه عبدالملك المظفر، كان يؤمل أن يستمر على يد الخليفة محمد بن هشام بعد فشل عبدالرحمن بن أبي عامر في السير على نهج أبيه وأخيه، لكن محمد بن هشام خيب الآمال وفتح الباب على مصراعيه لنهاية الحكم الأموي.

أراد الخليفة الجديد السيطرة على قصور العامريين في مدينتهم التي ابتنوها وسموها الزاهرة وهي قريبة من قصر الخلافة بقرطبة، فندب حاجبه عبدالجبار بن المغيرة لهذه المهمة، فسار مع العامة والسوقة واللصوص ومن تطوع من الفرسان، وكانت غايتهم نهب ما يمكن نهبه، فكان قصر عبدالملك المظفر وأمه «الذلفاء» التميمية التي ساعدت بمالها وجاهها في هذه الثورة أول المكتوين بنارها، حيث داهم العامة مع عبدالجبار بن المغيرة دارها ونهبوا ما فيها، واصطفى الخليفة المهدي من المال والجوهر أنفسه، ويقال إنه بلغ أكثر من خمسة آلاف دينار من النقود، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف دينار، وأطلق حرائر نساء بني عامر واصطفى الجواري، أما «الذلفاء» فأذن لها المضي للإقامة بمنزلها بوسط المدينة، كما هدم قصر الزاهرة مع من رافقه من العامة حتى اختفت معالمه.

علم عبدالرحمن بن أبي عامر «شنجول» بما حلَّ بقرطبة فسارع بالعودة إليها غير أنَّ الأمر قد تغير في قرطبة، وبتغيره تغيرت النظرة إليه، فقد أفتى القاضي أبو العباس بن ذكوان بفسق عبدالرحمن بن أبي عامر، وهو المالئ للعامريين والمنصب لعبدالرحمن ولياً للعهد، كما تنكر له زعيم برابرة زناتة محمد بن يعلن الزناتي، فعلوا ذلك خوفاً على أنفسهم من أهل قرطبة.

وعاد عبدالرحمن إلى قرطبة بعد أن تخلى عنه الكثير ولم يبق معه إلا القليل، ليحاول الفرار حيث اختفى في دير، لكن محمد بن هشام علم بذلك فأرسل إليه من قتله واجتز رأسه، وحملت جثته على بغلة إلى الخليفة الجديد محمد بن هشام الملقب بالمهدي، فحنطت ووضع عليها الرأس وألبست كسوتها ونصبت على خشبة.

قال أحد المعاصرين لتلك الحوادث:

«من أعجب ما رأيت من عبر الدنيا أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشر ليلة بقيت من جماد الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء تتمة الشهر، وفي مثل ساعته فتح مدينة قرطبة، وهدم مدينة الزهراء، وخلع خليفة قديم الولاية هو هشام بن الحكم، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد، ولا وقع عليه اختيار، وهو محمد بن هشام بن عبدالجبار، وزوال دولة آل عامر، وكرور دولة بني أمية، وإقامة جنود من العامة المحشودة عوض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة، ونكوب وزراء جلَّة ونصب أضدادهم، تقتحمهم العين هجنة وقماءة، وجرى ذلك كله على يد بضعة عشر رجلاً من أراذل العامة، حجامين وخرازين وكنافين وزبالين، تجاسروا عليه، وقد تكفل المقدور بوقوعه، فتم منه ما لم يكن في حسبان مخلوق تمامه».

لم يكن محمد بن هشام الملقب بالمهدي حكيماً، فأخذ في التقليل من شأن البرابرة والنيل منهم لمواقفهم المناصرة للعامريين، حتى إنَّ العامة قامت بالسطو عليهم ونهب دورهم، كما رد بعض زعمائهم ومنعهم من دخول القصر، وسرت شائعات بأنه ينوي الفتك بهم، وانتقلوا إلى ضواحي قرطبة خشية من بطش محمد بن هشام بهم، إضافة على ما يلقونه من إهانة العامة لهم.

أما الخليفة السابق هشام المؤيد الذي ظل ثلاثة وثلاثين عاماً خليفة اسمياً تحت حكم العامريين فقد حبسه محمد بن هشام مع جواريه في أحد المنازل بقرطبة.

وتوفي واحد من أهل الذمة وكان شبه الخليفة هشام في الشكل، فأعلنت وفاة الخليفة، وأحضر الفقهاء والوزراء فشهدوا بأنه الخليفة المؤيد حقاً، والله أعلم بشهادتهم، فربما تكون المنجاة من السيف شرطاً لإدلائهم بالشهادة.

ولما ظنَّ الخليفة محمد بن هشام الملقب بالمهدي أنَّ الأمر استتب له، ترك لهواه العنان، فانكب في معاقرة الخمر، وأسرف في المجون، وجاهر بالفسق، وغرق في الملذات، فكان شر خلف لشر سلف.

ولم يكتف بما كان فيه من مجون، بل تعداه إلى ما هو أخطر على نفسه وعلى سلطان بني أميه وعلى المسلمين بالأندلس، فقد طال عبثه حتى بطش بكثير من الجند ومنع أرزاقهم وسجن ولي عهده سليمان بن هشام، وزادت مجاهرته بالحقد على البربر؛ فتحرك هشام بن سليمان الناصر والد ولي العهد المعتقل وعزم على خلع محمد بن هشام وأسرَّ نجواه، واجتمع حوله عدد من البربر والعامريين، وتدخل ابن ذكوان القاضي والفقيه أبو عمر بن حزم للإفراج عن ولي عهده سليمان بن هشام ففعل، وجمع المهدي ما لديه من قوة، واجتمعت إليهم العامة، ودار قتال بين الخليفة محمد بن هشام ومن معه من العامة والجند، وبين هشام بن سليمان الناصر وابنه سليمان ولي العهد السابق وأخيه أبي بكر من جهة أخرى ومعهم البربر وبعض خصيان العامريين وعبيدهم، فكانت الدائرة على هشام وانتصر الخليفة وقبض على هشام وأبيه وأخيه فقتلهم جميعاً، وهجم العامة على البربر وصدورهم تمتلئ حقداً عليهم، فاغتصبوا النساء وسبوهنَّ، وقتلوا الرجال، فخشي الخليفة المهدي العاقبة فأعطاهم الأمان بعد أن نال منهم ما يشفي غليله السقيم.

وقد تمكن بعض زعماء البربر وبعض عامتهم من الهرب، وكان بصحبتهم سليمان بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر، ورشحوه للخلافة وتلقب بالمستعين بالله بَدلاً من محمد ابن هشام الملقب بالمهدي، وكان لا بد لهم من طلب العون من قوة أخرى خارجية، فكان سانشو غرسيه أمير قشتالة بغيتهم، وهو الذي أذله العامريون ودكوا حصونه حتى أجبر على تزويج المنصور بابنته تقرباً له وخوفاً من قوته وفتوحاته، وهو جد عبدالرحمن بن أبي عامر «شنجول» لأمه.

رحب «سانشو» بالفكرة، ووجد فيها فرصة سانحة للقضاء على المسلمين مستغلاً هذا الخلاف بين فرق إسلامية كانت قبل أشهر معدودة قوة واحدة تدك حصونه، واشترط عليهم إن انتصروا أن يسلموا له جميع الحصون التي استولى عليها المنصور ابن أبي عامر من قبل، فقبلوا.

وسار المستعين بالله والبربر وجيش سانشو إلى قرطبة، فخرج إليهم في الطريق وبالقرب من مدينة سالم الفتى واضح أحد فتيان الخليفة المهدي رأس البلاء على المسلمين مع عبدالرحمن العامري، وهُزِمَ واضحٌ هزيمة نكراء ففر إلى قرطبة مع فلول جيشه، واستمر جيش المستعين بالله ومعه البربر بقيادة زعمائهم مثل زاوي الصنهاجي، وبُكساس بن سيد الناس، ومحمد المغراوي ومعهم جيش سانشو، فانهزم جيش المهدي ودخل سليمان المستعين بالله ومن معه من البربر والنصارى إلى قرطبة عاصمة الخلافة، ليسجل التاريخ أسوء سطوره وأكثر مآسيه بدخول سانشو قرطبة، وقتل أكثر من عشرين ألفاً من الأئمة والفقهاء والعلماء والعامة، فتنهب المدينة، وتداس الكرامة، وتحرق الكتب، وتضاف مأساة عظيمة فارقة في سجل المسلمين.

هذه الأحداث ولَّدت نمطاً جديداً من المآسي أبطالها المسلمون أنفسهم، لتكون بداية نهايتهم في هذين العامين اللذين وقعت فيهما الأحداث الجسام ٣٩٩ و٤٠٠ هـ.

وفر الفتى المسمى واضحاً لَمَّا أيقن بالهزيمة، أما محمد بن هشام المهدي فقد لجأ إلى حيلة من حيل السخفاء؛ وذلك بإخراجه للخليفة السابق هشام المؤيد الذي لم يكن له دور قط سوى اللهو والمجون وجعله ألعوبة يأتمر به من يشاء ويستفيد منه كل مستفيد، والغريب أنه يظهر ويختفي دون أن يقتل بينما يقتل غيره والله أعلم بعباده.

وأرسل القاضي ابن ذكوان لإقناع البربر بأن المهدي لم يكن إلا نائباً للخليفة الحقيقي هشام المؤيد الذي أظهره الله، ولا أعلم كيف يسعى القاضي ابن ذكوان في أمور يميل معها حيث تميل الريح.

لكن سليمان المستعين لم يلتفت إلى هذه الحيلة، ودخل زادي بن زيري ومن معه من زعماء البربر مثل بكساس بن سيد الناس وغيرهم إلى القصر في قرطبة، وهرب الخليفة محمد بن هشام المهدي إلى طليطلة عازماً على المعاودة مرة أخرى، ومن العجب أن يكون في فترة واحدة ثلاثة خلفاء للمسلمين، دلالة على ما وصل إليه الأمر من مأساة حقيقية.

ومرة أخرى يلجأ الخصم إلى عدو آخر من النصارى، وفي هذه المرة محمد بن هشام المهدي يلتمس العون من أمير برشلونه ابن أدفونش لإسقاط المستعين بالله، وقد اشترط

حليفه عليه شروطاً قاسية مثل الإمداد بالشراب والطعام، وإعطاء كل محارب دينارين في اليوم، وغيره من الشروط المتعلقة بالأرض، فقبل ذلك كله لحقده على ابن عمه المستعين ومعه البربر.

وسار جيش محمد بن هشام المهدي مع حليفه النصراني إلى قرطبة، ودارت معركة انتهت بفوز محمد بن هشام المهدي وحليفه ودخوله قرطبة مرة أخرى.

ويضحك التاريخ على المسلمين مرة أخرى، وتبدو لنا حقائق كما لو كانت أحاجي، حيث يتآمر الفتى واضح مع فتيان القصر على الخليفة القديم الجديد الفاسق الماجن محمد ابن هشام المهدي بعد أن ضاقوا ذرعاً بأفعاله، فيتم الحجر عليه وإخراج الخليفة القديم الألعوبة هشام المؤيد من القصر وينصب على كرسي الخلافة، ويقدم له ابن عمه الخليفة محمد بن هشام المهدي ليأمروه أن يأمر بجز رأس ابن عمه فيتم ذلك، وبهذا يسترد الخليفة الاسمي هشام المؤيد خلافته البائسة وهو في السابعة والأربعين من عمره.

ويرسل الفتى واضح برأس المهدي إلى الخليفة السابق اللاحق أيضاً المستعين بالله طالباً منه ومن البربر الذين معه مبايعة هشام المؤيد، فلم يستجيبوا، وأصرَّ سليمان المستعين على الخلافة، ووافقه في ذلك من معه من البربر، ليسير بجيشه إلى قرطبة حيث دارت معركة انهزم فيها أهل قرطبة، فحاول واضح الهرب غير أنَّ أعوانه اجتزوا رأسه وطافوا به في قرطبة بعد أن دخل سليمان المستعين إليها.

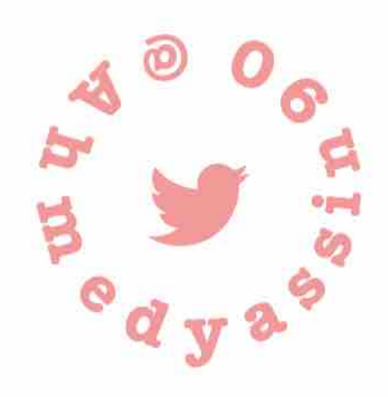
أما مصير الخليفة القديم هشام المؤيد فاختلف في مصيره، فهناك من يقول إنَّ محمد ابن سليمان المستعين قد قتله، وهناك من يقول إنه عاش في بؤس وفقر حتى مات.

لم يجلب الخليفة سليمان المستعين وجموع البرابرة للمسلمين خيراً وقت توليه ووقت انكساره، فكان وقت ولايته في المرة الثانية التي دامت سبع سنوات غصة في حلق أهل قرطبة، ظالماً لهم، مستبيحاً حرماتهم، أما في وقت انكساره فكان يعبث في القرى التي تطؤها حوافر فرسه فساداً تاركاً لمن معه من البربر الحرية المطلقة في الفتك والسبي وظلم الناس.

وولىَّ البرابر والعبيد على الأعمال والنواحي، فولُّوا المدن العظيمة، وتقلدوا البلاد الواسعة، مثل «بادس بن حبوي» في غرناطة، كما نشأت ممالك مثل ابن عباد في إشبيلية، وابن الأفطس ببطليموس، وابن ذي النون بطليطلة، وابن أبي عامر ببلنسية، وابن هود بسرقسطة، فتكونت دويلات الأندلس وملوك الطوائف.

قال عنه ابن حيان: «كانت سنينه كلها شداد نكدات، صعاب مشؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيه حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة، وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وظعن الأمن، وحلول المخافة، دولة كفاها ذمّ أن أنشأها شانجة، وقشعها أرمفند، وثبتها الجلالقة، مزقتها الإفرنجة، ودبرها فاجر شقي، ووزَّر لها خبٌّ دني، فتمخضت عن الفاقرة الكبرى، وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى، مما طوى بساط الدنيا، وعفى رسمها، وأهلك أهلها».



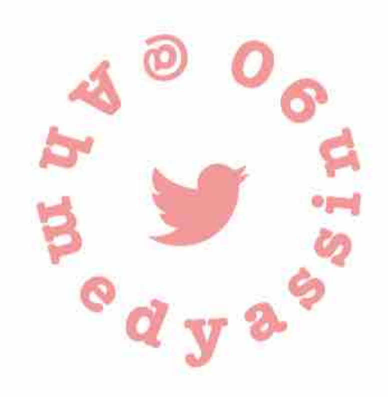

@Ahmedyassin90

الفصل الرابع

ما قبل حكام الطوائف

- ولاية بني حمود.
- محمد بن عبدالرحمن المستكفي.




@Ahmedyassin90

ولاية بني حمود

علي وقاسم أبناء حمود بن ميمون أدارسة يرجعون في نسبهم إلى الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وينتمون إلى البربر ولاءً وثقافة، فهم يتكلمون لغتهم ويحاربون بجانبهم، وقد كانوا ملوكاً على فاس في المغرب، وكان علي بن حمود قد ولي حكم سبتة، أما أخوه الأكبر القاسم فكان على الجزيرة الخضراء، وطمع علي في حكم قرطبة فوجد أنَّ أكبر عون له ربما يحصل عليه من قبل فتيان العامريين أعداء سليمان المستعين، وكان كبيرهم اسمه خيران. فكاتبه في الأمر وأظهر له كتاباً يدعي فيه أنَّ هشام المؤيد قد عهد له بولاية العهد من بعده، وأنَّ هشاماً المؤيد أرسلها إليه سراً قبل استيلاء المستعين على قرطبة، وأعلن علي بن حمود دعوته للمؤيد وأنه قادم إلى قرطبة لإعادتها إلى حاكمها الشرعي هشام المؤيد، وكان هذا الخليفة الدمية مادة للاستغلال، وتولى مقاليد الأمور في اختفائه وظهوره وحياته وموته.

انضم إلى علي بن حمود الحسني عدد من البرابر الناقمين على المستعين بالله مثل: زاوي بن زيري، وحبوس الصنهاجي، وتقابل الجيشان بالقرب من قرطبة، وانهزم جيش المستعين وتم أسره مع أبيه الحكم وأخيه عبدالرحمن.

ودخل علي بن حمود الحسني قصر قرطبة، وبحث عن الخليفة هشام المؤيد ظناً منه أنه محتجز لدى الخليفة سليمان، وربما يعلم أنه قد مات أو قتل وإنما أراد استغلال اسم هذا الخليفة المقهور.

بعدما علم علي بن حمود بقتل الخليفة هشام المؤيد أو ربما وفاته أمر بقتل الخليفة سليمان وأبيه وأخيه وأعلن وفاة المؤيد ودعا لنفسه بالبيعة، وسمى نفسه الناصر لدين الله، وحاول مجتهداً إبعاد زعماء البربر حتى يتحرر من قيودهم، وقرب أهل قرطبة مثل أبي الحزم بن جهور وأحمد بن برد، لكن خيران الفتى العامري عندما علم أنَّ هشاماً المؤيد قد مات أو قتل وأنَّ الأمر آل إلى بيت حسني النسب بربري الولاء لن يكون له فيه نفوذ وسلطان كما هو الحال في عهد هشام المؤيد الأموي، رأى أنه من الأنسب له الخروج على الخليفة الجديد علي

ابـن حمود بمن معه من حشود في الشـرق، وأنْ يختار أحد بني مروان رمزاً لهذه الغاية، فوقع اختيـاره علـى عبدالرحمن بن محمد بن عبـدالله بن عبدالرحمن الناصـر ولقبه بالمرتضى، وسـار بمجموعة مبتدئا بغرناطة، فلقيه حاكمها زاوي بن زيري فانهزم عبدالرحمن المرتضى وقتل، وهرع خيران إلى أحد حلفائه في الشمال للاستنجاد بالنصارى.

قال ابـن حيان: «فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها، ولم يجتمع لهم جمع بعد، وأقروا بالإدبار، وباؤوا بالصفار».

كان لهذه الواقعة الأثر الكبير في سلوك علي بن حمود الذي انصرف عن أهل قرطبة ومن ضمنهم أبو الحزم ابن جهور، وشاء الله تعالى أن عزم بعض من فتيان القصر على التخلص مـن الخليفة فقتلوه وهو في الحمـام، فسارع البربر إلى الاتصـال بالقاسم بن حمـود وكان واليـاً على إشبيلية وقدم إليهم وبايعوه بالخلافـة، وتلقب بالمأمون، فلجأ إلى العبيـد من إفريقيا فاعتمد عليهم لعلهم يخففون عنـه قبضة البربر، لكن يحيى بن علي بـن حمـود ابن أخ الخليفـة الجديد رأى أنه الأحـق بالخلافة فجمع جمعـه وقدم بجيشه لانتـزاع الخلافة مـن عمه القاسم، فحـاول القاسم حقن الدماء، وتوسـط بكبار زعماء البربـر للتوفيـق فيما بينهم غير أنـه عجز عن ذلك، وأمام إصرار ابـن أخيه آثر العافية وانسحـب حقناً لدماء المسلمين، وغادر إلى إشبيلية فدخل يحيى قرطبة وتسمى بالخليفة المعتلـي، فرأى القاسم في إشبيليه أن يبقي نفسه خليفـة، وتلقب بالخليفة المستعلي، ومن الغريب أن كل منهما اعترف بالآخر.

ولم يـدم الأمر للخليفـة يحيى حيث ثار عليـه البربر وأعادوا عمه الخليفـة القاسم من إشبيلية إلى قرطبة، لكن أصبح طوع أيديهم، ثم ثار أهل قرطبة على القاسم، وانتصر أهل قرطبـة، وفـرَّ القاسم مع جمع من أعوانه قاصداً إشبيلية، لكن محمد بن إسماعيل بن عباد قاضـي إشبيلية وجدها فرصة للتخلص من الخليفة القاسـم، فأغلق أبواب إشبيلية وأخرج أبناء القاسم إليه، فذهب إلى بلده «شريش» وهنـاك حاصره ابن أخيه الخليفة المخلوع يحيى، فـكان حصاراً من خليفة مخلوع لعمه الخليفة المخلوع، وتم النصر ليحيى على عمه، فأودعه السجن مع بنيه، ومن بعد ذلك تم خنقه في سجنه وهو في الثمانين من عمره.

أما قرطبة فقد اختارت عنوة عبدالرحمن بن هشام بن الحكم خليفة جديداً اتخذ لنفسه لقب المستظهر بالله، وأمه أم ولد تسمى «غايه»، وهو أديب وشاعر، ومن شعره:

طال عمر الليل عندي ... مذ تولّعت بصدّي
يا غزالاً نقض العهـ ... ـد ولم يوف بوعد
أنسيت العهد إذ بتـ ... ـنا على مفرش ورد
واجتمعنا في وشاحٍ ... وانتظمنا نظم عقد
ونجوم الليل تحكي ... ذهباً في لازورد

وكان المستظهر قد قرَّب إليه الكثير من وجوه القوم مثل أحمد بن برد، وابن حزم، وابن شهيد، وأكثر من وضع الدواوين، قال ابن حيان واصفاً تلك الحال:

«وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت على غير طائل، تنافسوها طالبوها، يومئذ بالأمل، فلم يحلوا منها بنائل، ولا قبضوا منها مرتزقاً، ولا نالوا منها مرتفعاً، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور، وعمل معصوب، خراب مستول، ومع سلطان فقير، لا يقع في يده درهم إلا من صبابة، مستغل جوف المدينة، أو نهب مفلول ممن تقلقل عنها، يقيم منه رقعة، ويفرق حملته على من تكنفه من جنده ودائرته، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رغبته، فلم يلبث الأمر أن تفرَّى به فسُفِك دمه، وانحسم الأمل من دولته».

ومن طرائف توليته أنَّ قادة قرطبة قد رأوا أن يتم الاختيار بين ثلاثة من بني مروان هم سليمان المرتضى، ومحمد بن العراقي، وعبدالرحمن بن هشام الناصري «المستظهر بالله»، وكان العزم معقوداً على تولية سليمان المرتضى؛ وقد أعلنت البيعة والخطب لذلك، فتأخر عبدالرحمن بن هشام وفاجأهم بجيشه فلزموا طاعته، وكان أحمد بن برد قد كتب العقد باسم سليمان المرتضى، فلما علم بدخول عبدالرحمن بن هشام وانتزاع الأمر بالقوة ورأى مبايعة أبناء عمه له، حك اسم سليمان المرتضى وكتب اسم عبدالرحمن بن هشام، وهذه من عجائب الأندلس ومآسيها في تلك الحقبة من الزمن.

كان عمر الخليفة الجديد عبد الرحمن بن هشام يوم توليه ثلاثة وعشرين عاماً، وكانت الآمال معقودة عليه، غير أنه وفد إليه بعض من البرابرة فاستقبلهم، وكان أهل قرطبة قد فاضت قلوبهم بالحقد عليهم واستوطنت الكريهة سويداء قلوبهم، فكان هذا الاستقبال ذريعة استغلها ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن الناصر لنيل الخلافة وقتل المستظهر.

فقد تقدم محمد بن عبد الرحمن إلى القصر ومعه عامة أهل قرطبة الحاقدين على البربر، فهرب من استطاع الهرب ممن كان داخل القصر، وقتل كثير ممن لم يستطع الهرب، أما المستظهر فقد دخل الحمام وانزوى في أحد زواياه فقبض عليه وثيابه قد علقها الكدر من وسخ الكنيف، وقدم إليه ابن عمه محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفي فقتله شر قتلة، ولم يمض على توليه الخلافة سوى خمسة وأربعين يوماً.

كما تم سبي أهله، وهذه مأساة من نوع جديد لم تعرف قط قبل ذلك، فكيف تسمح مروءة محمد بن عبد الرحمن المستكفي بأن تستحل حرائر بني أمية ليذهب بهنَّ السوقة واللصوص إلى منازلهم سبياً، لكنه مؤشر على مآسي الأندلس التي خبت فيها كثير من القيم التي أمرهم بها دينهم حتى أصبح سبي بنات الخلفاء من قبل الدهماء أمراً مباحاً على مرأى ومسمع خليفة جديد لم يكن بينه وبين ابن عمه من العداوة والبغضاء ما يستحق القتل فما بالك بانتهاك حرمات نساء بني مروان.



محمد بن عبدالرحمن المستكفي

قال ابن حيان: «بويع محمد بن عبدالرحمن الناصري يوم قتل عبدالرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة، فتسمى بالمستكفي بالله، اسماً ذُكِرَ له فاختاره لنفسه، وحكم به سوء الاتفاق عليه لمشاكلته لعبدالله المستكفي العباسي – أول من تسمى به – في أفنه ووهنه وتخلفه وضعفه، بل كان هذا زائداً عليه في ذلك، مقصراً عن خلال ملوكيةٍ كانت في المستكفي سميّه، لم يحسنها محمد هذا لفرط تخلفه على اشتباهه في سائر ذلك كله: من توثبهما في الفتنة واستظهارهما بالفَسَقَة، واعتداء كل واحد منهما على ابن عمّ ذي رَحِمٍ ماسَّة، وتوسط كلٌّ واحد منهما في شأنه بامرأة خبيثة، فلذلك حسناء الشيرازية، ولهذا بنت سكرى المورورية، فأصبحا في ذلك على فرط التنائي عبرة».

وقال صاحب كتاب نقط العروس: «ومن العجب اتفاقهما في الأخلاق، وفي العمر، واللقب، وأنَّ كل واحد منهما خُلع عن الأمر، وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً».

قال ابن حيان: «ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في ورد ولا صدر، إنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبلية، إذ كان منذ عُرف غُفْلاً عُطُلاً منقطعاً إلى البطالة، مجبولاً على الجهالة، عاطلاً من كل خُلّةٍ تدُل على فضيلة، عضَّتْهُ الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصَّدقة، رأيته أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره، يقصد أهل الفلاحة أَوَانَ ضمهم لغلاَّتهم يسألهم من زكاتها تكليماً ومخاطبة».

وبالجملة في تلخيص التعريف بأمره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس في الإمارة مدة تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقصُ، إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة، مشتهراً بالشرب والبطالة، سقيم السر والعلانية، أسير الشهوة، عاهر الخلوة، ضداً لقتيله عبدالرحمن المستظهر في اللبّ والمعرفة، وكان افتتح هذه السنة المؤرخة القاسم بن حمود بخلافته، واختتمها هذا المستكفي المذكور، وكان بينهما عبدالرحمن المستظهر القتيل، فتصرمت تلك السنة النكدة عن ثلاثة خلفاء، وهذا من غريب الأنباء، ولله البقاء السرمدي.

وقُلِّدَ هذا المستكفي الأمر ولم يكن من أهله، فتلقى جميع الناس بالإيناس، واستمالهم بالأهوية، ورأى أنَّ المال عزيز، فظن البشر الرخيص يقوم مقامه أو ينوب منابه، فكان يقول للناس أجمعين: ارتعوا كيف شئتم، وتسموا بما أحببتم من الخطط، فتسمى بالوزارة في أيامه مفردةٌ ومثناةٌ أراذل الدائرة، وأخابث النظار، فضلاً عن زعانف الكتاب والخدمة، وأما الشرطة العليا وما دونها من رفيع المنازل، فحملها كثير من التجار والعامة، وانثال الناس على ابتغاء هذه المنازل عند السلطان بالطماعية في كرَّةِ الدولة، فغشوا بابه، وعمروا فناءه، وتعللوا بالمعنى، فلما استبانوا ضعفه رفضوا خططهم، وتبرَّأ كثيرٌ منهم منها، وأقسم أنه لم يتقلدها، ولا سيما عند تكرر التقسيط عليهم للغرامة عند إلحاح الإضافة، فجرت لبعضهم عند الانتفاء عن تلك الخطط نوادر ظريفة مضحكة، وانتهى هذا التنوية العام بهذا الملك الهمام إلى أن فضه أيضاً في طبقات أهل العلم، فأسهم منهم الفقهاء، فآثر العلية منهم المشاورين أصحاب الفتوى بالإرقاء إلى خطة الوزارة، خالطاً بهم فيها زعانف الخدمة، وكبار الدائرة والنظار، وجاؤوا في ذلك بطامة لم تسمع في الأعصر الخالية، فأخطؤوا وألحقوا بالدين وصمة، وطلبوا زيادة المُعتلى على العامة، ففتنوا بهذه الخطة، وشدُّوا أيديهم عليها، وهجروا من حطهم في الخطاب عنها، مُعرضين بما يعاب من ذلك، إلى أن مضوا بسبيلهم، وارتقى المستكفي أيضاً بكثير ممن يحمل المحابر، ويدرس مسائل الدفاتر من أصاغر الطبقة الفقهية إلى ما بلغت عليتهم من منزلة الشورى، فوسم كافتهم بوسم الفتوى، فأسرف في ذلك حتى بلغ عددهم بقرطبة يومئذٍ إلى الأربعين، وذلك ما لم يُعهد في الغابرين.

وكثر الإرجاف بتغيير رجال الدائرة، فاضطربت قرطبة لكثرة من كان فيها من المردةِ، فقبضَ على جماعة من بني عمه وحاشيته منهم علي بن أحمد بن حزم، وعبدالوهاب ابن عمه، وسجنوا بالمطبق، ثم عاجل المستكفي ابن عمه عبدالعزيز العراقي، فخُنِقَ وأمسى ميتاً ونعاهُ إلى الناس فلم يخف عليهم اغتياله.

وفي أيام المستكفي هذا استؤصل بقية قصور جده الناصر بالخراب، وطمست أعلام قصر الزهراء، واقتُلع نحاس الأبواب ورصاص القُنِيّ، وغير ذلك من الآلات، فطوى بخرابها بساط الدنيا، وتغير حسنها، إذ كانت جنة الأرض، فعدا عليها قبل تمام المائة

من كان أضعف قوة من فأرة المسك، وأوهن بنية من بعوضة النمرودة، والله يسلط جنوده على من يشاء، له العزة والجبروت».

وبعد أن ضاق أهل قرطبة ذرعاً بالمستكفي، لجأ نخبة من المفكرين والأعيان ومن هؤلاء الوزير والشاعر أبو عامر بن شهيد إلى يحيى بن علي بن حمود الحسني بجالة، ووصفوا له الحالة، وألحُّوا عليه بإنقاذ قرطبة من الهلاك على يد المستكفي، فتمنَّع ثم تردد ثم أقدم على المضي إلى قرطبة، وعندما قدم يحيى بن علي طلبوا من المستكفي التخلي، فاستعطفهم بلين القول ثم غادر القصر مستخفياً في زي امرأة، وسار متجهاً إلى الثغر مع نفر من أصحابه، فاغتاله بعض مرافقيه ظناً منهم أنه يحمل مالاً كثيراً.

قال صاحب الذخيرة: «فخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغانيات متنقباً بين امرأتين لم يُميّز منهما لمرانه على التخنيث، وخرج من قرطبة فمات بإقليش، فكانت دولته سبعة عشر شهراً صعاباً نكدات، سوداً مشوهات».

ومن الأجدر عدم الخوض فيما حدث بعد مقتل المستكفي من أمور لا تستحق الذكر،فقد ضاق أهل قرطبة ببني أمية فقرروا عدم مبايعة أحد منهم، وتزعم أمرهم هذا الوزير أبو محمد جهور بن محمد بن جهور زعيم الجماعة وكبير قرطبة، فتولى الأمر بنفسه ليكوِّن ممالك الطوائف، أما في إشبيليه فكان القاضي ابن عباد قد انفرد بها وأظهر بيعة لهشام المؤيد مقنعاً الناس بأنه لازال حياً، وهي منكرة أخرى من المناكر الكثيرة.

قال المقري: «وانقطعت الدولة الأموية من الأرض واندثر سلك الخلافة في المغرب وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالخزي للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان حتى قطع إليهم البحر ملك العدوة، وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، فخلعهم وأخلى منهم الأرض».

وحتى نستشهد على ما وصل إليه ذلك الوضع في العصور المتأخرة من انحطاط ومجون ونفاق نورد هذه القصيدة التي قالها أبو زيد الفنداقي الأشبوني في أحد خلائف تلك الحقبه:

ألبرق لائحٍ من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عاريةً ... كمخاريق بأيدي اللاّعبين
ولصوت الرّعد زجرٌ وحنين ... ولقلبي زفراتٌ وأنين
وأناجي في الدّجى عاذلتي ... ويك لا أسمع قول العاذلين
عيّرتني بسقام وضنىً ... إنّ هذين لدين العاشقين
قد بدا لي وضح الصبح المبين ... فاسقنيها قبل تكبير الأذين
اسقنيها مزة مشمولةً ... لبثت في دنها بضع سنين
نثر المزج على مفرقها ... درراً عامت فعادت كالبرين
مع فتيان كارم نجب ... يتهادون رياحين المجون
شربوا الراح على خدّ رشاً ... نوّر الورد به والياسمين
وجلت آياته عامدةً ... سبج الشّعر على عاج الجبين
لوت الصّدغ على حاجبه ... ضمّة اللاّم على عطفة نون
فترى غصناً على دعص نقاً ... وترى ليلاً على صبحٍ مبين
وسيسقون إذا ما شربوا ... بأباريق و (ماء) منٍ معين
ومصابيح الدّجى قد طفئت ... في بقايا من سوادٍ الليل جون
وكأنّ الظلّ مسكٌ في الثّرى ... وكأنّ الطّلّ درٌّ في الغصون
والنّدى يقطر من نرجسه ... كدموعٍ أسبلتهنّ الجفون
والثريّا قد هوت من أفقها ... كقضيبٍ زاهرٍ من ياسمين
وانبرى جنح الدّجى عن صبحه ... كغرابٍ طار عن بيضٍ كنين
وكأنّ الشّمس لمّا أشرقت ... فانثنت عنها عيون النّاظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علي ... بن حمّود أمير المؤمنين
ملكٌ ذو هيبة لكنّه ... خاشعٌ للّه ربّ العالمين
خطّ بالمسك على أبوابه: ... ادخلوها (بهدوء) آمنين
فإذا ما رفعت راياته ... خفقت بين جناحي جبرئين
وإذا أشكل خطبٌ معضلٌ ... صدع الشكّ بمصباح اليقين
فبيسراه يسار المعسرين ... وبيمناه لواء السّابقين
يا بني أحمد يا خير الورى لأبيكم ... كان وفد المسلمين
نزل الوحي عليه فاحتبى ... في الدّجى فوقهم الرّوح الأمين
خلقوا من ماء عدلٍ وتقىً ... وجميع الناس من ماء وطين
انظرونا نقتبس منٍ نوركم ... إنّه من نور .... العالمين

شعر كهذا، يمدح به خليفة، فيستهويه !!! إنه غاية الانحطاط.

نعم، إنها مأساة الأندلس صنعت بأيدي أصحابها من أجل الجاه والمال والانتقام والتشفي والسبايا والغلمان والشراب والملذات والقيان والمحظيات، وغابت في مراحل عديدة كثير من المكارم التي أمر بها الدين، مثل المروءة، ونبل الغاية والمقصد، والترفع عن الرذيلة، وعلو الهمة.

وأدلى الأعداء بدلائهم، واجتهدوا قدر استطاعتهم، ورموا بحبائلهم، فكان الماء غزيراً، والصيد سهلاً، ولنا أن نردد قول ابن رشيف:

مّما يزهّدني في أرض أندلس تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وقبل أن ندلج إلى عصر الطوائف لن تطيب النفس دون إيراد شيء من قصة «ولاّدة» بنت الخليفة المستكفي مع الشاعر المشهور أبي الوليد بن زيدون، ولعل هذه حسنته الوحيدة، قال ابن بسام:

«وأما ولادة التي ذكرها أبو الوليد بن زيدون في شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري، وكانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يغشو أهل الأدب إلى ضوء غرَّتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، وإلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلطُ ذلك بعلُوّ نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب. على أنها – سمح الله لها، وتغمد زللها – اطّرحتِ التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها. زعموا أنها كتبت على أحد عاتقي ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على الآخر:

أُمكنُ عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولها مع أبي الوليد ابن زيدون أخبارٌ طوالٌ وقِصار، يفوت إحصاؤها، ويشق اقتصاؤها.

قال أبو الوليد ابن زيدون: كنت في أيام الشباب، وغمرة التصاب، هائماً بغادة، تُدعى ولاَّدة، أرى الحياة متعلقة بقربها، ولا يزيد في امتناعها إلا اغتباطها بها، فلما قُدّر اللقاء، وساعد القضاء، كتبت إلّي:

ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي ... فإني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا ... وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، وأقبلت بقدٍ كالقضيب، وردفٍ كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المُقل، على ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبج، وظل سَجْسَجْ، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودُر الظل منثور، وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها، وأدركت فينا ثارها، باح كل منَّا بحبه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتْنا بليلة نجني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور.

فلما انفصلتُ عنها صباحاً أنشدتها ارتياحاً:

ودَّع الصَّبْرُ محبٌ ودَّعَك ... ذائعاً من سرّه ما استودَعكْ

يقْرُع السِّنَّ على أن لَم يكُن ... زادَ في تلك الخُطَا إذ شَيَّعَك

يا أخَا البدر سَنَاءً وسَنًى ... حَفِظَ الله زَماناً أطلَعك

إن يطُل بَعدَك ليَلِى فلَكَم ... بِتُّ أشكُو قِصَرَ اللَّيلِ مَعَك

قال أبو الوليد: وكانت عُتبةُ قد غنتنا:

أحبتنا إني بلغت مؤمّلي ... وساعدني دهري وواصلني حبي

وجاء يهنيني البشير بقربه ... فأعطيته نفسي وزدت له قلبي

فسألتها الإعادة، بغير أمر «ولاَّدة»، فخبا منها برق التبسم، وبدا عارضُ التجهم، وعاتبت عتبة، فقلتُ:

وما ضَربت عتبى لذنبٍ أتت به ... ولكنما ولاَّدة تشتهي ضربي

فقامت تجُرُّ الذيل عاثرة به ... وتمسح طل الدمع بالعنم الرُّطب

فبتنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودم المدام مسفوك، ومأخذ اللهو متروك.

فلما قامت خطباء الأطيار، على منابر الأشجار، وأنفت من الاعتراف، وباكرت إلى الانصراف، وشّتْ بمسك الأنفاس، على كافور الأطراس فقالت:

لو كنتَ تُنصفُ في الهوى ما بيننا ... لم تهوَ جاريتي ولم تتخير

وتركت غُصناً مُثمراً بجماله ... وجنحت للغصن الذي لم يثمر

ولقد علمتَ بأنني بدر السما ... لكن دُهيتَ لِشِقْوَتي بالمشتري

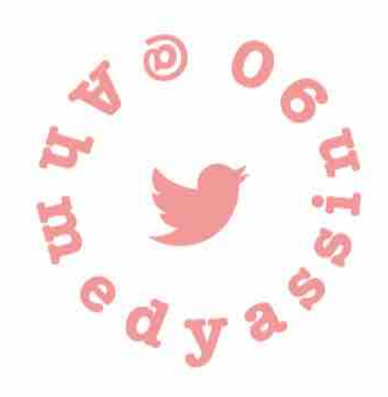
هذه قطرة من بحر علاقة ولاّدة بنت الخليفة المستكفي بابن زيدون الشاعر الوزير السفير، وما كانت لابن زيدون وحده محبة، فغيره في حبها نصيب ومن أولئك أبو عامر الوزير، الذي زاحمه على قلبها فألهمته المزاحمة نفث سحر شعره ونثره، والحديث عن صراعهما على قلبها يطول، والمنافسة على مآنستها راسخ لا يزول، ولنا أن نورد قصة لها مع أبي العامر الوزير تدل على ذكاء خاطرها، وحرارة نوادرها، فإنه آية من آيات فاطرها: مرت بالوزير أبي عامر ابن عبدوس وكان بقرطبة أحد أعيان المصر، وبعض من هذى باسمها، وتصرف على حكمها، وأمام داره بركة دائمة تتولد عن كثرة الأمطار، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقذار، وقد نشر أبو عامر كُمَّيه، ونظر في عطفيه، وحشر أعوانه إليه، فقالت له: أبا عامر:

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحر

فتركته لا يحيرُ حرفاً، ولا يرد طرفاً، وطال عمرها وعمر أبي عامر حتى أربيا على الثمانين، وهو لا يدعُ مواصلتها، ولا يغفل مراسلتها، وتحيف هذا الهرُ المستطيل حال ولادة، فكان يحمل كَلَّها، ويرقع ظِلَّها، على جدب واديه، وجمود روائحه وغواديه، أثراً جميلاً أبقاه، وطلقاً من الظرف جرى إليه حتى استوفاه».

أليس من الجميل أن نختم هذا الجزء من المآسي، بشيء من قصص ولادة، ونظم ابن زيدون؟ وهذا من شواهد مجتمع ذلك العصر.



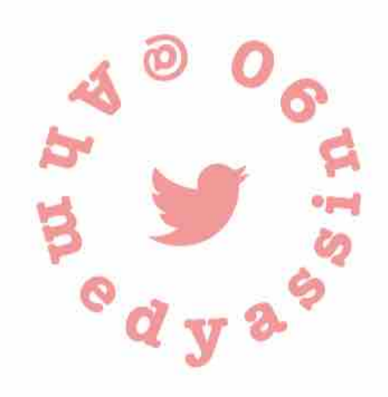

@Ahmedyassin90

الفصل الخامس

حكام الطوائف

- ابن جهور في قرطبة.
- بني العباد في إشبيلية.
- المعتمد بن عباد.




@Ahmedyassin90

حـكام الطـوائــف

عندمـا وهنـت الخلافة الأمويـة، استأسـد كل حاكم ولايـة وأعد العـدة لامتلاك ما تحـت يده، وبعـد أن سقطت الخلافة الأموية انفرط عقد الدولـة وتقاسم العرب والبربر والصقالبـة أوصـال الأندلس، فانقسمت إلى دويلات زادت عـن العشرين، ومن أشهرها دولـة بنـي جهور بقرطبة، ودولة بني عباد في إشبيلية، ودولـة بني الأفطس في بطليموس، ودولة بني ذي النون في طليطلة، ودولة بني حمود في مالقة، ودولة بني هود في سرقسطه، ودولة بني سناد في غرناطة، ودولة الفتيان الصقالبة في بلنسية ومرسية ودانيه والمرية.

وقـد أفردت ذكـراً منفصلاً عن بني جهور وبني عباد، وتحدثـت عن بعض الدويلات الأخـرى في ثنايا الكتاب بما يستدعيه السياق، وقد جلب حكام هذه الدويلات من المآسي أَجَلَّهـا، ومـن المصائب أشنعها، وكان أكبر فتنة اقترفوهـا الاستعانة بالنصارى للاقتتال فيمـا بينهـم، والخنوع في دفع المكوس والضرائب لجيرانهـم في الشمال، طمعاً في التغلب على أرض ومال، ومحظيات ونوال، اقتطعها كل منهم بعد انهيار العهد الأموي.

كان المجتمـع الأندلسـي في عصرهـم يعيشـ في بؤس وفقر وخوف دائـم من قبل ولي أمرهم أو من غزو المنافس له، كان عليهم أن يدفعوا الكثير من المكوس والضرائب لينعم هـؤلاء الحكام بالانغماسـ في ملذاتهم، وليقضوا به شهواتهم، هذا بعـد أن يتم دفع جُلِّه للواقف على رؤوسهم والمتربص بهم، يدفعونه عن يدٍ وهم صاغرون.

ولابـد لشاعرهـم وأديبهم وحتـى فقيههم أن ينافقهـم فيما يفعلـون، ويمالأهم فيما يأتـون لينال شيئاً مـن العطايا يتفضل بهـا أصحاب القصور الباذخة مـن هؤلاء الولاة، قـال ابن حيـان واصفاً الحال: «وكانت طوائف الروم، مدة ملوك الطوائف بأفقنا قد كلب داؤهـم بكل إقليم، فلاطفوهم بالاحتيال، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقيـاد، ودَأْبُ النصـارى التسلط والعنـاد، حتى اسطفوا الطريـف والتلاد، وأتى على الظاهـر والباطن تلفاً، بما كانـوا ضربوا على أنفسهم من الضريبـة، وإلى ما يتبعها من هديـات ونفقـات»، وشِعْرُ العصرِ شاهـد بالأمر كقول حسان بـن المصيص بمدح المعتمد يهوِّنُ عليه تلك الأتاوات من جملة أبيات:

تحيَّلُ في فكِّ الأسارى وإنما ... تُعاقِدُ كفاراً لتطلق مسلما
وماكنت ممن شح بالمال والقنا ... فتكنز ديناراً وتركز لهذما
فترسله للصفر أصغر عسجد ... وإن خالفوا أرسلت أبيض مخذما
ولو تطو دون المسلمين ذخيرة ... تهين كريم المُنفسات لِتُكْرِما

ونورد موقفاً للشاعر أبي بكر الدائن، يبرر فيه دفع المعتمد بن عباد الجزية للنصارى، ويخرج له التأويل، ويبحث له عن تعليل، فيقول: إن ما تدفعه لهم ليس سوى خدعة لهم حتى يأكلوا ويشربوا فتمتلأ بطونهم فيصيبهم الضرر من الشبع، فأنت الأدرى بما تأتي وما تدع.

قال منشداً أمام المعتمد بن عباد:

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته ... تلقى النصارى بما تلقى فَتَنْخَدِعُ
تبيعهم نعماً في طيِّها نقمٌ ... سيستضر بها من كان ينتفع
وقلَّما تسلمُ الأجسامُ من عرضٍ ... إذا توالى عليها الري والشبع
لا تخبط الناس عشوا عند مشكلة ... فأنت أدرى بما تأتي وما تدع

وقال ابن بسام بعد أن أورد هذه الأبيات: «وهذا مدح غرور، وشاهد زور، وملق معتف سائل، وخديعة طالب نائل، وهيهات، بل حلَّت الفاقرة بجماعتهم».

حين أيقن النصارى بضعف المُنَن، وقوت أطماعهم بافتتاح المدن، واضطرمت في كل مكان جهة نارهم، وروت من المسلمين أسنة شفارهم، ومن أخطأه القتل منهم فإنما هو بأيديهم سبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، حتى دنوا مما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب».

ومن الإنصاف القول إن بعضاً منهم لاسيما أبو الحزم ابن جهور، قد هدأ بعد روع، وآمن بعد خوف، فكان خير أولئك في فترة حالكة.



ابن جهور في قرطبة

قرطبة عاصمة المسلمين في الأندلس وقاعدة حكمهم، ولهذا فقد نالت نصيب الأسد من المآسي التي حلت بالأندلس، وحلَّ الخراب بالحرث والنسل والعمران، فقطعت أشجارها، وأحرقت دورها مرات عديدة، كما سويت بعض ضواحيها بالأرض مثل الزهراء والزاهرة، وفُقِدَ الكثيرُ من أنجب الرجال، وسُبي بها أشرف النساء، وقد خلع آخر خلفاء بني أمية الخليفة المستكفي بالله، ورجع الأمر إلى يحيى بن علي الحسني، ثم انقطعت دعوته وخوت قرطبة من الخلافة والقيادة، فأجمع أهل قرطبة ردَّ الخلافة على بني أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن أبي عبدة، كان جده الأبعد مولى لعبد الملك بن مروان، وقد قضى على كل من كان ينافس في الرئاسة، إما قتلاً في أثناء الفتنة، أو حتفاً رغم أنفه، فانبرى للأمر جهور بن محمد بن جهور، فراسل الثغور استئناساً بالرأي، فاتفقوا على تولية هشام بن محمد بن عبد الملك الناصري وأمه أم ولد اسمها «عاتب»، لكنَّ هذا الخليفة المسكين خلع بعد مدة يسيرة، خلعه الجند، فانقطعت بهذا الدعوة الأموية، فعاد الأمر إلى جهور، وكان من وزراء الدولة العامرية قديم الرئاسة، موصوفاً بالدهاء والعقل، لم يدخل في أمور الفتنة قبل ذلك، وكان يتصاون عنها، فلمَّا خلا له الجو وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها، واستضلع بحمايتها، ولم ينتقل على رتبة الإمارة ظاهراً بل دبرها تدبيراً لم يُسْبَقْ إليه، وجعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء مستحق يثق به فيسلم إليه، كما ذكر ذلك ابن حزم.

وعلينا أن نتذكر أنه قد تولى الوزارة لعلي بن حمود الحسني مؤسس الدولة الحمودية، وقد نقم عليه واعتقله وصادر أمواله، فلما ثار أهل قرطبة ببني حمود وأنصارهم من البربر، كان أبو الحزم بن جهور رأس رمح تلك الثورة، وربما قرر في غير إيضاح أن يصطفي الأمر لنفسه عندما تكون الفرصة مناسبة فكان ما كان.

وأبو الحزم بن جهور، لم يتسم بخلافة أو إمارة، ولم يغير من حاله، بل سار كما في سابق عهده عميداً للجماعة يستشيرهم في الأمور الجسيمة، ويتعذر من كل طالب نوال بأن الأمر بيد الجماعة، وأن ليس له حق في مال أو إمضاء.

وقد رتب الأمور فأحسن، ودبر الحكم فأجاد، فبقيت دولته مآل الهاربين من حكام الأقاليم، ومأمن الخائفين من الظالمين، فكان خير حاكم لها بعد فترة من الفتن المتلاحقة.

وحري بنا أن نذكر موقفاً يدل على دهائه، فقد أعلن بنو حمود أعداؤه وأعداء ابن عباد في إشبيلية أنهم أصحاب الحق، فزعيمهم يحيى بن علي بن حمود «المعتلي» سبق أن توشح بثوب الخلافة وبويع له بها ثم خلع عنوة، وكان هذا مطلب يصل إلى أفئدة الناس، لأنهم يرون أنَّ من العدل والدين الانطواء تحت لواء خليفة موجود طالما لا يوجد خليفة بديل، فهبَّ القاضي ابن عباد وادعى كذباً أنَّ هشام المؤيد موجود لديه، وأنه ليس سوى حاجب يأتمر بأمره، وسبحان الله، فها نحن نرى هشاماً المؤيد المحتجز عليه دائماً يتكرر موته وتتكرر حياته لأغراض ومرام التشبث بالسلطة.

لقد أيد أبو الحزم بن جهور في قرطبة صاحبه ابن عباد في إشبيلية هذه الفرية مع يقينه أنها كذب بواح، وفرية تُحقَّقُ بها غاية، كما قيل إن أبا الحزم قد اصطنع شهادات لهذا وأنه ندم بعد ذلك.

استمر حكم أبي الحزم ابن جهور الجماعي اثني عشر عاماً، كان فيها عفيفاً، بعيداً عن اللهو، عادلاً مدبراً، لم يظهر قط مظاهر إمارة أو حكم، فخلت قرطبة من المآسي مدة عهده، لكن كان عهده بداية لترسيخ حكم الطوائف.

وبعد وفاته تولى حكم قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور وسار على نهج أبيه في بداية عهده، وقرَّب إليه أبا الوليد بن زيدون وعهد إليه بالسفارة بينه وبين رؤساء الأندلس لعظيم دهائه وحنكته وقوة حجته، فلمع في منصبه واشتهر ببارع رسائله ومحاوراته، وفي أحد سفاراته التي أنيط بها عنَّ له مطلب بحضرة إدريس بن علي الحسني بمالقة، فأطال الثواء هنالك، واقترب من إدريس فخفَّ على نفسه وأحضره مجالس أنسه، فعتب عليه أبو الوليد بن جهور وصرفه عن ذلك التصريف قبل قفوله، ثم عاد إلى جميل رأيه فيه، وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة.

وهناك من يقول إن ابن زيدون الشاعر السياسي كانت له يد في الفتنة التي قضت على الدولة الأموية وأحلت بدلاً عنها الدولة الجهورية في قرطبة وأنَّه رأس الفتنة الطائفية.

قال أبو مروان: وكان أبو الوليد «ابن زيدون» من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة في أيام الجماعة والفتنه، وفَرَعَ أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه، فذهب به العجب كل مذهب، وهوَّن عنده كل مطلب، وكان علقه من عبدالله بن أحمد المكوي، أحد حكام قرطبة، ظفر أحجَنُ أدَّاه إلى السجن، فألقى نفسه يومئذ على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي الحزم، فتشفع له وانتشله من نكبته، وصيره في ضائعته، ولما ولي الأمر بعد والده، نوَّه به وأنسى خطته، وقدمه في الذين اصطنعهم لدولته، وأوسع راتبه، وجلله كرامة لم تقنعه.

والخلاصة أنَّ هذا الشاعر العظيم، والسياسي الماهر، اتهم من قبل حساده بأنه يروم تغيير الحكم بقرطبة لفرط طموحه، فكان ما كان، وذهب ابن زيدون من قرطبة إلى إشبيلية، فكان سقوط قرطبة في يد المعتمد صاحب إشبيلية على يده كما سيأتي لاحقاً. ندع ابن زيدون لنعود إلى أحوال قرطبة فنقول:

بعد مدة من الزمن، كبر أبناء أبي الوليد بن جهور ومنهم عبدالملك، فقدمه على الناس ولم تكن سيرته مماثلة لسيرة أبيه وجده، فخالفهما مخالفة جعلت النفوس عنه تميل، والعقول عن ولائه تحول، وتسمى بذي السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله، وخطب له على المنابر خلافاً لما كان من أبيه وجده من البعد عن المظاهر والبذخ، وكان ابن السقاء وزير ذلك العهد، سديد الرأي، حسن التدبير، وأراد ابن عباد حاكم إشبيلية التخلص منه فسعى لدى عبدالملك في حقه، وربما يكون لابن زيدون يد في ذلك، فقتل الوزير في كمين.

وقد احتدم التنافس بين أبناء أبي الوليد، أعني عبدالملك المقرب من قلب أبيه بالرغم من أنه الأصغر سناً وبين عبدالرحمن الأكبر سناً الذي يرى أنه أحق بالأمر من أخيه.

وإذا الفتى فقد الشباب سما له — حبُّ البنين ولا كحب الأصغر

وأبو الوليد محمد بن جهور أسير منزله لشلل أصابه، فما لبث عبدالملك أن أطاح بأخيه وأودعه السجن، فرأى حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون أنَّ الوقت مناسب للهجوم على قرطبة وضمها إلى ما تحت يده، فلما علم عبدالملك بالأمر، استغاث بالمعتمد بن

عبـاد حاكـم إشبيلية بعد وفاة أبيه، فقدم بجيشه قاصـداً قرطبة، فدارت معركة انتصر فيها جيش الحليفين عبدالملك بن جهور والمعتمد بن عباد. وعاد جيش يحيى بن ذي النون إلى طليطلة، وسار الجيشان الحليفان إلى قرطبة، وودعا عبدالملك بن جهور، ثم التفا معاً ودخل جيش ابن عباد قرطبة بمعاونة جيش عبدالملك بن جهور في خدعة تم تدبيرها وأمر دبر بليل بين قائدي الجيشين، فطلب الأمان، ورحل مع أخيه ووالده إلى مدينة شلطبش.

وهناك من يقول إنَّ أبا الوليد بن زيدون كان لها فاعلاً، وبدهائه مدبراً، ولمكانته عند أهل قرطبة مستغلاً.

وتـوفي أبو الوليد بن جهور بعد أربعين يوماً مـن إزاحته، وبهذا تنتهي دولة بني جهور، وتكبر دولة بني عباد.

قال الشاعر:

ومـن يجعل الضـرغام للصيد بـازه تـصـيـده الـضـرغـام ممـن تـصـيـدا



بني عباد في إشبيلية

هم عرب أقحاح يعودون في نسبهم إلى لخم من أهل العريش بمصر، دخل جدهم الأعلى في طالعة بلج بن بشر القشيري، وقد اختلف شيخا المؤرخين ابن حيان وابن بسام في وصف دولة بني عباد طبقاً لظروف كل منهما، فابن حيان معاصر لها، بينما ابن بسام عاش بعدها بقليل؛ ولذا نجد أنَّ ابن حيان أكثر مواربة ربما خوفاً من غائلة، أو طلباً لنائلة، في الوقت الذي كان فيه ابن بسام متحرراً من قيود المعاصرة التي قد تحدو به إلى المصانعة.

وبدأ شأن آل عباد بجدهم القاضي إسماعيل بن عباد، وكان ينفق من ماله وغلاَّته الخاصة، ولم يجمع درهماً قط من مال سلطان ولا خَدَمه، وكان معلوماً بوفور العقل، وسيوغ العلم، والركانة، مع الدهاء وبعد النظر وإصابة الفرصة.

كانت الفتنة في قرطبة قائمة، وكان إسماعيل بن عباد قاضي إشبيلية يجمع حبوب العقد في يده منتظراً نسجها عندما يئين الأوان، بعد أن يتيقن بزوال الخلافة، وتفرُّق الجماعة، وكان ورعاً خيراً بعيداً عن الخنى قريباً من الجلَّى، تولى الشرطة في زمان هشام المؤيد، ثم القضاء، وكان ثريّاً ثراءً لا يجاريه فيه غيره، ومع ثرائه كان سخياً نبيلاً، وقد ساعده المال في التحضير، والدهاء في التدبير، والعلم في المهابة وحسن التفكير، وبعد أن كفَّ بصره، ووهن جسمه، ندب ابنه محمداً ليشغل مكانه في القضاء، فوافق القاسم بن حمود حاكم إشبيلية على توليته القضاء بعد وفاة أبيه إسماعيل، وبعد ذهاب القاسم بن حمود إلى قرطبة لتولي الخلافة هناك وكان يلقب بالمستعلي، خلا الجو لمحمد بن عباد، فاختار رؤساء إشبيلية ثلاثة نفر جعلوا لهم أمر مدينتهم فأحسنوا التدبير، وأكملوا التصريف، وبعد أن خلع القاسم بن حمود عندما ثار عليه أهل قرطبة عاد إلى إشبيلية، لكن محمد بن عباد ومن معه أوصدوا الأبواب عنه ودفعوا بأبنائه إليه واتفقوا معه على إعطائه المال شرط عدم دخوله إشبيلية على أن يُخْطَبَ له في الخلافة.

وبهذا انفرد محمد بن عباد برئاسة إشبيلية، وهنا تبدأ المآسي الأندلسية في عهد الطوائف بالصراع المرير الذي انتهى إلى ما انتهى إليه.

وكانت أول راية حرب يرفعها محمد بن عباد ضد بني الأفطس حكام بطليموس القاطنين في شمال إشبيلية، وكان حاكم قرمونة يشترك مع محمد بن عباد في خشية آل حمود، لكنهم اتحدوا واتجهوا لقتال ابن الأفطس متنافسين معه على مدينة باجة.

والراية الحربية الأخرى كانت ضد بني الأفطس مرة أخرى، حيث ظن محمد بن عباد أنه قادر على سحقهم فأرسل ولده إسماعيل على رأس جيش كبير، فكانت الدائرة على محمد بن عباد، وقتل ابنه إسماعيل وقتل معه جمع من المسلمين بأيدي مسلمين، لتضاف مأساة جديدة إلى مآسي عصر الطوائف.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ محمد بن عباد هو أول من ابتدع رجعة هشام المؤيد الثالثة، فزعم أنه أفلت من يد الخليفة سليمان المستعين ولم يمت، وأنه ذهب إلى المشرق وعاد، فدبت تلك المقولة المزعومة دبيب النار في الفحم، وأشخصوا الرسل للوقوف على عين هشام وتثبيت الشهادة فيه، وزوَّر ابن جهور وغيره في ذلك شهادات على علم منهم ابتغاء عرض الدنيا وإذعاناً من ابن جهور أيضاً لما رآه من دفع ابن حمود الفاغر فاه على حضرة قرطبة، ثم أعلن موته بعد استتباب أمره، فكانت الميتة الثالثة لحامل هذا الإسم، وعساها تكون إن شاء الله الصادقة، فكم قتل وكم مات، وكم انتفض من التراب ومزَّق الكفن قبل نفخة الصور ووقعة الواقعة.

كان القاضي محمد بن عباد، زاخر العباب، متألق الشهاب، أدهى من أتهم وأنجد، يأخذ وكأنه يدع، ويطير فيحسب أنه وقع، وهو شاعر وأديب، وشعره يدل على طموحه وشغفه بالمال والجاه، مع ورعه وتقواه، فقال:

ولا بد يوماً أن أسود على الورى ... ولو ردَّ عمرو للزمان وعامرُ

فما المجد إلا في ضلوعي كامن ... ولا الجود إلا في يميني ثابرُ

فجيش العلى ما بين جنبيَّ جايلُ ... وبحر الندى ما بين كفَّيَّ زاخرُ

وتولى إشبيلية بعد محمد بن إسماعيل بن عباد ابنه عبَّاد، ولقب نفسه بالمعتضد بالله، تولى وعمره ستة عشر عاماً، وقال عنه ابن بسام في الذخيرة: «ثم أفضى الأمر على عباد ابنه سنة ثلاثة وثلاثون، وتسمى أولاً بفخر الدولة ثم بالمعتضد، قطب رحى الفتنة،

ومنتهى غاية المحنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولم يسلم منه قريب ولا بعيد، جبـار أبرم الأمور وهو متناقض، وأسد فرس الطلى وهـو رابض، متهور تتحاماه الدهاة، وجبـار لا تأمنـه الكماة، متعسف اهتدى، ومُنْبَتُ قطع فمـا أبقى، ثار والناس حرب، وكل شـيء عليه إلب، فكفى أقرانه وهم غير واحد، وضبط شأنه بين قائم وقاعد، حتى طالت يـده واتسع بلـده، وكثر عديده وعُـدَدَه، افتتح أمـره بقتل وزير أبيه حبيـب، طعنه في ثغر الأيـام، مَلَكَ بها كفَّه، وجبَّار من جبابرة الأنام، شرَّد به من خلفه، فاستمر يفري ويخلق، وأخـذ يجمـع ويفرق، له في كل ناحية ميـدان، وعلى كل رابية خِـوَان، حربه سمٌّ لا يبطئ، وسهم لا يُخطئ، وسِلْمُه شرٌّ غير مأمون، ومتاع إلى أدنى حين».

أما ابن حيان المعاصر لبني عباد فقد كان مادحاً له موارباً عيوبه، ملتمساً له الأعذار، مُقِّلا له الإعثار، فقال:

«أسـد الملـوك، وشهاب الفتنـة، وداحض العـار، ومدرك الأوتـار، وذو الأنبـاء البديعة، والحوادث الشنيعة، والوقائع المبيرة، والهمم العلية، والسطوة الأبية» إلى أن قال: «فلقد حمل عليه على مر الأيام في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود، والإبلاغ في المثلة، والأخذ بالظنَّة، والإخفار للذمة، حكايات شنيعة لم يبد من أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول يتساغ في ذكرها، ومهما برئ من مغبتَّها، فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلَّه، لم يحاشى فيها ذوي رحم واشجة».

ويكفي أن أنقل للقارىء الكريم فظائع المعتضد التي لم يسبق لها مثل قط سوى ما كان من قبل محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي.

فقد وضع المعتضد له حديقة كبيرة في قصره من رؤوس كبار أعدائه المسلمين، مزيناً بها قصر، ممتعاً بها عينه، جاعلاً في أعلى كل جمجمة اسم صاحبها المسلم!!!.

قال صاحب المقتبس في ذلك: «ومن نادر أخباره المتناهية الغرابة أن نال بغيته، وأهلك تلـك الأمم العاتية، وإنه لغائب عـن مشاهدتها، مُتَرَفِّهٌ عن مكابدتها، مدبِّر فوق أريكتها، منفـد لحيلهـا من جـوف قصـره، مـا إن مشى إلى عـدو أو مغلوب من قتاله غـير مرة أو مرتين، ثم لزم عريشته يدبر داخلها أموره، جرَّد نهاره لإبرام التدبير، وأخلص ليله لتملِّي

السرور، فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح، ويحيا عليها بقبض الأرواح، والتي لأناسيَّها من أعدائه بباب قصره حديقة تُطْلِعُ كل وقت ثمراً من رؤوسهم المهداة إليه، مقرطة الآذان برقاع الأسماء المنوه بحاملها، ترتاح نفسه لمعاينتها، والخلق يذعرون من التماحها، وهو واصل نعيم ليله بإحالة كبده، ومستدع نشاط لهوه بقوة أبده، له في كل شأن شُؤَين، وعلى كل قلب سمع وعين، ما إن سَبَرَ أحدٌ من دهاة رجاله غورَه، ولا أدرك قَعْره، ولا أمن مكره، لم يزل ذلك دأبه منذ ابتدائه إلى انتهائه».

وحديقة من رؤوس المسلمين كهذه قال عنها صاعد بن الحسين في حديقة الرؤوس التي أينعها محمد بن عبدالجبار الملقب بالمهدي:

جلاء العين مبهجة النفوس حدائق أطلعت ثمر الرؤوسِ
هناك الله مهدي المساعي جنى الهامات من تلك الغروسِ
فلم أر قبلها وحشاً جميلاً كريهُ ردائِه أنس الأنيسِ
فماذا يملأ الأسماع منها إذا مُلِئَت من ابناء الطروسِ

ولقد كان هناك ثلاثة رؤوس خصها بالصون، وبالغ في تطييبها وتنظيفها للثواء لا للكرامة، وأودعها المصاون الحافظة لها، فبقيت عنده ثاويه تجيب سائلها اعتباراً، وهي رؤوس أعدائه منهم: رأس الخليفة يحيى بن علي بن حمود، ورأس محمد البرزلي زعيم فرموته، ورؤوس الحجاب: ابن نوح وابن خزرون من رؤوس ليس بها رأس غير رأس مسلم، لتعطي دلالة واضحة على ما وصلت إليه عصور الطوائف من مآسٍ طالت الصغير والكبير، والرئيس والمرؤوس، والعامة والخاصة.

فيا لها من مآسٍ مضنية، وشواهد يقشعر منها البدن.

وكان ابن عباد قد أُعْطِيَ أيضاً من جمال الصورة، وتمام الخلقة، وفخامة الهيئة، وسباطة البنان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق الحس، ما فاق أيضاً به نظراءه، وكان كَلِفاً بالنساء، فاستوسع في اتخاذهنَّ وخلط في أجناسهنَّ، وقيل أنه خلَّف من صنوفهن السريات خاصة نحو من سبعين جارية، ومن فظائع ما فعله المعتضد في أعدائه أنه دعا عدداً من أمراء المناطق المجاورة له من المسلمين، فلبى دعوته ثلاثة منهم ومعهم

مئتي فارس، فاستقبلهم المعتضد أحسن استقبال، وأنزل الأمراء بقصر من قصوره، وفي اليوم الثالث استدعاهم إلى مجلسه وأخذ يؤنبهم على تقصيرهم في محاربة أعدائه، ولما همَّوا بالرد أمر بالقبض عليهم وتكبيلهم بالأغلال ووضعهم في السجن فرادى واستولى على سائر سلاحهم ومتاعهم وخيلهم، وبعد مدة من اعتقالهم، أمر بإدخالهم في الحمام وأضرم النار فيه حتى هلكوا.

وقد قام ابن عباد بإخضاع جميع الإمارات الصغيرة المجاورة له فامتد سلطانه وعلا شأنه، ودانت له الممالك، وكان في حروبه قاسياً، ظالماً، مستبداً، لا تخالج قلبه رحمة، ولا تنازعه خشية، ولا يستحضر خوف الله.

ومن إضافاته لمآسي الأندلس تلك المأساة التي سطرها التاريخ بقتله لابنه إسماعيل ولي عهده، كان قد ندبه إلى قرطبة فتمنع لِخلَّة يكرهها في أبيه، فألزمه أبوه المسير، فلجأ الابن إلى وزير والده محمد بن أحمد البزلياني، فأشار عليه بالسير خارج إشبيلية، فعزم أمره وجمع ماله وأخذ أمَّه وحرمه، وسار متخفياً في جنح الظلام، فعلم أبوه خبره فأرسل له الفرسان في أثره، فبلغ أحد الحصون واستجار بواليها فأجاره، وأرسل إلى أبيه قائلاً: أنَّ ابنك نادم على ما فعل وراجٍ العفو، فسُرَّ الأب، واستجاب الابن لدعوة أبيه، فاعتقله أبوه وردَّ المال.

ثم التفت إلى الوزير فأعدمه وأعدم خاصة إسماعيل فخشى إسماعيل على مصيره فدبَّر قتل أبيه بمساعدة أحد خصيان القصر، فعلم الأب المراد، فهو الساهر الحذر، الحريص الفطن، فأحضر ابنه وقتله بنفسه وأخفى جثته، وأعدم عددا من حرمه وقطَّع أطرافهنَّ، وأمر ابن عبدالبر بكتابة خطاب إلى رؤساء الأندلس لتبرير فعلته ومنها: «إنَّ الغَوِيَّ اللَّعين، العاقَّ الشاقَّ، إسماعيل ابني بالولاء لا بالوداد، ونجلي بالمَنَاسِب لا بالمذاهب» إلى أن قال: «وقد تفتن الآباء بالأبناء، وينطوي عنهم ما ينطوون عليه من الأسواء، مع أنَّ الآراء قد تنشأ وتحدث، والنفوس قد تحبب وتخبث، بقرين يصلح أو يفسد، وخليط يغوي أو يرشد، كما أنَّ داء العرقد يعدي، كذلك قرين السوء قد يردي، ومن اتخذ الغاوي خديناً، عاد غاوياً ظنيناً، ومن يكن الشيطان له قريناً، فقد ساء قريناً» حتى أن قال: «فإذا بالحية لا تغني مداراتها، والعقرب لا تسالم شباتها».

والواقع أنه لم يكن السابق في هذه المضمار، فقد قتل الخليفة الناصر ولده، والحاجب المنصور بن أبي عامر فتك بابنه، وكل ذلك رغبة في الحكم وطمعا في السيادة دون مخافة من الله.

وهنا يجب أن ننظر إلى موقف هذا الجائر الظالم القاسي المستبد من ملك قشتالة فرناندو الأول، فما هو موقفه من هذه الأحداث؟

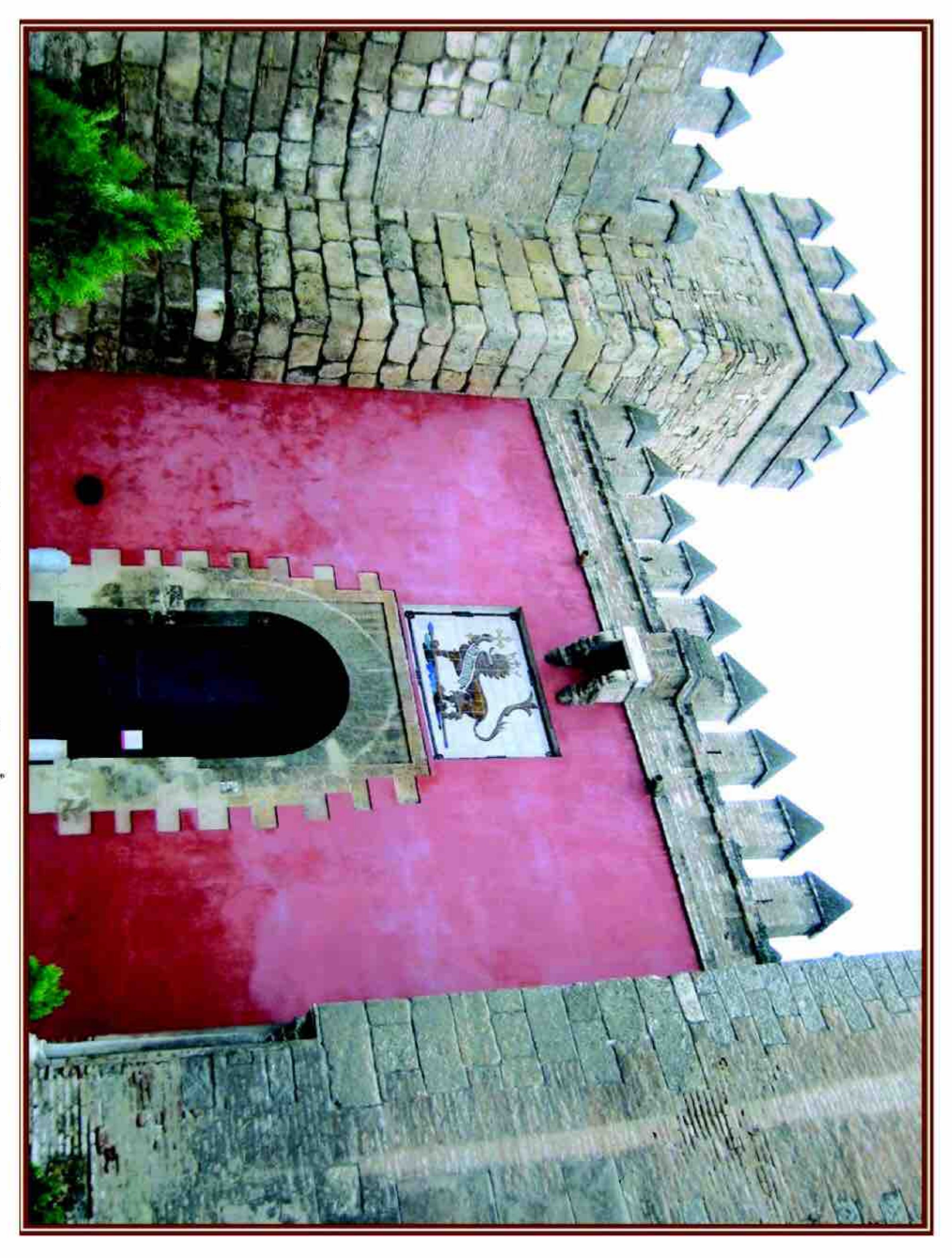
فقد كان هذا الملك يراقب الأحداث في الأندلس انتظاراً للانقضاض عندما تحين الفرصة المناسبة، فهاجم طليطله وعاث فيها فساداً فاضطر المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة مصالحته ودفع له الجزية، كما غزا بطليموس وإشبيلية، فاضطر المعتضد بن عباد دفع الجزية، فأصبح الأسد على المسلمين، فأراً عند ملك النصارى، وأصبح هذا المغامر الشجاع عند حربه إخوانه المسلمين، جباناً عند ملاقاة ملك قشتالة، وأضحى ذاك الذي يخشاه حكام الطوائف، أذلَّ الأذلاء عند ملك قشتالة.

هذه حال حكام الطوائف ومالكيها، حِرباً على أصدقائهم، سِلماً على أعدائهم، يملأ قلوبهم الرعب، حتى كانت الجزية تدفع لملك قشتالة دون قيد أو شرط ليتقوى بها على قتالهم.

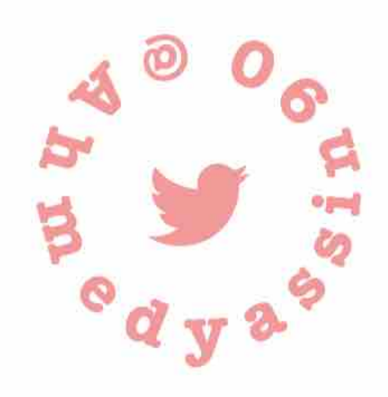
فهل هناك مأساة أعظم من هذه المأساة ؟

توفي المعتضد بنوبة قلبية بعد موت إحدى بناته الأثيرة لديه بعد حكم دام نحو ثمانية وعشرين عاماً، وآل الأمر إلى ابنه، لتفتح صفحة أخرى مليئة بالأحداث الجسام.





أحد قصور بني عباد بإشبيلية


@Ahmedyassin90

المعتمد بن عباد

بعد وفاة المعتضد تولى الحكم ابنه المعتمد وهو محمد بن عباد، وكان عمره آنذاك نحو ثلاثين عاماً، كان جميل المظهر، حسن القوام، في عنفوان شبابه، وكان شاعراً أديباً، جمع حوله فحول الشعراء، وخيرة الأدباء، ويكفي أن نذكر الشاعر المبدع ابن زيدون، وكذلك ابن عبدون، وابن عمار، وغيرهم كثير.

قال ابن الأبار عنه: «وكان المعتمد من الملوك الفضلاء، والشجعان العقلاء، والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل، مخالفاً لأبيه في القهر والسفك والأخذ بأدنى سعاية، رد جماعة ممن نفى أبوه، وسكَّن وما نفَّر، وأحسن السيرة، وملك فأسجح، إلاَّ أنه كان مولعاً بالخمر، منغمساً في اللذات، عاكفاً على البطالة، مخلداً إلى الراحة، فكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه».

كان المعتمد والياً على مدينة شلب أيام حكم أبيه، وكان وزيره منذ صباه أبو بكر بن عمار ذائع الصيت شعراً وعلاقة خاصة مع المعتمد، وكانت له مجالس أنس ولهو وخمر ونساء في تلك المدينة.

لم يكن رجل حرب غير أنه استولى على قرطبة بحيلة احتالها، كما ذُكِر، وكانت له حرب مع حكام مملكة غرناطة من البربر الذين يكِنُّ لهم البغض كما كان آباؤه من قبل، واستولى على جُلِّها ولم يبق سوى العاصمة، ففكر حاكمها في ذلك الوقت باللجوء إلى الاستعانة بالفونسو ملك قشتالة، واتخذ المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة واسطته في ذلك، لخبرته في الخضوع للنصارى، ودفع الجزية الباهظة لهم مقابل احتفاظه بكرسي الحكم. وكان له ما أراد، وعلم المعتمد بذلك فسارع الاتصال بالفونسو، وتسابق الفارسان للخضوع والمذلة فكانت النصرة للمعتمد، واتفقا على أن تكون مدينة غرناطة بعد فتحها للمعتمد بينما الذخائر والأموال للفونسو، وكان الحية الرقطاء في ذلك ورسول المذلة هو الوزير أبو بكر بن عمار.

قال المراكشي: «ابن عمار هذا، هو محمد بن عمار، يكنى أبا بكر، أصله من شِلْب من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس، مولده ومولد آبائه بها، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه حظ، ولا ذكر منهم بها أحد، ورد مدينة شِلْبَ طفلاً فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم: أبو الحجاج يوسف بن عيسى

الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر، فكان قُصَارَاه التكسب به، فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي مِمَّن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سُوقه وله في ذلك خبر ظريف:

وذلك أنه ورد في بعض سفراته شِلْبَ، لا يملك إلا دابة لا يجدُ عَلَفَها، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له الإناء شعيراً ووجه بها إليه، فرآها ابن عمار من أَجَلِّ الصلات وأسنى الجوائز، ثم اتفق أنْ عَلَتْ حالُ ابن عمار وساعده الجَدّ ونهض به البخت، وانتهى أمره أنْ ولاَّه المعتمد على الله مدينة شِلبْ وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه، فدخلها ابن عمار في موكب ضخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يُظهرها المعتمد على الله حين وُلِّيها أيام أبيه المعتضد بالله، فكان أول شيء سأل عنه، الرجل صاحبه صاحب الشعير، فقال: ما صنع فلان، أهو حيّ؟ قالوا نعم، فأرسل إليه بإنائه بعد أن ملأه دراهم، وقال لرسوله: قل له: لو ملأتها بُرّاً لملأناها تِبرْاً.

ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبو عمرو، فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

أدرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجمُ قد صرف العنان عن السُّرَى
والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليلَ منا العنبرا
ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ... ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الأكباد من قطر الندى ... وألذُّ في الأجفان من سنة الكرى
لا خلق أفرى من شفار حسامه ... إن كنت شبهتَ المواكب أسطرا
أيقنت أني من ذراه بجنة ... لما سقاني من نداه الكوثرا
وعلمت حقاً أن ربعي مُخصبٌ ... لما سألتُ به الغمامَ الممطرا
من لا توازنه الجبال إذا احتبى ... من لا تسابقه الرياح إذا جرى
ماض وصدرالرمح يُكهم والظبّا ... تنبو وأيدي الخيل تعثرُ في البرى
قاد الكتائب كالكواكب فوقهم ... من لأمهم مثل السحاب كنهوَرَا
من كل أبيض قد تقلد أبيضا ... عضباً وأسمر قد تأبط أسمرا
ملك يروقك خلقُه أو خُلقه ... كالروض يحسن منظراً أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمتُه ... فرأيته في بردتيه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زرتُه ... فقرأته في راحتيه مفسّرا
فاح الثرى متعطراً بثنائه ... حتى حسبنا كل تُرْب عنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد:

عـبّـادٌ المـخـضـرّ نـائـل كـفّـه والجـوّ قـد لبس الـرداء الأغـبرا
قَـدّاح زَنْـدْ المَجْـد لا يَـنْفَـكّ عن نـارِ الـوَغَـى إلا إلى نـارِ الـقِرى
يـخـتـار أنْ يَـهَـب الخَـريـدَةَ كاعِبا والـطَّـرْفَ اجـرَدَ والحُسامَ مُجوهَرا

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر:

شـقـيت بـسـيفك أمـةٌ لم تعتقـد إلاّ الـيـهـود وإن تـسـمـوا بـربـرا
أثـمـرت رُمحـك مـن رؤوس كُماتِهم لـمـا رأيـت الـغـصـن يُـعشَـقُ مثـمـرا
وخضبت سيفك مـن دمـاء نحورهـم لـمـا عـهـدت الحسـن يُـلبَـسُ أحـمـرا

وهذه دلالة على ما أصاب الأندلس من أحقاد وضغائن وقبلية زائفة أمر الإسلام بإزالتها فقال رسول الهدى ﷺ: «**دعوها فإنها مُنْتِنَة**».

ثـم تقـوَّى إلى أن صار ابن عمار ألـزق بالمعتمد ابن المعتضـد وولي عهده من شعرات قصه، وأدنى إليه من حبل وريده، كان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار.

ثم اتفق أن وُلي المعتمد على الله شِلْبَ من قبل أبيه، فاستوزر ابن عمار هذا في تلك الولاية وسَلَّم إليه جميع أموره، فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة، وساءت السمعة عنهما لاتهامهما بعلاقـة خاصة، ولهذا اقتضى نظـر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده، فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس إلى أن توفي المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه.

ولـه معه أيام كونهما بشِلْبَ خـبر عجيب، وذلك أن المعتمد استدعـاه ليلة إلى مجلس أنسه، على ما كانت العادة جارية به، إلاَّ أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبرّ له على غير المعتاد، فلما جاء وقت النوم اقسم المعتمد عليه: لتضعن رأسك معي على وساد واحد! فكان ذلك.

قـال ابن عمار: فهتف بي هاتف في النوم يقول: «لا تغتر أيها المسكين، إنه سيقتلك ولو بعد حين!» قال: فانتبهت من نومي فزعاً، وتعوذت، ثم عدت، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى، فانتبهت ثم عدت، فسمعته ثالثة، فاتنبهت فتجردت من أثوابي والتففت في بعض

الحصر، وقصدت دهليز القصر مستخفياً به، وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت، فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني، فأمر بطلبي، فطُلِبْتُ له في نواحي القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه، فكان هو الذي وقع علي، وذلك أنه أتى دهليز القصر يتفقد الباب هل فتح، فوقف بإزاء الحصير الذي كنت فيه فكانت مني حركة فأحس بي، وقال: ما هذا الذي يتحرك في هذا الحصير؟ ثم أمر به فنفض، فخرجت عرياناً ليس علي إلا السراويل! فلما رآني فاضت عيناه دموعاً وقال: يا أبا بكر، مالذي حملك على هذا؟ فلم أر بُدّاً من أن صدقته، فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها، فضحك وقال: يا أبا بكر، أضغاث أحلام، هذه آثار الخمر، ثم قال لي: وكيف أقتلك؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء، وتناسى الأمر فنسيه، ومرَّت على ذلك الأيام والليالي إلى أن كان من أمره ما سيأتي الإيماء إليه، فصدقت رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال!

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرنا، سأله ابن عمار ولاية شِلْبَ، وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أَنْبَهَ ولاية، جعل إليه جميع أمورها، خارجها وداخلها، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه فاستدعاه وعزله عنها واستقدمه إلى قرطبة واستوزره، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد.

ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية، وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة، واشتهر أمره ببلاده الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذكر عنده ابن عمار قال: هو رجل الجزيرة! وكان ابن عمار هو الذي رده عن إشبيلية وقرطبة وأعمالها، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها، فخافه الناس، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه، فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الإتقان والإبداع لم يكن عند ملك مثلها، جعل صورها من الأبنوس والعود

الرطب والصندل وحلاها بالذهب، وجعل أرضها في غاية الإتقان، فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى الأدفنش فلقيه في أول بلاد المسلمين، فأعظم الأدفنش قدومه وبالغ في إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة في حوائجه، فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الأدفنش، فنقل خبرها إليه، وكان الأدفنش مولعاً بالشطرنج، فلما لقي ابن عمار سأله: كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية، فأخبره بمكانه منه، فقال له: بلغني أنَّ عندك سفرة في غاية الإتقان! قال ابن عمار: نعم، فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه: قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حُكْمي! فقال له الأدفنش: هلما لننظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها، فلما وُضعت بين يدي الأدفننش انبهر وقال: ما ظننت أنَّ إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد! ثم قال لابن عمار: كيف قلت؟ فأعاد عليه الكلام الأول، فقال له الأدفنش: لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو، ولعله شيء لا يمكنني! فقال ابن عمار: لا ألعب إلا على هذا الوجه! وأمر بالسفرة فطويت، وكشف ابن عمار سِرَّ ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش، وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره، ففعلوا، فتعلقت نفس الأدفنش بالسفرة، وشاور خاصته فيما قاله ابن عمار، فهوَّنوا عليه وقالوا له: إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه، وقالوا له: إن طلب ابن عمار ما لا يمكن فنحن أحق بردِّه عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاءه ومعه السفرة، فقال له: قد قبلت ما اقترحته! فقال ابن عمار: فاجعل بيني وبينك شهوداً أسماهم له، فأمر الأدفنش بهم فحضروا، وافتتحا يلعبان، وكان ابن عمار بارعاً في الشطرنج، فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للأدفنش فيها مطعن، فلما حقت الغلبة قال ابن عمار: هل صح أن لي حكمي؟ قال: نعم، فما هو؟ قال: أن ترجع من ههنا إلى بلادك! فاسْودَّ وجه العلج وقام وقعد وقال لخواصه: قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه علي! في أمثال هذا القول، وهمَّ بالنكث والتمادي لوجهه، فقبحوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك! فلم يزالوا به حتى سكن، وقال: لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة!

فقال ابن عمار: هذا كله لك! وجاء بما أراد، فرجع وكفى الله بأسه، ودفعه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به.

هذه أحوال الأندلس، ملك قشتالة يسومهم الذلَّ والمهانة، وهم يرجئون قضاءه عليهم من خلال لعبة شطرنج ليبقى المعتمد ومن معه من حاشيته في خمر ولهو، أمَّا أهل الأندلس فهم في خوف دائم، والضرائب تؤخذ منهم لدفعها للجاثم على رقابهم في شمال الأندلس، لتستمر المآسي بصنوف مختلفة.

ثم إنَّ المعتمد حدث له أمل في التغلب على مُرسِية وأعمالها وهي التي تُعرف بتُدْمير، وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر، كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها، فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة، فتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، فولاه ما تولى من ذلك، وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسيه، فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز ببلنسية، فكان بها إلى أن مات رحمه الله.

ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار مُلْكِ بني طاهر، حدثته نفسه وسوَّل له سوء رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه، فلم يزل يصرِّف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها وطمع في ملك بلنسية، إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له: ابن رشيق، كان أبوه من عُرَفاء الجند بها، خرج ابن عمار يوما لبعض أموره، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند، فسمع ابن عمار بذلك، فجاء يركض حتى أتى المدينة وقد غُلِّقت أبوابها دونه، فحاصرها بمن معه أياماً، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها، فبقي حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه، وكان قد بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته، فلم ير إلا الهروب ملجأً، فهرب حتى لحق ببني هود بسرقسطة، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته، وبغَّضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولي نعمته، فأخرجوه عن بلادهم.

ولم تزل البلاد تتقاذفه، وملوكها تشنؤه، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة، كان المتغلب عليه رجل يقال له: ابن مبارك، فأكرم وفادته

وأحسن نزله، ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه، فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له: لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك وتعرضني عليهم، فما منهم إلا من يرغب في، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالاً ووجهت بي إليه! ففعل ابن مبارك ذلك، فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه وكتب فيمن كتب إلى المعتمد.

وفي ذلك يقول ابن عمار:

أصبحت في السوق ينادى على رأسي بأنواع من المال
والله ما جار على ماله من ضمني بالثمن الغالي

وبعث المعتمد من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ووافق ذلك كون المعتمد بها، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه، على بغل بين عدلي تِبْن، وقيوده ظاهرة للناس، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال، وكان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام، وغيرهم لا يصل إلاَّ إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه، فسبحان محيل الأحوال ومُديل الدول!

فدخل ابن عمار قرطبة بعد العزة القعساء، والمُلك الشامخ، والرياسة الفارعة، ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه، فسبحان من سلبه ما وهبه، ومنعه ما كان به أمتعه.

فأُدخل على المعتمد يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه، وابن عمار في ذلك كله مطرق لا ينبس، إلى أن انقضى كلام المعتمد، فكان من جواب ابن عمار أن قال: ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله، ولو أنكرته لشهدت علي به الجمادات فضلاً عمن ينطق، ولكن عَثَرْتُ فأقِل، وزَلَلْتُ فاصفح! فقال المعتمد: هيهات، إنها عثرة لا تقال! وأمر به فأحدر في النهر إلى إشبيلية، فدُخل به إشبيلية على الحال التي دخل بها قرطبة، وجُعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك فطال سجنه هناك.

كتب له وهو في السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره، أو إلى الفلك لكف عن دوره، فكانت رقّى لم تنجع، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع.

فأدركت المعتمد بعض الرقة، فوجه إليه ليلاً وهو في بعض مجالس أنسه، فأتى به يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قِبله، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر غير أنه أخذ في البكاء، وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد، فتم له بعض ما أراد من ذلك، وعطفت المعتمد عليه سابقته وقديم حرمته، فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً لا صريحاً وأمر برده إلى محبسه. فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى الراضي بالله ابن المعتمد، فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار إحنٌ قديمة، فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم: ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص، فقالوا له: ومن أين علم مولانا ذلك؟ فقال: هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أنَّ مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص، فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره، فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر، وزادوا فيه زيادات قبيحة، فبلغ المعتمد ذلك، فأرسل إلى ابن عمار وقال له: هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك البارحة؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار، فقال المعتمد للرسول: قل له: الورقتان اللتان استدعيتهما، كتبت في إحداهما القصيدة،فما فعلت بالأخرى؟ فادعى أنه بيض فيها القصيدة، فقال المعتمد: هَلمَّ المسودة! فلم يجد جواباً، فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار، فلما رآه علم أنه قاتله، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله، حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما، والمعتمد لا يثنيه شيء، فعلاه بالطبرزين الذي في يده، ولم يزل يضربه به حتى مات.

ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك.

وعلينا أن نذكر أنَّ ألَّد أعداء ابن عمار هو الوزير أبو بكر بن زيدون ابن الشاعر أبي الوليد ابن زيدون المشهور، وكذلك زوجة المعتمد الرميكية الأثيرة لديه التي أنجبت له عددا من الأبناء، وكان قد اشتراها المعتمد من مولاها رميك فأحبها حباً لم يقع في قلبه له مثيل، وكانت تشترك في مجالس الشعر مع زوجها، وكان ابن عمار وهو في قمة مجده

يحقد عليها ويراها منافسة له على قلب المعتمد، ودام الصراع بينهما خفية وجهراً، فكانت الغلبة للرميكية زوجة المعتمد، وهذا أمر طبيعي فالشاعر يقول:

ليس الشفيع الذي يأتيك مُتَّزرا   مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

ويقال أنه قال قصيدة عندما كان في مرسية بعيداً عن المعتمد مخاطباً له، هاجياً زوجته الرميكية:

تخيرتها من بنات الهجين   رميكية ما تساوي عقالا

فجاءت بكلٍّ قصير العذار   لئيم النَّجَادين عماً وخالا

قصار القدود ولكنَّهم   أقاموا علينا قروناً طوالا

وعلق ابن الخطيب على قتل المعتمد ابن عباد فقال: «فسبحان الذي جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد في أزمة حب التشفي وطلب الإنصاف، فلا تتوقف في مطاوعته، وذلك لأنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات، ولا مرغمة بفراق الشهوات، إلا القليل النادر، ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة في أصل جبلَّتها، فهي ساكنة الفورة».

وواصل المعتمد سيرة أبيه المعتضد بدفع الجزية لألفونسو من خلال وفد يتم إرساله كل عام لجباية المال، وكان يرى أن توثيق العلاقة مع ألفونسو تضمن استمرار حكمه المليء بالملذات وجلسات الخمر والنساء، حتى قالت بعض المصادر أنه قدم إلى الفونسو إحدى بناته لتكون زوجة له، وهذا أمر مستبعد في نظري.

في الفترة التي كان فيها المعتمد بن عباد مشغولاً بما هو عليه من ملذات، كانت حبوب العقد في الشمال تتساقط شيئاً فشيئاً، والحصون والمدن تستباح يوماً بعد يوم. وكان بنو ذي النون في طليطلة جرثومة النفاق كما وصفهم ابن حيان يدفعون الجزية لعدوهم ويتآمرون معه لقتل إخوانهم، وقد قال ابن حيان عن مؤسس دولتهم إسماعيل بن ذي النون: «ولم يرغب في صنيعه، ولا سارع إلى حسنة، ولا جاد بمعروف، ولا عرج عليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر، ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل، ولا حظي أحد منه بطائل، وكان مع ذلك سعيد الجَدّ، تنقاد إليه دنياه، وتصحبه سعادته، فينال صعاب الأمور بأهون سعيه، وهو كان فرط الملوك في إيثار الفرقة، فاقتدى به من بعده، وأمّوا في الخلافة نهجه، فصار جرثومة النفاق، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن».

ولم يدم عهد إسماعيل طويلاً حيث توفي وقام بعده ابنه يحيى بن إسماعيل ولقب نفسه بالمأمون، ودام عهده ثلاثة وثلاثون عاماً. فكانت بينه وبين ابن هود حاكم سرقسطة حروب فاوض خلالها فرناندو لمحاربة ابن هود فوافق مغتبطاً واشترط أن يؤدي له الجزية، لكنَّ ابن هود لجأ إلى فرناندو يستعطفه لنصرته ضد ابن ذي النون، فوافق في مسرحية هزلية أبطالها حكام الطوائف ومخرجها فرناندو وأبناؤه من بعده.

وبعد وفاة يحيى بن ذي النون الملقب بالمأمون تولى حكم طليطلة بعده حفيده الملقب بالقادر وسار على درب أبيه وجده في الخضوع والركون إلى الذّلة والمهانة، وهادنه الفونسو ملك قشتاله أعواماً، ثم ما لبث أن قرر الفونسو الاستيلاء على طليطلة، فحاصرها لمدة تسعة أشهر على مرأى ومسمع من حكام الطوائف الذين لم تدفعهم نخوتهم إلى نصرة أخوانهم، بل كانوا يرتجفون رعباً من الشر القادم الذي لا محالة كائن، فهم أعجز من أن ينصروا دويلاتهم فكيف بنصرة أخيهم، ويمكننا استثناء ابن الأفطس الذي حارب بجانب القادر مترفعاً عن المحن السابقة، والعداوات القائمة، وأرسل العلامة أبا الوليد الباجي لحكام الطوائف يستنصرهم في فك الحصار والذوذ عن الإسلام، فما عثر على مجيب، ولا وجد ناصراً، فسلمت المدينة بعد أن حلَّ بأهلها الجوع والعطش، واشترط القادر لنفسه الخلاص مع حرمه وماله فكان له ما أراد وذهب إلى بلنسية ثم لجأ إلى أحد ملوك النصارى أذفنش فقال في ذلك ابن بسام: «وخرج ابن ذي النون خائباً مما تمناه، شرقاً بعقبي ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه، والسماء تود لو لم تطلع نجماً إلا كدرته عليه حتفاً مبيداً. ولم تنشىء عارضاً إلا مطرته فيه عذاباً شديداً، واستقر بمحلة إذفنتش، مخفور الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونه حرمة ستر ولا حجاب».

وقال ابن الخطيب فيه وفي أهل طليطلة: «واقتضاه الطاغية الوهد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلكت الذمم، واستؤصلت الرمم، ونفذ عقاب الله في أهلها جاحدي الحقوق، ومتعودي العقوق، ومقيمي أسواق الشقاق والنفاق، والمثل السائر في الآفاق».

وتسابق الشعراء في رثاء طليطله فأكثروا وقال أحدهم:

الـثـوب يـنـسـل مـن أطـرافـه وأرى ثـوب الجـزيـرة منسولاً مـن الوسط
ونـحـن بـين عـدو لا يـفـارقـنـا كيف الحـيـاة مـع الحـيَّـات في سقط

كان ابـن عباد يراقب الأحداث ويعلـم أن مآله إلى السقوط أسوة بابن ذي النون لكنه استمر في المصانعة لعل وعسى أن يكون فيها استمالة قلب، وردع معتدي، وكفاية عن شر، لكـن أنَّـى له ذلك، وعلام لا يعدُّ العدة قبل وقوع المصيبة وهو يعلم أنَّ الدائرة عليه قادمة لا محاله.

وقـد وقع ما خشيه المعتمد، ذلـك أن الفونسو ملك قشتالة أرسـل رجاله كعادته لأخذ الجزيـة من المعتمد، وكان رئيس رجال الفونسو رجل يهودي يدعى: ابن شاليب، فلما رأى المـال والسبائك رفضها مدعياً أنهـا مغشوشة وطلب إبدالها بما هو أكرم منها، ويبدو أنه أغلـظ في الكلام وهدد باجتياح إشبيلية إذا لم يتم الدفع على الوجه الذي يريده، فغضب المعتمد وأرسل لهم من قبض عليهم، وأمر بابن شاليب فقتل وصلب ثم سجن باقي الوفد، ويبـدو أن المعتمد قد وصل إلى حد لم يطقه، وحُمِّل حِمْلاً من الذُلِّ لم يستحمله، وتفاوض مـع الفونسو على إطلاق سراحهـم، وكان الفونسو قد عزم على غزو إشبيلية وإنهاء حكم آل عبـاد وربما جميع الوجود الإسلامـي في أسبانيا بعد أن كان المال الذي ظل يجمعه من هذه الدويلات وقودا أراد أن يحرقهم به بعد أن حان الأجل.

وجمـع ألفونسـو جيشاً جراراً لا قبل لدويلات اللهو والملـذات به، وعلموا أنَّ وقت دفع الثمن قد حان وأنَّ عليهم النظر في الأمر قبل وقوع المكروه، واجتمع أمر معظم رؤساء الدويـلات على إرسـال رسلهم إلى يوسف بن تاشفين القاطـن في مراكش للاستنجاد به وإنقاذهم من الخطب الذي حلَّ بهم.

وكانـت هنـاك رسالتان متبادلتان بين الفونسو والمعتمد بهذا الخصوص يظهر فيها أنَّ الفونسـو يسمى نفسـه ملك الملتين، فقال الفونسو في رسالته: «مـن الإنبيطور ذى الملتين، الملـك المفضـل، أذفنش بـن شانجه، إلى المعتمد بـالله، سـدد الله آراءه وبصَّرَه مقاصد الرشـاد، سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى، ونبتت في ربعه المنى، باغترار الرمح بعاملـه، والسيف بساعـد حامله، وقد أبصرتم بطليطله نـزال أقطارها، وما حاق بأهلها

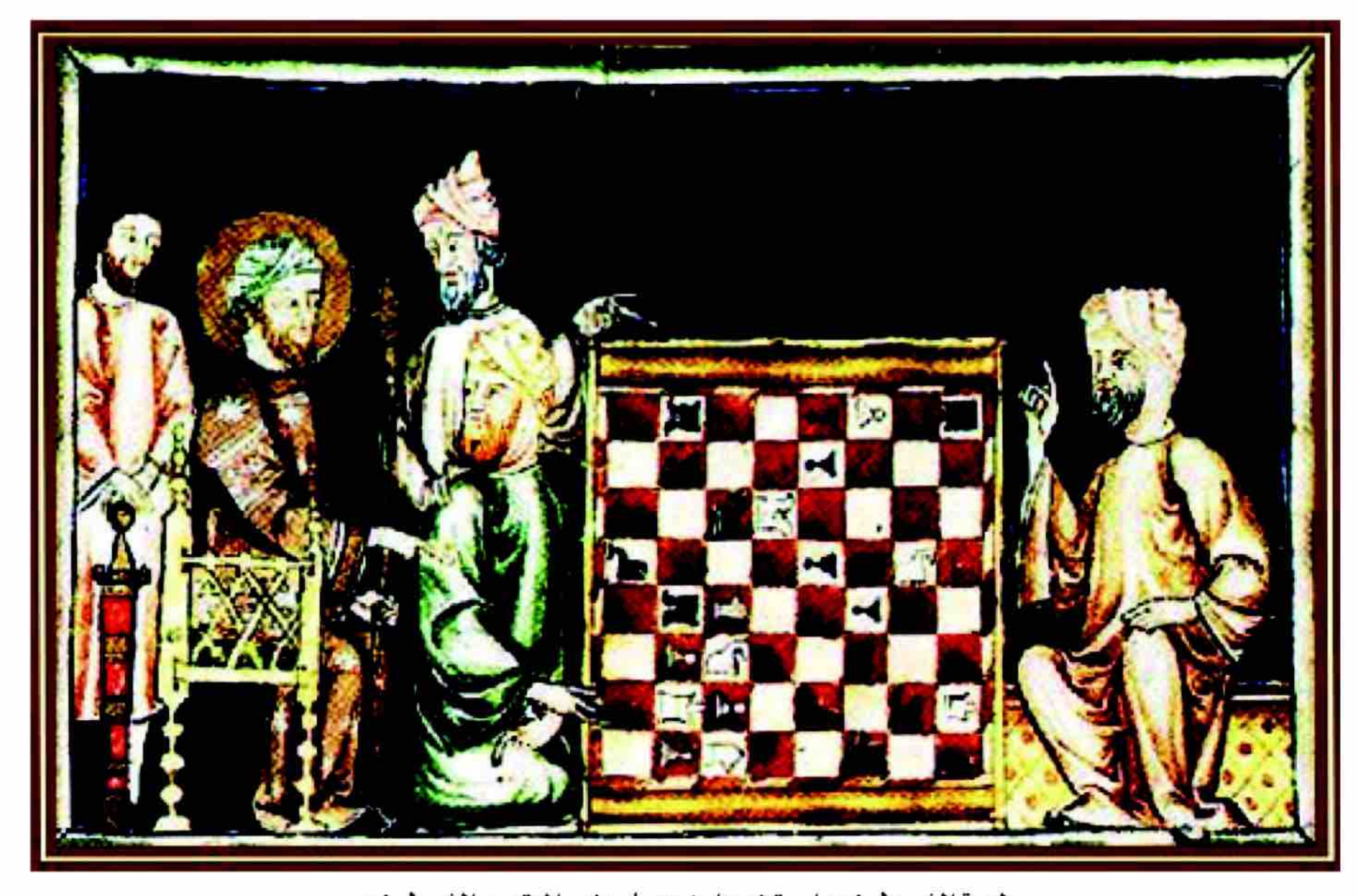
حين حصارها، فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو وراوده، لكنَّ الأقدار تقطع بالأعذار، ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه، وخشي الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليك القرمط ألبر هانس، وعنده من التسديد الذي تلقى بأمثالك، والعقل الذي تدبر بلادك به ورجالك مما أوجب استنباته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك».

فأجاب المعتمد على رسالة ملك النصارى بالرسالة الآتية: «من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله أبي عمر ابن عباد، إلى الطاغية الباغية أذفنش بن شانجه الذي لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذي الملتين، قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى.

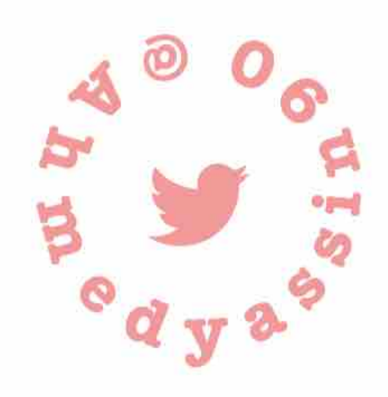
أما بعد فإن أول ما يبدأ من دعواه أنه ذو الملتين والمسلمون أحق بهذا الإسم، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد وعظيم الاستعداد ومجبي الملَّة، لا تبلغه قدرتكم ولا تعرفه ملتكم، وإنما كانت سنة سعد، أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة، قلت في أثنائها لبس، ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنا لنعجب من استعجالك برأي لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، وتعلم أنَّ في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وحيل الإنسان، وحماة الشجعان يوم تلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم إلى حد الشفار، وينعاهم المنام في القفار، يريدون رحى النون بحركات العزائ، ويشفون من خيط الحنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلاداً رتبه الإنفاق، وشفاراً حداداً شحذها الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروة، نبهت من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومة تجدد إيمانها، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين

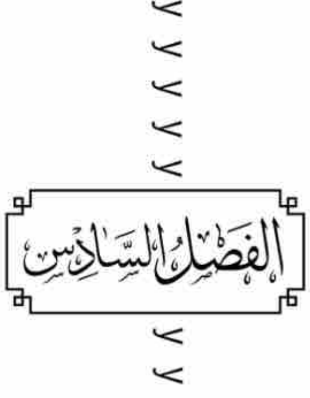
مـع أسلافنا الأكرمين يـد صاعدة أو وقفة متساعدة، إلا ذل تعلم مقداره، وتتحقق مثاره، والذي جرأك على طلب ما لاتدركه قوم كالحمر، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو مـن وراء جـدر، ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقـل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجـب القعود عـن نصرتهم، وتدبير أمرهـم، ونسأل الله المغفرة فيمـا أتيناه في أنفسنا وفيهـم من ترك الحـزم وإسلامهم لأعاديهـم، والحمد لله الذي جعـل عقوبتنا توبيخك وتقريعـك بما المـوت دونه، وبـالله نستعين عليـك، ولا نستبطىء في مسيرنـا إليك، والله ينصر دينه، والسلام على من علم الحق فاتبعه، واجتنب الباطل وخدعه».





لعبة الشطرنج: استخدم ابن عمار وزير المعتمد الشطرنج
لرد حاكم قشتالة عن الوصول إلى أشبيلية في قصة طريفة.

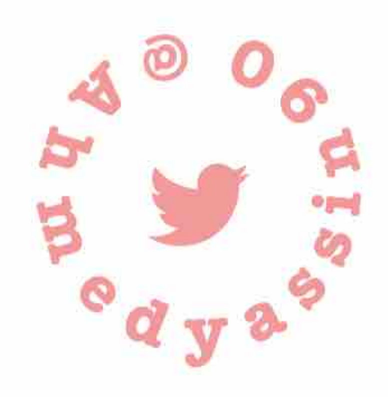

@Ahmedyassin90



المـرابـطـون

- يوسف بن تاشفين.
- علي بن تاشفين.
- تاشفين بن يوسف.




@Ahmedyassin90

المرابطـون الذيـن استنجد بهم بعض حـكام دويلات الأندلس هم مـن قبيلة لمتونة، وهــي إحدى بطـون صنهاجة، وهم قبائل صحراوية يعتمـدون في قوتهم على لحم الإبل ولبنهـا، ويعرفـون بالملثمين وقيل أنهم كانـوا يقلدون في ذلك قبيلة حمـير العربية التي ينتسبون إليها.

كانـوا يدينـون بالمجوسية ثم أسلموا وحسن إسلامهم، ولمـا أفضت الرئاسة إلى يحيى بن إبراهيم الكندالي خرج لقضاء بعض مهماته، فلقوا في منصرفهم شيخ المذهب المالكـي أبا عمران الفارسـي، فطلب منه يحيى إرسال أحد تلاميـذه لتفقيههم في الدين فأرسل معهم عبدالله بن ياسين، وكان يحيى مطيعاً لعبدالله بن ياسين الورع التقي شديد الغـيرة على دينه، لكنه كان شديداً سمى أتباعه بالمرابطين، وبعد وفاة يحيى بن إبراهيم تولى الإمارة يحيى بن عمر اللمتوني وتولى القيادة الحربية عبدالله بن ياسين وامتد غرباً حتـى وصل مراكش وغيرها من المدن ونازل في حربه قبائـل برغواطة، وكان بعض أفراد هذه القبيلة تسير على مذهب ضلال ابتدعه رجل يهودي الأصل يقال له: صالح بن طريف البرناطـي، حيـث جعل الصلـوات خمساً في الليـل وخمساً في النهـار، والصوم في رجب، وأباح الزواج بأي عدد من النساء دون قيد. فسار عبدالله بن ياسين إلى قتالهم، فقاتلهم قتـالاً شديداً فأصيب بجروح بالغة مـات على أثرها، ويقال أنه رحمه الله مع عفته وورعه شغوفٌ بالنساء يتزوج في كل شهر عددا منهنَّ ويطلقهن، وبعد وفاته تولى أبوبكر اللمتوني قيادة الدولة وحركة الموحدين، ويعتبر مؤسس دولة المرابطين، واختار ابن عمه يوسف بن تاشفين لمؤازرته فولاه أمر المغرب بينما تولى أمور الصحراء.



يوسف بن تاشفين

تحمل لنا الروايات أنَّ يوسف بن تاشفين تقي ورع متدين، متواضع تواضعاً جماً، متقشف يرتدي الصوف طول حياته، ولا يأكل سوى لحم الإبل والشعير، جواد، كريم، عفيف، عادل، رقيق، حليم. ومع هذا فهو قوي الشكيمة، مقدام منصور في غزواته، رفيق برعيته.

كان سقوط طليطلة عاملاً حاسماً في استنجاد حكام الأندلس الماجنين الباذخين بهذا الشيخ التقي الورع المتقشف، كما أنَّ ما حدث بين المعتمد بن عباد ورسل حاكم قشتاله عجل بعبوره البحر لدخول الأندلس.

لمَّا اقترب يوسف بن تاشفين من إشبيلية، استقبله المعتمد بن عباد بحفاوة بالغة وقدم بعض حكام الطوائف المؤن والمساعدة كلٌّ على قدر استطاعته، ووضع المعتمد بن عباد على مقدمة جيش الأندلس، فوصل النبأ ألفونسو وكان محاصراً سرقسطة، فعاد على عجل وطلب العون من ممالك النصارى الأخرى، فسار بجيش كبير جداً يفوق جيش المسلمين عدد وعدة، وبعد أن تقابل الجيشان كتب يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو: «بلغنا يا أدفونس أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال».

وقامت معركة الزلاقة التي كانت شديدة القسوة وقد ذكر لنا صاحب روض القرطاس: أن عدد القشتاليين ثمانون ألف فارس ومئتا ألف راجل قتلوا أجمعين ولم يبق منهم سوى مِئَة فارس وأنَّ المسلمين خسروا نحو ثلاثة آلاف.

وأعتقد أنَّ الرقم الخاص بالقشتاليين مبالغ فيه، لكن الروايات تؤكد أنَّ المسلمين صنعوا تلاً من رؤوس القتلى وقاموا بالأذان عليه.

بعد انتهاء المعركة عاد كل إلى دولته وقد عاد يوسف بن تاشفين إلى العدوه المغربيه بسرعة غير متوقعة بسبب وفاة أحد أبنائه، كما تنقل بعض الروايات أنَّه عاد لكثرة ما وجده من حكام الطوائف من منازعات وخلافات مع شعوبهم.

مرة أخرى يعود القشتاليون إلى تخريب الأراضي الأندلسية الإسلامية، ويتذمر المسلمون فيقطع المعتمد بن عباد بنفسه البحر إلى يوسف بن تاشفين طالباً قدومه إلى الأندلس.

فوافق يوسف وعبر البحر وحاصر حصن «أليدو» فبقي هناك أربعة أشهر محاصراً له، وقد صمد المدافعون عن الحصن رغم الجوع الشديد، وضاق يوسف بن تاشفين ذرعاً بخصومات حكام الأندلس الذين انضموا إليه حيث اشتكى المعتمد خصمه ابن رشيق باستيلائه على مرسيه واتهمه بأنه يتفاهم مع ملك قشتالة سراً وأنه يساعد حامية الحصن في الخفاء وأنه يدفع الجزية، فأمر يوسف بن تاشفين تسليم ابن رشيق إلى المعتمد بن عباد بعد أن استفتى الفقهاء في أمره وطلب من المعتمد عدم الإبقاء على حياته.

وغضب جند ابن رشيق وانسحبوا من المعسكر وقطعوا المؤن عن الجيش المسلم، فعلم يوسف بن تاشفين أنَّ القشتاليين قادمون في جيش ضخم، فآثر العودة دون تحقيق شيء يذكر، ومن ثم عاد كل إلى بلده.

وتعتبر هذه مأساة لعدم بلوغ المسلمين مرادهم بسبب وشايات وأحقاد بين متنافسين على مدن هنا وهناك، كما تبين ليوسف بن تاشفين بالدليل القاطع أنَّ حكَّام الأندلس مستمرين في غيهم وأنَّ ترك الوضع كما هو عليه سيؤدي إلى استئصال الإسلام من الأندلس.

وبعد عام من رجوعه إلى مراكش قرر عبور البحر إلى الأندلس ففعل للمرة الثالثة واتجه مباشرة إلى طليطلة ولم ينضم إليه أحد من حكام الطوائف في غزوته هذه، وعندما أيقن أنَّ حصارها سيدوم ترك عليها الحصار وسار إلى غرناطة وحاكمها عبد الله بن بلقين، فلما علم بقدوم يوسف بن تاشفين، خاطب القشتاليين وأرسل لهم الهدايا والتحف والأموال في الخفاء، وتعهد ألفونسو لعبد الله بأن لا يخفر له عهداً، ولا يساعد له عدواً، وأن يسير بنفسه لمساعدته، فاطمأن عبد الله بن بلقين وقويت همته.

ونقل صاحب كتاب دولة الإسلام في الأندلس من أحد المخطوطات شعراً يقول صاحبه:

صانع أدفونش والنصارى فانظر إلى رأيه الوبير
وشاد بنيانه خلافاً لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاهاً كأنه دودة الحرير
دعوه يبني فسوف يدري إذا أتت قدرة القدير

ومنع يوسف بن تاشفين عن غرناطة المدد المحتمل، كما أنَّ ضغوطاً داخلية من قبل الفقهاء جعلت عبدالله بن بلقين يقدم إلى جيش يوسف بن تاشفين المؤن والمساعدة.

وطلب منه يوسف بن تاشفين الاستسلام فتمنَّع، ثم ألح عليه أهله وحرمه، فمنحه يوسف الأمان على أهله وماله وحرمه على أن يغادر غرناطه، ففعل.

وعندما علم المعتمد بما حلَّ بحاكم غرناطة خشي العاقبة فقدم مهنئاً ليوسف بن تاشفين ومعه المتوكل بن الأفطس، لكن يوسف بن تاشفين استقبلهم بجفاء، فعاد المعتمد بن عباد إلى إشبيليه وهو عازم على مقارعة ابن تاشفين إن هو همَّ بدخول إشبيلية.

وقد طلب يوسف بن تاشفين من المعتمد بن عباد أن يقدم إليه فرفض، وطلب منه رفع المكوس الجائرة عن الناس فرفض، وطلب منه مدافعة النصارى وعدم الخنوع فرفض، فسار الجيش المرابطي إلى قرطبة وكان واليها المأمون ابن المعتمد ودافع عنها حتى قتل في شهر صفر عام ٤٨٤ هـ.

وكان جيش من جيوش يوسف بن تاشفين قد توجه إلى «رندة» وواليها من قبل المعتمد ابنه الراضي فقتل مثلما قتل أخوه، وسار جيش ثالث إلى اشبيلية وفيها المعتمد ابن عباد فحاصرها، وبعد ذلك استسلمت المدينة بعد تردد فنهبت وكان القتل والاستباحة كبيرة لتنتهي بذلك حقبة من أهم حقب الشعر والأدب ومن أسوئها في الصلاح والإدارة.

ويقول ابن اللبانة: «والمعتمد مع ذلك منغمس في لذاته وقد ألق الأمور بيد ابنه الرشيد، فلم يشعر ابن عباد إلا والعسكر معه في البلد، فأفاق من نومه، وصحى من سكره، وركب فرسه وحسامه في يده، وليس عليه إلا ثوب واحد، فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج، ووافى هنالك طبالا فضربه بسيفه ضربة قسمته نصفين، ففر الناس أمامه، وتراموا من السور»، إلى أن قال: «فلما وصل إلى باب الصباغين وجد ابنه مالكاً مقتولاً، فاسترحم له، ودخل القصر وزاد الأمر بعد ذلك ودخل البلد من كل جهاته فطلب الأمان له ولمن معه، فأمِّن وجميع من له وأعدت له مراكب، واجتاز إلى طنجة ولقي الحصري الشاعر، وكان قد ألَّف له كتاب المستحسن من الأشعار فلم يقض بوصوله إليه إلا وهو على تلك الحال، فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصري: ارفع ذلك البساط فخذ ما تحته، فوالله ما أملك

غيره، فوجد تحته حملة مال فأخذه». وكان لقاؤه مع الحصري في طنجة وهو في طريقه إلى سجن أغمات بالقرب من مراكش.

نهاية مؤسفة للمعتمد ولأبنائه الثلاثة الذين قتلوا -رحمهم الله وجميع موتى المسلمين-. كما يتضح لنا لؤم الحصري الشاعر في أخذه المال من ملك مكبل بالقيود فقد ثلاثة من ولده، وضاع منه ملك الأندلس، كان أحوج ما يكون إلى تلك الأموال لياليه القادمة الحالكة السواد، لكنه فعل الحصري فعل معظم المنافقين الذين يجيدون القول، ولا يحسنون العمل.

وكان بصحبته بنوه وبناته وزوجته المشهورة الرميكية وقيل عنها: «وهي التي ورطت المعتمد في ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة حتى كتب أهل إشبيلية عليه بذلك فقد زينت له بتعطيل صلوات الجُمَعْ عقوداً ودفعوها إلى أمير المسلمين، فكان من أمره ما كان، وسجن المعتمد في أغمات وسجنت الرميكية معه فماتت هناك قبله».

ومن شعر المعتمد في وصف وقوفه في وجه أعدائه:

إن يسلب القوم العدا	**ملكي وتُسلمِني الجموعُ**
فالقلب بين ضلوعه	**لم تُسْلِم القلبَ الضلوعُ**
قد رمت يوم نزالهم	**ألا تحصنني الدروعُ**
وبرزت ليس سوى القميص	**من الحشا شيء دفوعُ**
أجلي تأخر لم يكن	**بهواي ذُلّي والخضوعُ**

واستمر يوسف بن تاشفين في فتح المدن الأخرى، ثم سار إلى مراكش تاركاً أحد قواده على رأس جيشه في الأندلس، وسار جيش من المرابطين والأندلسيين إلى طليطلة فكانت معركة مع القشتاليين انتصر فيها المسلمون ولكنَّهم لم يستطيعوا اقتحام حصون طليطلة.

قال في أحد مجالسه مبرراً دخوله الأندلس: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكها وإهمالهم للغزو، وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة، وإنما هَمُّ أحدهم، كأس يشربها، وقينة تُسْمِعُه، ولهو يقطع به أيامه، ولإن عشت لأعيدنَّ البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين

ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما همُّ أحدهم فرس يروضه ويستنفره، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته».

ومات يوسف بن تاشفين بمراكش في عام ٥٠٠ هـ وكان عمره مئة عام بعد أن قضى على حكام الطوائف الذين امتدت فترة حكمهم نصف قرن، وكان حكمه نصف قرن قضاها مجاهداً، ورعاً، سديد الرأي، ظاهر السعد، راجح العقل.

وقبل إسدال ستار الحديث عن يوسف ابن تاشفين فمن المستحسن الوقوف على بعض مآسي المعتمد ابن عباد لشهرة مأساته.

عندما وصل المعتمد إلى أغمات ورأت زوجته الرميكية السجن وأهواله، ارتاعت لهول ما رأت، وقالت: «يا سيدي، لقد هُنَّا هُنَا».

فقال المعتمد بيتين ليسجل لنا ذلك الموقف:

قالت: لقد هُنَّا هنا ... مولاي، أين جاهُنا
قلت لها: إلى هُنَا ... سيَّرنَا إلهُنَا

وبقي في السجن زمناً، قال الفتح: «وأول عيد أخذه -المعتمد- بأغمات وهو سارح، وما غير الشجون له مبارح، ولا زِيَّ إلى حالة الخمول، واستحالة المؤمول، فدخل عليه من بنيه من يسلم عليه ويهنيه، وفيهم بناته وعليهن أطمار، كأنها كسوف وهنَّ أقمار، يبكين عند التساؤل، ويبدين الخشوع بعد التحايل والضياع قد غير صورهنَّ، وحيرَّ نظرهنَّ، وأقدامهن حافية، وآثار نعيمهنَّ عافية، فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خد إلا تشكى الجدب ظاهره ... وليس إلاّ مع الأنفاس ممطورا
أفطرت في العيد لا عادت مساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً ... فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقال بعد أن آلمته القيود:

تبدلت من عز ظل البنود ... بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديداً سناناً ذليقاً ... وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهماً ... يعض بساقي عض الأسود

وقال الفتح أيضاً: ولما نقل المعتمد من بلاده، وأعري من طارفه وتلاده، وحمل في السفين، وأحل في العدوة محل الدفين، تندبه منابره وأعواده، ولا يدنو منه زواره ولا عواده، بقي أسفاً تتصعد زفراته، وتطرد اطراد المذانب عبراته، لا يخلو بمؤانس، ولا يرى إلا عريناً بدلاً من تلك المكانس، ولما لم يجد سلواً، ولم يؤمل دنواً، ولم ير وجه مسرة مجلواً، تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقته، وتخيل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطانه، وإظلام جوه من أقماره، وخلوه من حراسه وسماره، فقال:

بكى المبارك في إثر ابن عباد ... بكى على إثر غزلان وآساد
بكت ثرياه لا غمت كواكبها ... بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
بكى الوحيد، بكى الزاهي وقبته ... والنهر والتاج، كل ذله بادي
ماء السماء على أفيائه درر ... يا لجة البحر دومي ذات إزباد

وفي ذلك يقول ابن اللبانة:

أستودع الله أرضاً عندما وضحت ... بشائر الصبح فيها بدلت حلكا
كان المؤيد بستاناً بساحتها ... يجني النعيم وفي عليائها فلكا
في أمره لملوك الدهر معتبر ... فليس يغتر ذو ملك بما ملكا
نبكيه من جبل خرت قواعده ... فكل من كان في بطحائه هلكا

وكان القصر «الزاهي» من أجمل المواضع لديه وأبهاها، وأحبها إليه وأشهاها، لإطلاله على النهر، وإشرافه على القصر، وجماله في العيون، واشتماله بالزهر والزيتون، وكان له به من الطرب، والعيش المزري بحلاوة الضرب، ما لم يكن بحلب لبني حمدان، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان، وكان كثيراً ما يدير به راحه، ويجعل فيه انشراحه، فلما امتد الزمان إليه بعدوانه، وسد عليه أبواب سلوانه، لم يحن إلا إليه، ولم يتمن غير الحلول لديه، فقال:

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكي عليه منبر وسريرُ
وتندبه البيض الصوارم والقنا ... وينهل دمع بينهن غزيرُ
مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح منه اليوم وهو نفورُ
برأي من الدهر المضلل فاسد ... متى صلحت للصالحين دهورُ
أذل بني ماء السماء زمانهم ... وذل بني ماء السماء كبيرُ
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ
بمنبتة الزيتون مورثة العلا ... تغني حمامٌ أو ترن طيورُ
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا ... تشير الثريا نحونا ونشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعوده ... غيورين والصبُّ المحبُّ غيورُ
تراه عسيراً لا يسيراً مناله ... ألا كل ما شاء الإله يسيرُ

وثار ابنه عبدالجبار في الأندلس واجتمع حوله بعض من أهلها فعلم بذلك يوسف بن تاشفين فأمر بإثقال القيود عليه فقال:

قيدي أما تعلمني مسلماً ... أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرني فيك أبو هاشم ... فينثني القلب وقد هشما

وقال أيضا:

غمتك أغماتية الألحان ... ثقلت على الأرواح والأبدانِ
قد كان كالثعبانِ رمحك في الورى ... فغدا عليك القيدُ كالثعبانِ
متمرداً يحميك كل تمرد ... متعطفاً لا رحمة للعاني
قلبي إلى الرحمن يشكو بَثَّه ... ماخاب من يشكو إلى الرحمنِ
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ... ما كان أغنى شأنه عن شانِ
هاتيك قينته وذلك قصره ... من بعد أي مقاصر وقيانِ

ولما فقد من يجالسه، وبعد عنه من كان يؤانسه، وتمادى كربه، ولم تسالمه حربه، قال:

تؤمل للنفس الشجية فرجةً ... وتأبى الخطوب السودُ إلا تماديا
لياليك في زاهيك أصفى صحبتها ... كذا صحبت قبلي الملوك اللياليا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ ... وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا

ولما امتدت في الثقاف مدته، واشتدت عليه قسوة الكبل وشدته، وأقلقته همومه، وأطبقته غمومه، وتوالت عليه الشجون، وطالت لياليه الجون، قال:

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا ... بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا

سرت من الغرب لا تطوى لها قدم ... حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا

فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة ... وأغرق الدمعُ آماقاً وأحداقا

قد ضاق صدر المعالي إذ نعيت لها ... وقيل: إن عليك القيد قد ضاقا

أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب ... للغالبين وللسباق سباقا

قلت الخطوب أذلتني طوارقها ... وكان غربي إلى الأعداء طراقا

متى رأيت صروف الدهر تاركة ... إذا انبرت لذوي الأخطار أرماقا

وقال ابن خاقان: لما ثار ابنه حيث ثار، وأثار من حقد أمير المؤمنين عليه ما أثار، جزع جزعاً مفرطاً، وعلم أنه قد صار في أنشوطة الشر متورطاً، وجعل يتشكى من فعله ويتظلم، ويتوجع منه ويتألم، ويقول: عرض بي للمحن، ورضي لي أن أمتحن، ووالله ما أبكي إلا انكشاف من أتخلفه بعدي، ويتحيَّفه بعدي، ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهللت سريرته، وظللته مسرته، ورأيته قد استجمع، وتشوف إلى السماء وتطلع، فعلمت أنه قد رجا عودة إلى لطانه وأوبة إلى أوطانه، فما كان إلا بمقدار ما تنداح دائرة، أو تلتفت مقلة حائرة، حتى قال:

كذا يهلك السيف في جفنه ... على هز كفي طويل الحنينِ

كذا يعطش الرمح لم أعتقله ... ولم تروه من نجيع يميني

كذا يمنع الطرف علك الشكيـ ... ـم مرتقباً غرة في كمينِ

كأن الفوارس فيه ليوث ... تراعي فرائسها في عرين

ألا شرف يرحم المشرفي ... مما به من شمات الوتينِ

ألا كرم ينعش السمهري ... ويشفيه من كل داء دفينِ

ألا حنة لابن محنية ... شديد الحنين ضعيف الأنينِ

يؤمل من صدرها ضمة ... تبوئه صدر كفؤ معينِ

وكانت طائفة من أهل فاس قد عاثوا فيها وفسقوا، وانتظموا في سلك الطغيان واتسقوا، ومنعوا جفون أهلا السنات، وأخذوا البنين من حجور آبائهم والبنات، وتلقبوا بالإمارة،

وأركبوا السوء نفوسهم الأمارة، حتى كادت أن تقفز على أيديهم، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم، إلى أن تدارك أمير المسلمين رحمه الله تعالى أمرهم، وأطفأ جمرهم، وأوجعهم ضرباً، وأقطعهم ما شاء حزناً وكرباً، وسجنهم بأغمات، وضمتهم جوانح الملمات، والمعتمد إذ ذاك معتقل هناك، وكانت فيهم طائفة شعرية، مذنبة أو بيرة، فرغبوا إلى سجانهم، أن يستريحوا مع المعتمد من أشجانهم، فخلى ما بينهم وبينه، وغمض لهم في ذلك عينه، فكان المعتمد -رحمه الله تعالى- يتسلى بمجالستهم، ويجد أثر مؤانستهم، ويستريح إليهم بجواه، ويبوح لهم بسره ونجواه، إلى أن شفع فيهم وانطلقوا من وثاقهم، وانفرج لهم مبهم أغلاقهم، وبقي المعتمد في محبسه يشتكي من ضيق الكبل، ويبكي بدمع كالوبل، فدخلوا عليه مودعين، ومن بثه متوجعين، فقال:

أما لانسكاب الدمع في الخد راحة ... لقد آن أن يفنى، ويفنى به الخدُّ
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلىً ... بما منه قد عافاكم الصمد الفردُ
تخلصتم من سجن أغمات والتوت ... علي قيود لم يحن فكها بعدُ
من الدهم أما خلقها فأساود ... تلوى وأما الأيد والبطش فالأسدُ
فهنيتم النعما، ودامت لكلكم ... سعادته إن كان قد خانني سعدُ
خرجتم جماعات وخلفت واحدا ... ولله في أمري وأمركم الحمدُ

ومرَّ عليه في موضع اعتقاله سرب قطاً لم يعلق لها جناح، ولا تعلق بها من الأيام جناح، ولا عاقها عن أفراخها الأشراك، ولا أعوزها البشام ولا الأراك، وهي تمرح في الجو، وتسرح في مواقع النو، فتنكد بما هو فيه من الوثاق، وما دون أحبته من الرقباء والأغلاق، وما يقاسيه من كبله، ويعانيه من وجده وخبله، وفكر في بناته وافتقارهن إلى نعيم عهدنه، وحبور حضرنه وشهدنه، فقال:

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي ... سوارح لا سجن ولا كبلُ
ولم تك، والله المعيذ، حسادة ... ولكن حنيناً أن شكلي لها شكلُ
فأسرح لا شملي صديع، ولا الحشا ... وجيع، ولا عيناي يبكيهما ثكلُ
هنيئاً لها أن لم يفرق جميعها ... ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهلُ
وإذ لم تبت مثلي تطير قلوبها ... إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفلُ
وما ذاك مما يعتريه، وإنما ... وصفت التي في جبلة الخلق من قبلُ
لنفسي إلى لقيا الحمام تشوف ... سواي يحب العيش في ساقه كبلُ
ألا عصم الله القطا في فراخها ... فإن فراخي خانها الماء والظلُ

وهـو في هـذه الحالـة زاره الأديب أبو بكر بن اللبانـة، وهو أحد شعـراء دولته المرتضعين دررهـا، المنتجعين دررهـا، وكان المعتمـد -رحمه الله تعـالى- يميزه بالشفـوف والإحسان، ويجوزه في فرسان هذا الشان، فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليـه التواء الأساود السـود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً بدم، بعدما عهـده فوق منبر وسرير، ووسط جنـة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، وتكف الأمطار من راحته، وتشرف الأقدار بحلول ساحته، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيه، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد، ويثير فيها لوعة الحرث بن عباد، أبـدع من أناشيد معبد، وأصدع للكبد من مراثـي أربد، أو بكاء ذي الرمة بالمربد، سلك فيها للاحتفاء طريقاً لاحباً، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحباً، فمن ذلك قوله:

انفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلي قد كتمت ... سريرة العالم العلوي أغماتُ
طوت مظلتها لا بل مذلتها ... من لم تزل فوقه للعز راياتُ
من كان بين الندى والبأس أنصله ... هندية وعطاياه هنيداتُ
رماه من حيث لم تستره سابغة ... دهر مصيباته نَبْلُ مُصيباتُ
أنكرت إلا التواءات القيود به ... وكيف تنكر في الروضاتِ حياتُ
غلطت بين همامين عقدن له ... وبينها فإذا الأنواع أشتاتُ
وقلت هنَّ ذؤابات فلم عكسن ... من رأسه نحو رجليه الذؤاباتُ
حسبتها من قناه أو أعنته ... إذا بها لثقاف المجد آلاتُ
دروه ليثاً فخافوا منه عادية ... عذرتهم فلعدو الليث عاداتُ
لو كان يفرج عنه بعض آونة ... قامت بدعوته حتى الجماداتُ
بحر محيط عهدناه تجيء له ... كنقطة الدارة السبع المحيطاتُ
لهفي على آل عبادٍ فإنهم ... أهلة ما لها في الأفق هالاتُ
راح الحيا وغدا منهمْ بمنزلة ... كانت لنا بكرٌ فيها وروحاتُ
أرض كأن على أقطارها سرجاً ... قد أوقدتهن بالأدهان أنباتُ
وفوق شاطئ واديها رياض ربىً ... قد ظللتها من الأنشام دوحاتُ
نهر شربت بعبريه على صور ... كانت لها في قبل الراح سوراتُ
وربما كنت أسمو للخليج به ... وفي الخليج لأهل الراح راحاتُ
وبالعروسات لا جفت منابتها ... من النعيم غروسات جنياتُ

ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات، وخلده يتردد بين النكبات والعثرات، ونفسه تتقسم بين الأشجان والحسرات، إلى أن شفته منيته، وجاءته بها أمنيته، فدفن بأغمات، وأريح من تلك الأزمات:

وعطلت المآثر من حلاها وأفردت المفاخر من علاها

ورفعت مكارم الأخلاق، وكسدت نفائس الأعلاق، وصار أمره عبرة في عصره، وصاب أندى عبرة في مصره. وبعد أيام وافى أبو بحر بن عبد الصمد شاعره المتصل به، المتوصل إلى المنى بسببه، فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحىً، وظهر كل متوار واضحاً، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم، واختيالهم بزينتهم وحلاهم، وقال -بعد أن طاف بقبره والتزمه، وخر على تربه ولثمه-:

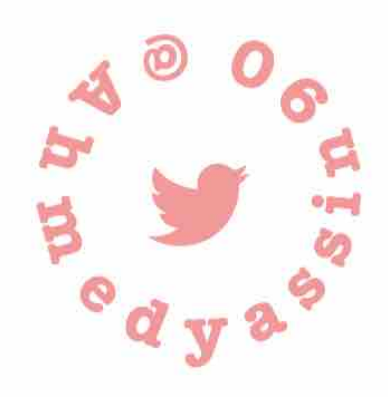
ملك الملوك، أسامعُ فأنادي أم قد عدتك عن السماعِ عوادي

لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الأعيادِ

قبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذت قبرك موضع الإنشادِ

وهي قصيدة أطال إنشادها، وبنى بها اللواعج وشادها، فانحشر الناس إليه وانحفلوا، وبكوا ببكائه وأعولوا، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم، وأقرحوا مآقيهم بفيض شؤونهم، وهذه نهاية كل عيش، وغاية كل ملك وجيش، والأيام لا تدع حياً، ولا تألو كل نشر طياً، تطرق رزاياها كل سمع، وتفرق مناياها كل جمع، وتصمي كل ذي أمر ونهي، وترمي كل مشيد بوَهْي، ومن قبله طوت النعمان بن الشقيقة، ولوت مجازه في تلك الحقيقة.




@Ahmedyassin90

علي بن تاشفين

تولى الحكم بعد يوسف بن تاشفين ابنه علي بن يوسف وكان عمره عند توليه الحكم ثلاثة وعشرين عاماً، وقد اختاره والده رغم وجود من هو أسنَّ منه من إخوانه لما وجده فيه من رجاحة العقل، والورع، والشجاعة، ولاجتهاده في السير على نهج أبيه.

وكان أهم اختبار لهذا الحاكم الشاب الجديد معركة حصن أفليش التي وقعت بين المسلمين والقشتاليين، وقد كان على رأس الجيش القشتالي الإنفانت سانشو بن الفونسو السادس وولي العهد البالغ من العمر أحد عشر عاماً، وأمه اسمها «زائده» التي ذكرت بعض الرويات أنها إحدى زوجات أو محظيات الفتح بن المعتمد المسلمة التي تنصرت، وعلى رأس جيش المسلمين تميم بن تاشفين الأخ الأكبر لعلي، وقد كانت معركة قوية وحاسمه انتهت بانتصار المسلمين ووفاة الصبي سانشو، وقد استطاع المسلمون استرداد الجزائر الشرقية بعد أن عبر البحر من مركزه مراكش إلى الأندلس، وكان قد عبرها قبل ذلك لردع أعدائه النصارى.

ومآسي الأندلس تتدفق تدفق السيل من قمم الجبال، وكلما اطمأن الناس ورجوا دوام الحال، خرج للفتنة موقد، وللخراب مؤثر، وللسكينة مجافي، وللحق منافي، يقول ابن الأثير: «إنَّ الناس خرجوا يوم العيد متفرجين، فمد عبد من عبيد أبي بكر والي قرطبة يده إلى امرأة وأمسكها، فاستغاثت فأغاثها الناس، فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة، ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل، ووصل الخبر إلى الوالي الأمير أبي بكر، واجتمع إليه الفقهاء والأعيان واقترحوا عليه تهدئة للحال أن يقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة، فأنكر ذلك وغضب، وفي اليوم التالي استعد للقتال وأظهر السلاح والعدد، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء وهزموه، فتحصن في القصر فحاصروه، وفر منهم بعد مشقة، فنهبوا القصر وأحرقوا دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة».

المأساة تتعدى خروجهم إلى ما هم أعظم من ذلك وهو بداية الخروج على المرابطين في ظل الحكم الجديد، ولا يمكن أن ننسى ما قد يحدث من سوء تدبير من قبل الولاة حتى مع صلاح الحاكم، وسوء التدبير هذا يدفع بالعامة إلى السخط على الحاكم في أمر لم يقترفه فيسوء الحال.

ودخل علي بن يوسف الأندلس للمرة الرابعة في جيش كبير، وتفاوض مع قاضي قرطبة ابن رشد وأعيانها، وانتهى التفاوض إلى اتفاق يدفع بمقتضاه أهل قرطبة تعويضاً عما تم نهبه وتخريبه.

وبقي علي بن يوسف في قرطبة مدة يسيرة، فوردت إليه أنباء من مراكش عن استفحال أمر محمد بن تومرت المهدي في السوس الأقصى من بلاد المغرب.

ومأساة أخرى ونذير شر وهي حصار سرقسطة لمدة سبعة أشهر وأهلها يتضورون جوعاً، وكان الجيش المرابط مؤثراً العافية، ممتنعاً عن المواجهة، تاركاً المدينة بمن فيها لمستقبل مجهول، هذا المستقبل جعلها تخرج من أيدي المسلمين إلى عصرنا هذا بعد أن بقيت في ايديهم نحو أربعة قرون.

ولقد ناشد قاضي سرقسطة ثابت بن عبدالله الأمير تميم بن يوسف للقدوم ومقارعة العدو وذلك قبل سقوطها فقال: «وما كان إلا أن وصلت، وصل الله برك بتقواه، على مقربة من هذه الحضرة، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة، بتلك العساكر التي أقرَّ العيون بهاؤها، وسرَّ النفوس زهاؤها، فسرعان ما انثنيت وانتهيت، وارعويت وما أدنيت، خابياً عن اللقاء، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء، فما أوليتنا غناء، بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء، بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء، بل أذللت الإسلام والمسلمين، واجترأت فضيحة الدنيا والدين، فيالله ويا للإسلام، لقد اهتضم حومه وحماه أشد الاهتضام، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام، ونكصت عن لقاء عدوه، وهو في فئة قليلة وملة رذيلة، وطايفة قليلة».

وتوالى سقوط المدن القريبة منها، فقد نشبت معركة بين المسلمين والنصارى في تطيله هزم فيها المسلمون فسقطت، واستمر تهاوي العقد في وسط الأندلس.

وعلينا ألا ننسى أنه تزامن مع هذه الأحداث المؤلمة في الأندلس أحداث جسام في المغرب، وذلك باستفحال حركة محمد بن تومرت المهدي مما يعوق إرسال جيش كبير إلى الأندلس لمقارعة الخصوم، وهذه مأساة أخرى صنعها المسلمون بأيديهم وحصدوا ثمارها تشريداً ومذلَّة.

وعاد ألفونسو الأرجواني إلى محاربة المسلمين، وكانت موقعة القلاعة التي انهزم فيها المسلمون، وقتل منهم نحو اثني عشر ألفاً وتم سلب ما لديهم، ونكبوا نكبة نكراء فأرسل الأمير علي بن يوسف إلى قائد جيشه خطاباً معاتباً إياه فيه فقال: «وإنَّ لبيان العذر بتلك الحال لقصير، وإنَّ الله على ذلك المشهد المضيع لمطَّلِعٌ بصير، توافقتم مع عدوكم، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً، وأقوى دونه دفعاً، فتب وزللتم، وجدَّ ونكلتم، وشدَّ عقدة عزيمته وحللتم، وكنتم في تلك الوقعة قرَّة عين الحاسد، وشماتة العدو والراصد، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة، ودعامتكم لولا إنثناؤه عنكم مائلة، فشغله عنكم من غررتموه من الرجل الذي أسلمتوه للقتل، وفررتم ونصبتموهم دريئة للرماح ثم طرتم، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه، لا نكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم، عاقبكم الله بما أنتم أهله».

بعد هذه المعركة حدثت معركة أخرى عام ٥٢٨ هـ، كان المسلمون بحاجة ماسة لها وهي معركة إفراغة، وفيها سار الفونسو الأرجواني لمقارعة المسلمين، فكان القتال عند إحدى المدن الحصينة واسمها إفراغة، حيث أقسم الفونسو مع عشرين من الفرسان ألا يعودوا بغير النصر أو الموت.

وكان يحيى بن عاينه قائد المسلمين قائداً عليماً بأمور الحرب ودروبه، فكان قتالاً شديداً قتل على إثره الفونسو وانتصر جيش المسلمين وكان نصراً مؤزراً أعاد للمسلمين هيبتهم.

وخطأ ارتكبه المسلمون يمكن إدراجه تحت الماساة، وهو ضياع فرصة التقدم إلى الشمال واسترداد سرقسطة في وقت كان الجيش الأرجواني منهزماً هزيمة ساحقة مات خلالها الفونسو الأرجواني المحارب الذي لاشك أن مقتله قد جعل الجيش الأرجواني يفقد به محارباً جباراً وقائداً عظيماً.

وبهذه الواقعة كان هناك القشتاليون وقاعدتهم طليطلة، والأرجوانيون وقاعدتهم سرقسطة والمسلمون وقاعدتهم غرناطة في انتظار الأحداث المتتالية.

ينقل لنا المراكشي في كتابه المعجب عن اختلال أحوال المرابطين فيقول: «واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لإستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من عليٍّ أمير المسلمين وأحق بالأمر منه! واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهم الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسفة مشتملة على كل مُفْسِدٍ وشرِّير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال، فاختَلَّ لذلك عليه كثيرٌ من بلاد الأندلس، وكادت تعود إلى حالها الأول، لا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس».

وشواهد تأثره بالنساء كثيرة، ومنها أن سريته «قمر» أم ولده «سير» أقنعت زوجها علي بن تاشفين على تولية ابنها ولاية العهد مع أنه يركن للراحة والبطالة، ويصطحب أهل الفكاهة والمجون كما يقول ابن عذارى، وقد قُتل «سير» هذا في حياة أبيه واختلف الرواة في سبب مقتله، ولعل الرواية التي ينقلها لنا ابن القطان أقرب إلى الصواب مع قبحها، فقد تسور سير سور قصر أخيه عمر، يريد زوجة أخيه والعياذ بالله، فجرح جراحاً مات على أثرها، فجزع عليه أبوه، وحاولت سريته قمر أن تولي ابنها الصغير إسحاق مكان أخيه ولياً للعهد مع أنه لم يبلغ الحلم، فتردد في ذلك فأكثرت الإلحاح، فاستشار الفقهاء والأعيان فهتفوا جميعاً باسم تاشفين فولاه العهد متلطفاً لمحظيته قمر بعدم تولية ابنها.

وعلينا أن ندرك أن المأساة تكمن في تغليب الهوى، فلما سَلِمَ المسلمون من حكام الطوائف الذين اشتغلوا باللهو والمجون والنساء، وتولى الحكم المرابطون الأتقياء، لم يسلم المسلمون أيضاً من شهوات الزوجات من حرائر ومحظيات.



تاشفين بن يوسف

أثنـاء حكـم أمير المؤمنين علي ابـن تاشفين كان ابنه تاشفين واليـاً على الأندلس من قبـل والـده، وكان قد داع صيته في مقارعة الخصوم فنال شهـرة عالية، وبعد توليه ولاية العهـد بعـد وفاة أخيه «سير» وفشل محضية أبيه «قمـر» في تولية ابنها الصغير «اسحاق» بسبب إجماع رؤساء القوم على تولية تاشفين ابن علي ولاية العهد، أظهر أبو بكر ابن علي ابـن تاشفين أحد إخوة تاشفين عدم رضـاه عن تولي أخيه ولاية العهد، فما كان من أمير المؤمنين علي ابن تاشفين إلاَّ أن عزله.

وكانـت غرناطة مقر قيـادة الأندلس أثناء ولاية تاشفين لها من قبـل أبيه، وكان أحد مساعديـه الأديب المعروف بـ«الصـيرفي». وظلت غرناطة مركزاً لقيـادة الأندلس إلى أن قرر أمير المؤمنين بمراكش علي ابن تاشفين انتقال القيادة والمركز إلى قرطبة، وأمر ابنه والـوالي من قبله على الأندلس بـأن يتجه إلى قرطبة ويتخذها مركـزا لقيادته ومستقراً لسكنـاه، فدخـل تاشفين قرطبة سنة ٥٢٦ هـ وعزل واليها «عبدالله ابن قنونة»، وذكر ابن يقطـان في كتابه «نظـم الجمان» أنه اغتيل رغم قرابته لأمير المؤمنين، ولم تذكر المصادر سبباً لذلك. وقال صاحب كتاب «المغرب» عن تاشفين ابن علي: «كان بطلا شجاعاً حسن الركيبـة والهيئـة لولا بخل أَخَلَّ به، وقراءة كتب المريدين، وقيل أنَّه لم يشرب قط مسكراً، ولا استمـع إلى قينـة، ولا اشتغـل بلذة صيد، ولا غـير ذلك مما يلهو به الملـوك من سائر اللهو». كما نوَّه «الصيرفي» بورعه وتقواه وصيامه وقيامه.

وقام تاشفين ابـن علي أثناء ولايته للأندلس بعدة غزوات في «الأرش» القشتالية، وقد وصل في أحد غزواته إلى قلعة «رياح البعيدة».

وفي عـام ٥٢٦ هـــ حلت المجاعة بقرطبـة وانتشر الوباء وكثر المـوت، وكثر أهل الشر، وسـادت الفوضـى. وبحلـول نهاية نفس العـام استطـاع القشتاليون مهاجمـة أشبيلية والإطبـاق علـى المرابطين بعد معركـة قوية قتل فيها عمر ابن الحـاج والي المدينة واشتد الخوف والجزع بين الناس.

وسار تاشفين بن علي إلى مكان يقال له «البكار» راغبا مقارعة أعدائه القشتاليين، واستطاع القشتاليون استدراج الجيش المرابطي، فهجموا عليهم، وتمكنوا من اختراق جيش المرابطين، فدبَّ الخلل في الجيش، فَعَلَا صياح المسلمين، ووصل جند قشتالة إلى خيمة أمير المسلمين تاشفين، فحاول بعض جنده إقناعه بالتقهقر خوفا على سلامته فأبى وأصر على مواصلة المواجهة، فكانت معركة حامية قتل فيها عدد كبير من المسلمين والقشتاليين انتهت بعودة القشتاليين إلى مواقعهم بعد قتل العديد من فرسان المرابطين.

وقد كتب له يحيى بن المصري بقصيدة قال فيها:

واحذر كمين الروم عند لقائها	واقض كمينك خلفها إذ تدفعُ
لا تبقين النهر خلفك عندما	تلقى العدو فأمره متوقعُ
واجعل مناجزة العدو عشية	ووراءك الصدف الذي هو أمنعُ
واصدمه أول وهلة لا ترتدع	بعد التقدم فالنكول يضعضعُ
وإذا تكاثفت الرجال بمعركٍ	ضنك فأطراف الرماح تُوسِّعُ
ومضت تؤذن بالصميل جيادها	والهام تسجد والصوارم تركعُ
والرمح يثني معطفيه كأنه	في الراح لا علق الفوارس يكرعُ
من معشرٍ إعراض وجهك عنهم	فعل الجميل وسخطك المتوقعُ
يكبو الجواد وكل حبر عالم	يهفو وتنبو المرهفات القُطَّعُ
أنَّى قرعتم يا بني صنهاجة	وإليكم في الروع كان المفزعُ
ما أنتم إلا أسودٌ حفْيةٌ	كلٌّ بكل عظيمة تستطلعُ
أو ما ليوسف جده مَنٌّ على	كل وفضل سابق لا يرفعُ
أو ما لوالده علي نعمة	وبكل جيدٍ ربقةٌ لا تخلعُ
ولكم بمجلس تاشفين كرامةٌ	وشفيعكم فيما يشاء مشفعُ
ألا رعيتم ذاك في أحسابكم	وأنفتم من قالةٍ تستشنعُ
ومن العجايب أنه مع سنه	أدرى وأشهر في الخطوب وأضلعُ
ولقد عفا والعفو منه سجيةٌ	ولسطوةٍ لو شاء فيكم موضعُ

وقد قامت بعض الحوادث الاجتماعية الداخلية والاضطرابات مثل تلك المنازعات بين المسلمين واليهود بسبب وفاة أحد المسلمين في حي من أحياء اليهود، كما أنَّ العامَّة قد ثارت على قاضي قرطبة «أبو بكر بن العربي» الذي كان أوقع بهم أشدّ العقوبات لأسباب قد لا تستحق ذلك.

وكما نعلم فإنَّ المجتمع الأندلسي تعوَّد على الاستمتاع بمباهج الحياة، فكان من الصعب على مجتمع كهذا أن يقبل قاضياً متشدداً في الأمور السلوكية قبل تهيئة المجتمع وإقناعه بأنَّ السلوك القويم والعمل الجاد هو السبيل الأصلح لحماية الأندلس من الضياع.

وقد وقعت حادثة أخرى أليمة، وهي مقتل قاضي قرطبة «أحمد بن خلف»، وهو راكع وقت صلاة الجمعة، فسال دمه في المسجد أمام المصلين، وهذه دلالة أخرى على أنَّ الوضع الاجتماعي في قرطبة لم يكن مساعدا لاستمرار حكم المرابطين.

ولقد قام «ألفونسو ريمونتس» ملك قشتالة بغزو ديار المسلمين، ومعه سيف الدولة «المستنصر بن هود» المسلم، فقد سار هو على رأس أحد الجيشين بينما قاد الجيش الآخر سيف الدولة «ابن هود»، واجتمع الجيشان على مقربة من قرطبة، وكان الفصل فصل حصاد، فأمر ملك قشتالة بنسف حقول القمح وقطع أشجار الكروم والزيتون وغيرها، فساد الرعب بين المسلمين، وهجروا السهول والقرى وتوجهوا للجبال، ووصل الجيش في زحفه إلى أحواز أشبيلية، وهو يحرق المزارع والقرى والقلاع المهجورة، ويدمر المساجد ويحرق المصاحف، ويقبض على الفقهاء ويقيدهم، وامتلأت صفوف القشتاليين من الأقوات والغنائم والأسرى المسلمين، وقد راسل بعض حكام الحصون سيف الدولة «المستنصر بن هود» طالبين منه تخليصهم من المرابطين ممالأة للمستنصر، فطلب منهم الثورة على ولاة المرابطين وخيانتهم ومن ثم مجيئه إليهم، غير أنَّ ملك قشتالة قررَّ العودة فرجع معه سيف الدولة «المستنصر بن هود»، فظلت الحصون في يد المرابطين وخاب ظن أولئك الممالئين لابن هود.

وهكذا تتضح أحوال أهل الأندلس في تلك الفترة، حيث تململ من قبل المجتمع وضيق بالحكام الذين لم يستطيعوا التعامل مع واقع الأندلس المختلف، إضافة إلى الرغبة

الجامحة من الأندلسيين في ذلك الزمان إلى المباهج واللهو، والانصراف عن مقارعة الخصوم، في الوقت الذي يزداد فيه عدوهم قوة، وكسباً للمزيد من الأرض، وكان أمر المرابطين في تلك الحقبة من الزمان إلى زوال، ودعوة الموحدين في رقي واعتدال.

وبعد وفاة أمير المسلمين علي بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ، خرج تاشفين إلى تلمسان طمعاً في التفاف الناس حوله، بعد امتلاك الموحدين للأمر، ولم يدم حكم تاشفين سوى ثلاثة أعوام، وكان طول هذه الولاية لا يستقر له قرار ولا يستقيم له حال، تنبو به البلاد، وتتنكر له العباد.

ويروى أنَّه قصد وهران رغبة في القرب من البحر حتى يتمكن من العبور إلى الأندلس إذا ما خسر معركته مع الموحدين، وكان في ضاحية من وهران ربوة بالقرب من البحر بأعلاها رباط يتجه إليه أهل وهران للتعبد، فلمّا كانت ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك –وهي ليلة يجتهد فيها المسلمون لا سيما أهل المغرب في العبادة– رغب تاشفين مشاركة الناس تلك الليلة التضرع والعبادة، وعلم الموحدون من خلال عيونهم بانفراد تاشفين بذلك الرباط، فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه، فوثب على ظهر فرسه آملاً أن يستطيع الوثوب وثبة فارس وهو على فرسه فيجتاز النار، لكنَّ الفرس راعته النار فانحرف إلى جرف إلى جهة البحر، فسقط على حجارة وعرة، فتهشَّم الفرس ومات الفارس أمير المسلمين «تاشفين ابن علي»، وأجمع المرابطون بعد وفاته على أخيه إسحاق بن علي –بن محظية أمير المؤمنين علي بن تاشفين «قمر» والغالبة على أمره حتى نهاية عهده–، وكان صبياً، فدخل الموحدون عاصمة المرابطين مراكش سنة ٥٤٢ هـ بعد حصار استمر إحدى عشر شهراً، وقتلوه صبراً.

وبهذا يطوي الزمن صفحة من صفحات تاريخ المغرب والأندلس، كانت مليئة بالأحداث والمآسي، فمن خلالها زال حكم الطوائف، وفرض فكر جديد، وسلوك مختلف عما ألفه أهل الأندلس.

وأمَّا أحوال الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة

وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة.

ولما رأى أعيان الأندلس ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين أخرجوا من كان عندهم من الولاة، واستبد كل منهم بضبط بلده، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية، فأما بلاد «أفراغة» فاستولى عليها ملك «أرغن» وملك مع ذلك «سرقسطة» وكثيراً من أعمال تلك الجهات.

واتفق أمر أهل «بلنسية» و«مرسية» وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه «عبدالرحمن بن عياض»، الذي قال عنه المراكشي: وكان عبدالرحمن هذا من صلحاء الأمة وخيارهم، وكان مجاب الدعوة. ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة، فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد، ولا يستطيع لقاءه بطل، كان النصارى يعدونه وحده بمئة فارس إذا رأوا رايته قالوا: هذا ابن عياض! هذه مئة فارس! فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح، وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردَّهم عن البلاد. وأقام ابن عياض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفي.

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه «محمد بن سعد» المعروف عندهم «بابن مردنيش»، وكان خادماً لابن عياض يحمل له السلاح، ويتصرف بين يديه في حوائجه، فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له: إلى من تسند أمورنا وبمن تشير علينا؟ وكان له ولد فأشاروا به عليه فقال: إنه لا يصلح لأني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة، فإن كان ولا بد فقدموا عليكم هذا -وأشار إلى محمد بن سعد- فإنه ظاهر النجدة كثير الغناء، ولعل الله أن ينفع به المسلمين!

وأما أهل «ألمرية» فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم، فندبوا إليها القائد أبا «عبدالله بن ميمون» ولم يكن منهم إنما هو

من أهل مدينة «دانية» فأبى عليهم وقال: إنما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر وبه عرفت، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري. فقدموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه «عبدالله بن محمد» يعرف «بابن الرميمي» فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر؛ فقتلوا أهلها، وسبوا نساءهم وبنيهم، وانتهبوا أموالهم.

ومَلَكَ «جيان» وأعمالها إلى حصن «شقورة» وما والى تلك الثغور رجل اسمه «عبدالله» معروف عندهم بابن «همشك» وربما ملك عبدالله هذا قرطبة أياماً يسيرة.

وأقامت على طاعة المرابطين غرناطة وأشبيلية.

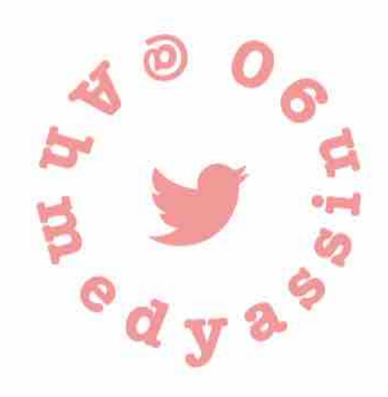
وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورؤوس ضلالات فاستفزوا عقول الجهال واستمالوا قلوب العامة، من جملتهم رجل اسمه «أحمد بن قسي» كان في أول أمره يدعي الولاية وكان صاحب حيل ورب شعوذة، وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة، ثم ادعى الهداية، ثم لم يستقم له شيء مما أراد واختلف عليه أصحابه وكان قيامه بحصن «مارتلة» فأسلمه أصحابه واختلفوا عليه ودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد فعبروا به إلى العدوة، فأتوا به عبدالمؤمن فقال له: بلغني أنك ادعيت الهداية، فكان من جوابه أن قال: أليس الفجر فجرين كاذب وصادق، فأنا كنت الفجر الكاذب. فضحك عبدالمؤمن وعفا عنه ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس.

وبهذا يطوي الزمن صفحة من صفحات تاريخ المغرب والأندلس، كانت مليئة بالأحداث والمآسي، فمن خلالها زال حكم الطوائف، وفرض فكر جديد، وسلوك مختلف عما ألفه أهل الأندلس.





قصر بمدينة أشبيلية: المدينة التي دخلها المرابطون وقضو فيها على المعتمد بن عباد
أشهر ملوك الطوائف

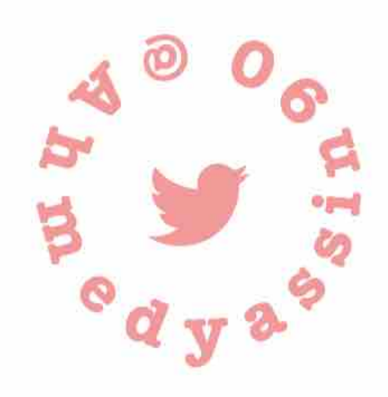

@Ahmedyassin90

الفصل السابع

المُوحّدُون

- محمد بن تومرت المهدي.
- عبدالمؤمن بن علي.
- يوسف بن عبدالمؤمن بن علي.
- يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن (المنصور).
- محمد الناصر.
- يوسف المستنصر.




@Ahmedyassin90

محمد بن تومرت المهدي

عندما نتحدث عن الموحدين فعلينا أن نذكر رجلاً كان منطلق قيام هذه الحركة الدينية، ألا وهو محمد بن تومرت المتسمى بالمهدي، وهو من أبناء الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد ولد في سوس جنوب غرب المغرب، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، رحل إلى المشرق وعمره ستة عشرة سنة، ويقال أنه قابل أبا حامد الغزالي بعد إحراق كتبه من قبل علي بن تاشفين زعيم المرابطين فسمعه يقول: «ليذهبن عن قليل ملكه، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا»، وكان ابن تومرت جالساً فقوى طمعه.

والحقيقة أنَّ هذه القصة التي أوردها المراكشي من الأحاجي والخرافات التي يحاول البعض ربطها بالمشاهير لا سيما الفقهاء والصالحين والزهاد، فَعِلْمُ الغيب عند الله وحده جلَّ جلاله.

قام ابن تومرت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة المكرمة والإسكندرية ووجد من ذلك عناءً شديداً، فسافر بالبحر قاصداً المغرب، ويقول ابن خلكان أنه لما وصل المهدية نزل في مسجد مغلق وجلس منه في طاق مشرف على الطريق العام ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فسمع الناس به في البلد فجاؤوا إليه. والتقى ابن تومرت مع رجل يقال له عبد المؤمن يعلم الصبيان، فسأله بن تومرت مساعدته للقيام بدعوته.

ويقال أنَّ عبد المؤمن رأى في المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وأنَّ أكله زاد عن أكل أمير المسلمين، ثم اختطف الصحفة من بين أمير المسلمين علي بن تاشفين وانفرد بها، ولقد قص رؤياه على رجل كان يقرأ عليه فقال له: يا عبد المؤمن هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك، إنما هي لرجل ثائر يثور على أمير المسلمين يشاركه في بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها، مستبعداً لأن يكون عبد المؤمن هو الثائر.

فكان ما رأى في المنام حقيقة للعيان بعد مدة من الزمن، والله أعلم، وربما تكون هذه أيضاً من ضمن تلك القصص التي طُرِّزَت بها حياة ابن تومرت وعبد المؤمن، ونسج من الأحاجي حول بداية لقاء ابن تومرت مع عبد المؤمن، وهذا مالا يقبله عقل ولا يستسيغه فهم.

عندما ذاع أمره كتب بذلك إلى علي بن تاشفين وأحضر للمناظرة فكانت له الحجة الغالبة، فقال أحد الفقهاء لعلي بن يوسف: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد إلاَّ مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير! وأشار عليه بقتله أو سجنه، فقال علي بن يوسف: علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء، فخرج وأصحابه متوجهاً إلى سوس.

كان قرار علي بن يوسف بن تاشفين بعدم قتله أو سجنه صواباً، غير أنَّ إخراجه من البلد كان خطأً جنى ثماره زوال حكمه فلو أبقاه تحت ناظريه كان أسلم له، ولكن لا غالب إلا الله.

نزل في سوس وأخذ في نشر دعوته دون أن يظهر إمْرَةً أو طُلْبة ملك فاجتمع الناس حوله وطلب منهم القيام معه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها، وجعل يذكر بالمهدي ويشوِّق إليه وجمع الأحاديث التي وردت في ذكره، فلما استقر في نفوسهم نسبه وصفته ادعى ذلك لنفسه، فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بويع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، وذكر المراكشي فيما ذكر عنه أنه أشعري المذهب في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئاً من التشيع غير أنه لم يُظهره للعامة.

ويبدو أنَّ ابن تومرت أراد أن ينتقل من المهادنة إلى المواجهة، ومن الغزو باللسان إلى الحرب والطعان، فجهز جيشاً عظيماً من أتباعه وأمَّرَ عليهم عبد المؤمن وقال أنتم المؤمنون وهذا أميركم.

وسار الجيش لمقاتلة المرابطين والتقى الجمعان، فهُزِمَ عبد المؤمن بن علي وجيشه، وعندما عادوا والخيبة محيقة بهم جعل ابن تومرت يهوِّن عليهم الأمر ويذكرهم أن قتلاهم شهداء وإنما ذهبوا لإظهار السنة، وكثر الداخلون في طاعته، وكان يضرب الناس على مقارعة الخمر بالنعال وعسب النخيل، والضرب بهذه الكيفية لإتيان هذا الفعل لم يكن قائما بالمغرب أو الأندلس.

عبدالمؤمن بن علي

بعــد حربه مع المرابطــين بنحو سبع سنين مات ابن تومرت فتــولى القيادة عبدالمؤمن ابــن علــي، وكان ما قاله في توليته لعبدالمؤمن بن علي من بعده بعد أن ترحم على الخلفاء الراشديــن رضــي الله عنهم وذكَّر الناس بما كانوا عليه من الثبات في دينهم وأنَّ أحدهم لا تأخذه في الله لومة لائم: «فانقرضت هذه العصابة نضَّر الله وجوهها وشكر لها سعيها، وجزاها خيراً عن أمة نبيها، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلاً مداهناً، فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناســ إليهــم». وأطال في ذلك، والغريب أنه يقول هذا وعلــي بن يوسف زعيم المرابطين الذين يعنيهم المهدي قوَّام للَّيل، صوَّام للنهار، جيوشه في الأندلس تحارب النصارى، بعد أن قضى على حكام الطوائف الغارقين في الملذات.

تولى عبدالمؤمن بن علي الأمر لمدة واحد وعشرين عاماً كانت مليئة بالأحداث الجسام وانقضاء عصر وبداية عصر آخر، وكان فصيح الألفاظ، جزل المنطق، محبباً إلى النفس، لايــراه أحــد إلا أحبــه، كما كان في نفسه ســريَّ الهمة، نزيه النفــس، لايرضى إلا بمعالي الأمور كما قال المراكشي.

وقال عنه بن تومرت:

تكاملت فيك أخلاقٌ خصصت بها ... فــكُـلُّـنَــا بــك مــســرور ومغـتـبـط
فالسِنُّ ضاحكة، والكفُّ مانحةٌ ... والصدر منشرح، والوجهُ منبسط

بــدأ ولايته بمواصلة حــرب المرابطين، والإصــرار على القضاء عليهــم، وقد ساعدته الظــروف في ذلك، فقد توفي علي بن يوسف زعيــم المرابطين وتولى ابنه تاشفين الذي لم تظهــر له الدنيا وجهها الوضَّاء، وإنمــا أبانت كالح وجهها، فكانت سيول غزيرة في طنجة تهدمت على أثرها البيوت ولم يبق إلاَّ القليل، كما شبَّ حريق هائل في فاس فقد على أثره الكثير، وخرج عليه بعض قادته وانضموا للموحدين.

انهـزم المرابطون على يد الموحديـن في معركة فاصلة بينهم، وسـار الجيش الموحدي إلى وهران فدخلها وقتل منها الكثير، وسبى النساء وكأن في فقههم إباحة ذلك، ثم دخل تلمسـان وغيرها من المدن والقرى، ودخـل فاس وهدم سورها منطلقاً من أنَّ الموحدين لا يحتاجون إلى سور فأسوارهم سيوفهم، ثم حاصر مراكش مدة طويلة وفتحها واستباحها ثلاثة أيام وأسر اللمتونيين وغيرهم، ثم اشتراهم عبد المؤمن من الموحدين وعفا عنهم.

وهكذا سالت دماء مسلمة بأيدي مسلمة وسبيت نساء مسلمات بأيدي مسلمين يدّعون أنهـم للفحش ماقتـين، وبحلل الله متمسكـين، وبدأت مأساة جديدة بدخـول فكرة دينية جديـدة لم يعهدها الغرب الإسلامي، فقد كان المذهب المالكـي موحداً للناس حامياً لهم مـن النزاعات الطائفية سائريـن تحت ظله مستمدين منه جُلَّ فقههـم، وكان المرابطون في قيامهـم بالأمر داعين للأخـذ بالفقه المالكي نابذين الانغماسـ في الملذّات والمعاصي، مصححـين بذلك سلوكاً غـير مبتدعين مذهباً، ثـم جاء الموحودن بفكـر جديد وأسلوب جديـد بدأوا به المغرب وأرادوا اجتيـاز البحر إلى الأندلس بما حملوه من أفكار وما راموه من ملك ودثار.

أليست تلك مأساة طال لهيبها الأندلس؟

بعـد أن استقـر أمـر الموحدين في المغـرب، تسابق حـكام الأندلس لتقديم الـولاء للوافد الجديـد رجاء إبقائهم على ماهم عليه، فقدم الـولاء والطاعة لهم ولاة الجزيرة الخضراء، ورنـده، وإشبيلية، وقرطبـة، وغرناطة، ومالقه، بينما بقيت بلنسيـة ومرسية وشرق الأندلس دون تقـديم الولاء، وجمع عبد المؤمن جموعه واستدعـى الشعراء في سابقة لم يفعلها قبل، في إشـارة علـى تغير في النهج وتحول مـن سلوك التقي الذي أقنع الناس بـأن أمره يقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى رجل يستقبل الشعراء ليمدحوه فيغدق عليهم الأموال.

وممن مدحه الشاعر الأصم المرواني ابن الطليق فقال:

وطـود طـارق قـد حـلَّ الإمـام بـه ... كـالطـور كـان لموسـى أيمـن الـرتب

لـو يعـرف الطـود مـا عـانـاه مـن كـرم ... لم يبسط النـور فيه الكف للسحب

إلى أن قال:

ما للعدا جُنَّة أوقى من الهرب ....

فقال عبدالمؤمن رافعاً صوته: إلى أين.. إلى أين؟

فقال:

.... **أين المفر وخيل الله في الطلب**

وأين يذهب من في رأس شاهقة **وقد رمته سماء الله بالشهب**

حدِّث عن الروم في أقطار أندلس **والبحر قد ملىء العبرين بالعرب**

فلما أتم قصيدته قال عبدالمؤمن: بمثل هذا يمتدح الخلفاء، فسمى نفسه خليفه من ذلك الوقت.

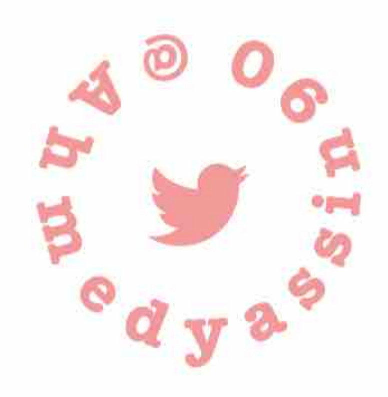
وبعد أن استقر به المقام، ولىَّ ابنه يوسف إشبيلية، وولىَّ غرناطة ابنه عثمان، كما ولىَّ باقي البلدان من يثق فيهم، ثم عاد إلى مراكش.

وفي عام ٥٥٧ هجريه، كتب إلى الأمصار يستحثهم على محاربة النصارى انطلاقاً من الأندلس، ونزل بمن معه في مدينة سلا فمرض هناك ومات، وكان قد عهد لابنه محمد بالأمر من بعده غير أنه كان مدمناً على الخمر، فأعجب من آمر بالمعروف يوليٍّ حكم المسلمين مدمن خمر!!!

ربما يكون للنساء شأن في ذلك، ليظهر لنا أن عامل النساء وحب الولد كان من عوامل اندثار الوجود الإسلامي في الأندلس، أليست تلك مأساة؟

واختلف على محمد اختلافاً كبيراً، فقرر الفقهاء وأبناء عبدالمؤمن خلعه، فتم لهم ذلك بعد أن بقي في الحكم خمسة وأربعين يوماً، ورشح للخلافة اثنان من أبناء عبدالمؤمن هما يوسف وعمر، فآثر عمر أخاه على نفسه وبايعه، فبايع الناس.




@Ahmedyassin90

يوسف بن عبدالمؤمن بن علي

أبـو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن بن علي، أمه وأم أخيه أبي حفص امرأة حرة اسمها «زينـب» كما يقول المراكشـي، لم ينل من الموحدين ما ناله الخليفـة أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن من السلطان والملك وكان حكمه اثنتين وعشرين سنة.

عزم على دخول الأندلس لمزيد من الفتح فابتدأ بمرسية وبلنسية التي كان يحكمها في ذلـك الوقت محمد بـن سعد المعروف بابن مرديتش، وكان ابـن سعد قد جلب الكثير من النصـارى وأقطعهم ما كان يقطعه المسلمين مـن الأرض والمال بعد أن رأى عزوف الكثير منهم عنه لشقِّه عصا الطاعة، فقتل شر قتلة، فكانت الدائرة على محمد بن سعد.

ودخـل الموحدون مرسية ثم سار الجيش إلى أشبيلية ومنها إلى مدينة يقال لها «وبذه» راغباً الاحتكاك مع الخصم القشتالي في الشمال فلم يمكنه ذلك، وهادن «الأدفنتش» كما تسميـه المصادر العربية مدة سبع سنوات، وعـاد إلى مراكش وقد انتصر على محمد بن سعد بينما عجز عن مقارعة القشتاليين.

بعـد اثنتـي عشـرة سنة عبر البحـر إلى الأندلـس قاصـداً مقاتلـة القشتاليين فنزل بإشبيليـة، ثـم سار وحاصر مدينة شنترين فلم تستسلم وهـمَّ بالرجوع، وتشاور في الأمر مع بعض جلسائه وفيهم المالقي، فأشاع الأمر لدى الجند دون اتخاذ الأمير قراراً نهائياً، فعاد بعضهم في جوف الليل، وبقي الأمير مع عدد قليل، فباغتهم جند القشتاليين، وطعنه أحدهـم طعنة مـات على أثرها بعد يومين، وساروا به إلى مراكش فأشاع عبدالرحمن بن عمـر بن عبدالمؤمن أنَّ الخليفة أبا يعقـوب يوسف بن عبدالمؤمن قد عهد إلى ابنه يعقوب بالأمر من بعده، وتمت البيعة بسلا دون تثبت من حقيقة الوصية لذا كان له منافسون من إخوته وأبناء عمومته.

والحقيقـة أن النتيجـة النهائيـة ألاَّ جديد في استرجـاع أرض مـن القشتاليين، وإنما مزيـداً من القتل، لنيـل مزيد من السلطة والنفوذ، وتولية الأبناء بغض النظر عن الشعار المرفوع.

يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن

تـولى الأمـر يعقوب بن يوسف بـن عبدالمؤمن ويكنى بأبي يوسف، وأمُّـهُ أم ولد رومية اسمهـا «ساحر»، وكان عمره وقت توليه اثنين وثلاثين عاماً، ومدة حكمه ست عشرة سنة وثمانية أشهر.

استطاع الإمساك بزمام الأمور من خلال إغداق الأموال على منافسيه من إخوته وبني عمومته فمنحهم الإقطاعات الواسعة، وكان من فضائله بناء مدينة الرباط التي سبق أن اختطها والده من قبله وأتم بناء سورها، وبنى فيها مسجداً مازالت منارته العظيمة رمزاً من رموز هذه المدينة الجميلة حتى وقتنا الحاضر، وها أنا أسطر على ترابها هذا الكتاب حرسها الله من كل مكروه.

يمكننا إيجاز المآسي التي واجهت الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن الذي تلقب بالمنصور بثلاث هي: ثورات أبناء ابن غانيه في الشرق المغربي، وقيام أخيه وعمه بمحاولة منازعتـه الحكم، وسقـوط شِلْبَ الأندلسية في يـد القشتاليين ومـن ساعدهم من الألمان والإنجليز.

بـدأ بثـورات أبناء ابـن غانيه فكانت الدائـرة على الموحدين، ثم عـاود الكرة بنفسه بسحقهـم وإنهاء أمرهم ثم عـاد إلى الرباط، وبعد نزوله من دابتـه استقبله أخوه وعمه أحسـن استقبـال ظانين أنه لم يبلغه مـا يبثونه من أقاويـل تقلل من شأنـه، فأمر بإلقاء القبض عليهمـا وتقييدهما ثم دفع بهما إلى مراكش وأمـر بقتلهما، فهابه جميع أقربائه الذيـن كانوا متهاونيين بأمره محتقرين له، لأشياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك، كمـا يقـول صاحب كتاب المعجب، ويبدو أن الأمر واضح بما يعنيه صاحب المعجب لكنه لم يصـرح خشية علـى نفسه لأنه معاصر لتلك الحقبة، وجليس لأبـي زكريا يحى بن يوسف بن عبدالمؤمن أحد إخوة يعقوب المنصور، ويؤكد ذلك قوله: وأظهر بعد ذلك أي بعد مقتل أخيه وعمه، زهداً، وتقشفاً، وخشونة ملبس ومأكل، وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه.

وأما الأندلس فقد عبر إليها، بعد أن جَيَّشَ لها الجيوش، وأعد العدة عازماً استرداد شِلْبْ وما سُلِبَ من حصون، فسار بجيشه وحاصر شِلْبْ وحصون أخرى لكنه عاد بعد ثلاثة وأربعين يوماً إلى قرطبة دون تحقيق نصر يذكر، ولذا فيمكن القول أنَّها حملة فاشلة.

وقد ذكر المراكشي شيئاً عن مآل الكتب في عصره فقال: «وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، وقال المراكشي: «لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء والمحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة: (الصحيحين، والترمذي، والموطَّأ، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبه، وسنن الدار قطني، وسنن البيهقي) في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة، فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة، فكان يجعل لمن حفظه الجُعل السَّنِيَّ من الكِسا والأموال، وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده، إلا أنهما لم يظهراه فأظهره يعقوب هذا، يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقى الحافظ أبابكر ابن الجد، أنه أخبرهم قال: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي: يا أبابكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا، فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر، ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه، أو السيف! فظهر في

أيـام يعقـوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجده، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافـة الموحديـن يسمعهم – وقد بلغه حسدهم للطلبة علـى موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم –: يامعشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء – يعني الطلبه – لا قبيل لهم إلا أنا، فمهما نابهم أمر فأنا ملجأهم وإليَّ فزعهم وإلي ينتسبون ! فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم، وبالغ الموحدون في برهم وإكرامهم».

وحـاول يعقوب المنصـور استعادة شِلْبْ، فسـار إليها وحاصرهـا، وضربها بالمنجنيق فاستسلمت، وعادت إلى المسلمين بعد أن بقيت في أيدي أعدائهم نحو عامين.

ومرض يعقـوب المنصور مرضاً شديـداً فنصحه الأطباء بالذهـاب إلى فاس ففعل، وتنقـل لنـا بعض الروايات أنَّ أخاه أبا يحيـى والي الأندلس من قبله تمنع في الذهاب إلى أخيـه يعقـوب المنصور لمقابلتـه، فاستحثه في المجـيء، فتباطأ ظناً منـه أنَّ أخاه سيموت بمرضه الـذي أصابه، وبعد شفائه سار أبو يحيى إلى يعقوب المنصور، فعندما دخل عليه قيده ثم قتله، وجمع القرابة وأخذ مالهم وأخرجهم في أسوء حال، حفاة عراة الرؤوس.

وبعد فترة عبر يعقوب المنصور البحر إلى الأندلس في جيش كبير، وبعد أن علم بذلك أدفينتش جمع جيشاً ضخماً، وتراءى الجمعـان، فقامت حرب كبيرة جداً سماها العرب وقعة الأرك، انتصر فيها المسلمون نصرا مؤزراً يساوي في قيمته المعنوية معركة الزلاقة.

هـذه الأحداث جُلَّهـا لا يمكن وصفها بالمآسـي، ويقال أنه وقع في يـد يعقوب المنصور نحو أربعة وعشرين ألف أسير من أعدائه، منَّ عليهم وفك أسرهم، فرأى جنوده أنَّ هذه الفعلة سقطة من سقطات الملوك.

مأسـاة المسلمين مـع يعقوب المنصور كانت مـن الناحية الفكريـة بإدخال فكر جديد كانـت له تبعاته الثقافية إلى جانب استغلاله استغلالا سياسيا، فقد كوَّن يعقوب المنصور حولـه جمعا من التلاميذ سموا الطُلْبَه، وكان يرجع إليهم فيما يخص الأمور الدينية التي أسسهـا ابن تومرت، فأحرقت كتب الفلاسفة مثل ابن رشد والذهبي والمسهري وغيرهم. ونفـوا من قرطبة إلى مـدن أخرى، ويبدو أنَّ الأمر يتعدى الفكـر إلى السياسة والمماحكة والصراع الخفي بين العلماء.

قال ابن رشد في أحد كتبه وهو يتحدث عن الزرافة: «وقد رأيتها عند ملك البربر»، فاستغل حسَّاده كلمة البربر، واتهموه بأنه يسمي الخليفة ملك البربر، أما محبوه فذكروا للخليفة أنها تصحيف لكلمة «برين» وأنه لم يقصد الخليفة، واستدعاه الخليفة إلى مراكش وأكرمه.

ومع أنه كان شديد الحذر من انتشار الأفكار المنافية للعقيدة إلا أنه كان سمحاً في معالجة أربابها، ومن رسائله إلى ولاته: «فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان، حذركم من السموم السارية في الأبدان، ومن عثر له على كتاب من كتبهم، فجزاؤه النار التي يعذب بها أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه، ومتى عثر منهم على مجر في غلواته، عمَّ عن سبيل الله استقامته واهتداؤه، فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف، ولا تركنوا للذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون. أولا يرد الذين حبطت أعمالهم، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ماصنعوا فيها، وباطل ماكانوا يعملون. والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصفاءَكم، ويكتب في صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم إنه منعم كريم».

والحقيقة أنه كان متسامحاً مع الفلاسفة إلا أنه لم يتسامح مع كتبهم ونهجهم.

وقيل أنه قال قبل أن يموت: «ما ندمت في حياتي إلا على ثلاث هي: إدخال العرب من أفريقية إلى المغرب لأني أعلم أنهم أهل فساد، والثانية: بناء رباط الفتح أنفقت فيه من بيت المال وهو بعد لا يعمر، والثالثة: إطلاق أسارى الأرك ولابد لهم أن يطلبوا بثأرهم».

وما أظنه إلا مخطئاً، أما العرب فكانوا له ناصرين، وأما الرباط فهي عامرة حتى الآن، وأما أسارى الأرك حتى لو قتلهم جميعاً فإن إخوانهم القشتاليين سيأخذون بالثأر.

وقد ألم به المرض ومات رحمه الله، وكتمت وفاته، ونقل رفاته إلى بلده.



محمد النـــاصر

ثم بويع ابنه محمد الناصر، وكان عمره سبع عشرة سنة، وقد اشتغل بحروب كثيرة في أفريقية، في حين بقيت الأندلس خالية من الحوادث المثيرة بعد معركة الأرك الشهيرة، وكان يحيط بمسلمي إسبانيا أربعة ممالك إسبانية هي أرجون، وقشتال، ليون، والبرتغال.

بعـد متابعة دقيقة للمتغيرات التي حدثت بالمغـرب وانشغال الموحدين بأفريقية، رأى القشتاليون أنَّ الوقت أصبح مناسباً لغنم ما يمكن غنمه من البلاد الإسلامية في الأندلس، وبـدأوا بمضايقـة بعض الحصون الإسلاميـة التي ليس لديها غير عـدد قليل من الجند المكلفـين بحمايتها، واستغـاث أهل الأندلس بمحمـد الناصر، فقـرر الاستجابة لندائهم وســار بجنده وعبر البحر ووصل إلى إشبيلية، بينما قام ملك قشتاله بجمع عدد كبير من الجند بمساعدة من البابا، وعدد من المتطوعين والجنود من فرنسا وألمانيا، واجتمعت في طليطلـة، وتراءى الجيشان في معركة كبيرة هزم فيها الموحدون هزيمة نكراء وقتل منهم ما لم تشهده معركة سابقة في التاريخ الأندلسي وتسمى بموقعة «العقاب».

يعـود ذلك إلى اهتـزاز الجيش الموحدي لاختلاف قلوب الموحديـن، وذلك أنَّهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب المنصور يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر، لا يحل ذلك من أمرهم، فأبطأ من مدة أبي عبدالله هذا عنهم العطاء وخصوصاً في هذه السفرة، فنسبوا ذلـك إلى الـوزراء وخرجوا وهم كارهون كما يقول المراكشي الـذي أردف قائلاً: «فبلغني عـن جماعة منهـم أنهم لم يسلَّوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخـذوا شيئاً في أهبة القتال، بـل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصديـن ذلك»،كما أنَّ الخليفة محمد الناصر قد قتل أحد قادة الأندلس البارزين وهو ابن قاديس قائد قلعة رباح وصهره، إلى جانب ذلك التعامـل غير المثالي من قبل الوزير بن جامع مع قـادة الجيش، كما أنه لم يصغ لنصائح قادة الأندلس الذين هم أكثر دراية بخطط القشتاليين ونقاط قوتهم وضعفهم، وقد بالغت الروايات العربية في عدد قتلى المسلمين فذكروا أنهم بلغوا خمس مئة ألف ومنهم من ذكر أنهم نحو مئة ألف، بينما المصادر الغربية تذكر مراوحتها من ثمانين ألفاً إلى مئة ألف.

كانت هذه المعركة أكبر مأساة حلت بالموحدين والمسلمين في الأندلس، فقد كان الموحدون السند الذي يلجأ إليه الأندلسيون عندما تضيق بهم الأحوال، والملجأ الذي يلجأون إليه بعد الله عندما تنزل بهم النوازل، وإذا بهذا الصرح ينكسر كسراً لا جبر بعده. قال إبراهيم الدباغ الإشبيلي:

وقائلة: أراك تطيل فكراً ... كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها: أفكر في عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب

فما في أرض أندلس مقاماً ... وقد دخل البلا من كل باب

وقال المقري في نفح الطيب: «فإنه جمع جموعاً اشتملت على ستمئة ألف مقاتل، ودخله الإعجاب بكثرة ما معه من الجيوش، فصاف الإفرنج، وكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التي جلى بسببها أكثر العرب، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها، ولم ينج من الستمئة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف فيما قيل، وهذه الواقعة هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعاً، وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره فشقَّ بعضهم، ففسدت النيات، فكان ذلك من بخت الإفرنج، والله غالب على أمره، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤومة سنة ٦٠٩ هـ، ولم تعد بعدها للمسلمين قائمة تحمد».

مأساة حقيقية عظيمة مادياً ومعنوياً اسمها موقعة العقاب، فكانت عقابا في عهد الموحدين لكل ما فعله الأندلسيون والمرابطون والموحدون، في عصر محمد الناصر الذي ليس له من لقبه نصيب، فحلَّ به العقاب في معركة العقاب وجرَّ على المسلمين بسوء تدبيره كارثة كبيرة تعتبر أكبر الكوارث في الأندلس على الإطلاق، فسوء التدبير، وغياب الحكمة رغم وجود العدد والعدة، أساس البلاء، ومصدر الهوان، وخسارة الأنفس والعمران.

فرَّ محمد الناصر من المعركة، ولجأ إلى إشبيلية ومنها إلى المغرب، وولى ابنه يوسف ولاية العهد رغم أنه كان منصرفاً عنه في بداية حياته، ثم احتجب عن الناس وانغمس في لذاته، فأقام فيه مصبحاً مغتبقاً، ويبدو أنه أصيب بصدمة نفسية جعلته يهرب من الواقع، وهذا ليس طريق المؤمنين الشجعان.

يوسف المستنصر

مات محمد الناصر من عضة كلب، أو مسموماً، أو حتف أنفه حيث اختلف في ذلك الرواة، وتولى ابنه الشاب يوسف المستنصر البالغ من العمر ست عشرة سنة الأمر بعده، وكانت أمه رومية اسمها «قمر» وتلقب «حكيمه»، قال عنه ابن خلكان: «إنه وسيم، حسن القد، جميل المحيا، صافي السمرة، شديد الكحل، ولم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجهاً منه».

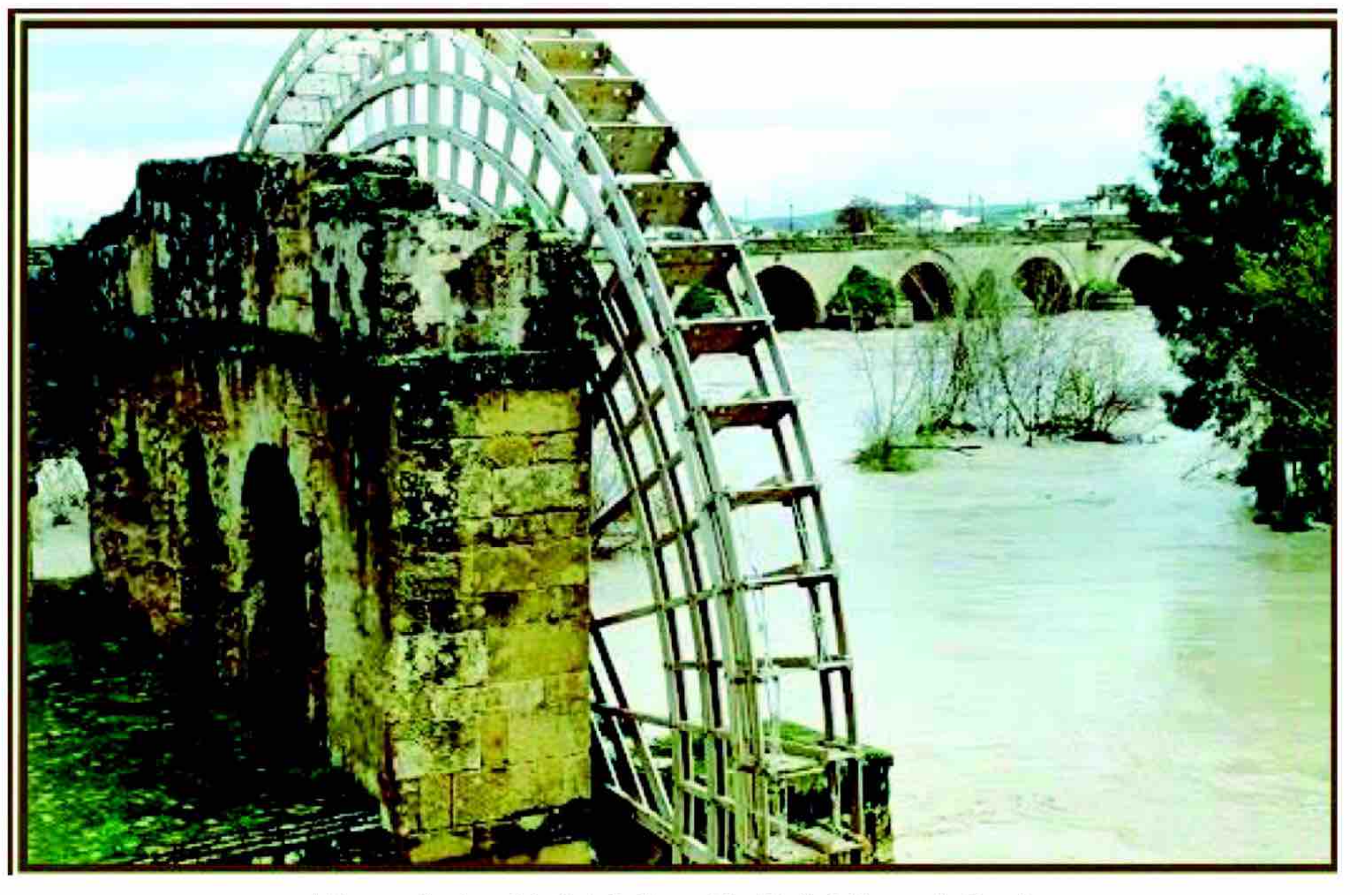
وهل الأمة الإسلامية في المغرب والأندلس، وبعد هزيمة ساحقة تبحث عن قائد ليس له من الصفات إلا الوسامة ؟

إنها مأساة الأندلس والأندلسيين التي حلَّت بهم على يد الموحدين.

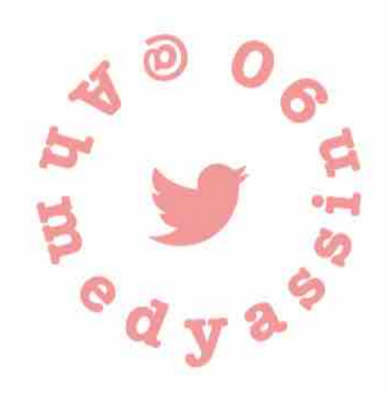
كان يوسف المستنصر مولعاً بالراحة، فكانت زمام الأمور بيد وزير أبيه والأشياخ الأوصياء، وظل حكمه عشر سنوات لكن معظمها دعة وهدوء.

قال عنه ابن خلدون: «فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم، وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك، فأضاع الحزم وأغفل الأمور، وتواكل الموحدون بما أرضى لهم من طيل الدالة عليه».

وقال مؤلف روض القرطاس: «وكانت أوامره لا تتمثل أكثرها لضعفه وليانه، وإدمانه على الخلاعة، وركونه على الملذات، وتفويضه أمور مملكته ومهمات أموره إلى السفلة». قال أيضاً: «أنه كان شاباً كثير اللهو، وكان من هواه أن يرعى الأبقار ويحاول ترويضها، فبينما هو ذات يوم يحاول أن يروض بعض أبقاره هجمت عليه بقرة شموس وضربته بقرانها، فأصابت قلبه وكذلك كانت منيته».



طاحونة ماء بمدينة غرناطة استخدمت لامتداد السكان بحاجياتهم من المياه

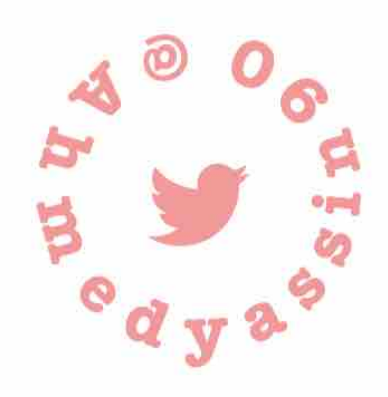

@Ahmedyassin90

الفصل الثامن

الدويلات والسقوط

- إرهاصات السقوط.
- سقوط قرطبة.
- سقوط إشبيلية.




@Ahmedyassin90

إرهاصات السقوط

بعد أن قتلت البقرة الخليفة يوسف المستنصر الذي لم يورث ولداً، أجمع المشايخ على تولية عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان في الستين من عمره، ويسميه المراكشي أبا محمد عبد العزيز، وأمه حرة اسمها «مريم»، قال عنه صاحب المعجب وقد عرفه: «صوام قوام، مجتهد في دينه، شديد البصيرة في أمره، قوي العزيمة، شديد الشكيمة، لا تأخذه في الحق لومة لائم، أرطب الناس لساناً بذكر الله، وأتلاهم لكتاب الله» ما أن مرَّ شهران على ولايته حتى قام عليه في شرق الأندلس ابن أخيه عبد الله بن يعقوب المنصور.

ويقال: أنَّ ابن يوجان، وكان وزيراً يتصف بالمكر والدهاء، قد حذر عبد الله بن يعقوب المنصور من المبايعة حتى لا تخرج من عقب المنصور إلى غيره، واختلط الحابل بالنابل، وأضحى كل واحد من الموحدين يدعي أنَّه الأحق بالأمر، ودخل معهم غيرهم لتكون مأساة جديدة تضاف إلى مآسي الأندلس، وتفرقت الأندلس دويلات لكل دولة زعيم مثل البياسي، والعادل، والمأمون، وكل منهم يلجأ إلى القشتاليين للمساعدة.

وكان ملك قشتالة فرناندو الثالث الذي يستعينون به هو الذي تمت على يده نهاية الوجود الإسلامي في معظم مناطق الأندلس فيما بعد.

خرج فرناندو الثالث في عام ٦٢٣ هـ بجيشه الضخم متوجهاً إلى ما تحت يد البياسي من حصون، فهب البياسي خاضعاً متذللاً لفرناندو الثالث، ومعلناً طاعته الكاملة فاشترط عليه فرناندوالثالث تسليم الحصون ومساعدته بالمؤن ووضع ابنه رهينة عنده على أن يساعده في حروبه ضد منافسيه، وأحس البياسي بقوته من خلال دعم القشتاليين له فسار صوب إشبيلية بمساعدة القشتاليين وخرج إليهم الموحدون بقيادة واليها أبو العلى الملقب بالمأمون، فكانت معركة انهزم فيها الموحدون وفقدوا بعضاً من حصونهم، وأعاد المحاولة متجهاً إلى إشبيلية لانتزاعها من الموحدين لكنه مني بهزيمة ساحقة استرجع على أثرها الموحدون عدداً من الحصون، وهرب البياسي إلى قرطبة فلم يأمن أهل قرطبة غائلته وخشوا أن يسلم قرطبة للقشتاليين فثاروا عليه وقتلوه وهو

في الستين من عمره، بعد أن مهد لمأساة الأندلس وخروج المسلمين منها، فكان رمزاً من رموز الخيانة التي جرت على المسلمين الدمار والهلاك في تلك الحقبة وما بعدها.

وتركت مناطق الأندلس الأخرى لمستقبلها وبقيت حاميات صغيرة حول بعض المدن، وكان هناك رجل من أرومة ملكية هو محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وكان جندياً من متوسطي الجند تعاون مع شخص اسمه الغشتي كان من الذين يقومون بهجمات مباغتة على النصارى، كما أنه أحياناً يقوم بأخذ ما أمكن أخذه من أغنام أو مؤن المسلمين. قال ابن عذارى: «وتحت يده جماعة كبيرة من أراذل الناس السفلة الخساس، وصاروا له أعواناً وجساساً» وأورد بعض الخرافات التي ربطها بالمنجمين وتوقعاتهم وهو هراء رسخ في عقول بعض العامة والخاصة فالغيب عند الله وحده.

واجتمع الإثنان واتفقا على التعاون وتمت المناداة لابن هود ورفع الراية العباسية وتوشح بالسواد ليضع له صفة شرعية، وانضم إليه عدد كثير فدخل مرسية بعد أن تفاهم مع قاضيها علي بن محمد القسطل، وكان شعاره الخلاص من الموحدين وردع النصارى وإحياء الشريعة، وعندما علم المأمون الموحدي بالأمر وهو في إشبيلية سار بعساكره لمحاربة ابن هود فانتصر المأمون الموحدي انتصاراً ساحقاً، لكنه لم يستطع الإمساك بابن هود أو إزاحته عن حكمه بلنسية، فتهافت الشعراء إليه مادحين، فقال ابن عائشة:

فؤادي بأمداح الخليفة هيمان	**ففيه اعتزاز والتغزل إذعان**
قصدت أمير المؤمنين بمدحه	**فأمداحه للمرء يمن وإيمان**
فطاعته فرض على الناس كلهم	**وعصيانه لا شك لله عصيان**

والبيت الأخير فيه من التزلف والملق، ما لا يقبله فتى ذوقا أو خلقا أو دينا.

وفي بلنسية قام أبوزيد البياسي حاكمها بمحاربة ابن هود الذي وضع يده على مرسية لكنه انهزم شر هزيمة فاجتمع أهل بلنسية على أحد زعمائهم السابقين وهو زيان بن مردنيش، فهرب أبوزيد البياسي إلى أحد الحصون ومنها هرب والتحق بالبرتغاليين، وأبو زيد البياسي هذا هو أخ السيء الذكر عبدالله البياسي.

قال صاحب كتاب «البيان المُغرب»: «ومن الاتفاق الغريب أنَّ نصرانيين وصلا قبل ذلك بأمد قريب -أعني السيد أبي زيد- فقالا له: تراك تصل إليها وتدخل في ديننا فكره ما قالاه، وقتلهما صبراً فلم يكن بعد ذلك إلا قليلاً ولحق بالنصارى مرتداً وفارق أهله وولده، واستوطن بينهم من سقط من أعينهم فرفضوه واطرحوه ولم يعش بعد ذلك إلا يسيراً ومات».

ويقال: إنَّ ابن الأبار قد صاحبه إلى هناك، وعندما وجد أنَّ أبا زيد مستسلماً للبرتغاليين وأنَّه يعزم على اعتناق دينهم عاد إلى بلنسية وارتبط بالحاكم الجديد.

وهكذا اعتنق أبوزيد النصرانية وهو سليل عبد المؤمن الذي قام بحركته الدينية المبنية أساساً على تثبيت العقيدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان دافعه السلطة ولا شيء سواها.

خشي الموحدون بقيادة أبي العلي والي إشبيلية نهاية وجودهم في الأندلس، حيث لم يبق سوى إشبيلية وقرطبة وبعض المدن الصغيرة والحصون القليلة، فوافقوا على صلح يتم بموجبه دفع الموحدين للقشتاليين مبلغاً ضخماً من المال.

ومع أنَّ أبا العلي والي إشبيلية وقرطبة يترقب سطوة فرناندو الثالث عليه، فقد أقدم على أمر بغيض وهو الدعوة لنفسه بالخلافة وتلقب بالمأمون ونقض بيعته لأخيه العادل، وهذا ما لا يقبله عقل ولا دين، وأرسل أعوانه إلى مراكش لخلع أخيه فتم له ما أراد فدخلوا على أخيه وقتلوه، ونادوا بأبي العلي المأمون خليفة، ثم نقضوا الأمر وعينوا يحي ابن محمد الناصر وتلقب بالمعتصم، فأصبحت القيادة ألعوبة بيد رجال القصر بتحريض من الموحدين أنفسهم.

غضب أبو العلي المأمون مما فعله المراكشيون فأسَّر في نفسه الانتقام، فاتصل بفرناندو الثالث وطلب منه العون على مركز الخلافة (مراكش)، فاشترط فرناندو الثالث شروطاً منها: أن يسلمهم عَشَرَ حصون حدودية، وأن يبني في مراكش كنيسة للنصارى، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه، وأنَّ من تنصَّر من المسلمين يقبل تنصره، فوافق المأمون على الشروط.

سـار المأمون بجيشـه إلى مراكش مع خمسمائة فارس قدمهـا فرناندو نظير شروطه المهينـة، ومنـذ اللقاء الأول فرَّ العادل من مراكش، وقدم المشايخ الولاء للوافد الجديد مع القشتاليـين، وأعلن العفو حتى إذا اجتمع كبار الذين بايعوا لأخيه العادل أحضر القاضي فقـال: «مـا تقول يافقيه في قوم بايعوا شخصاً ثم نكثـوا عليه وخلعوه، ثم قتلوه، ثم بايعوا شخصـاً آخـر فنكثوا عليـه وقتلوه، ثم بعثوا ببيعتهـم هذه إلي ثم نكثـوا أيضاً علي» فقال القاضـي: «وجب عليهم القتل» وتلا الآية «ومن نكث فإنما ينكث على نفسه»، فأمر بقتلهم جميعـاً وهم نحو مائة مـن خيار الناس ودفنوا في حفرة، أما بقيـة من قتل وعددهم يبلغ نحو أربعة آلاف فقد علقت رؤوسهم على سور مراكش، وكان القيظ فشكا الناس روائحها للمأمـون فقـال: إنَّ هامات المحاربين هي إحراز لهـم وروائحها عطرة عند المحبين منتنة عند المبغضين».

إنـه يعيش في قصره وروائح العطور من حوله، أمَّا روائـح الرؤوس المنتنة فعلى سكان مراكش المجاورين لتلك الرؤوس تحملها!!!

مجموعـة من المآسي يتربع على عرشهـا المأمون الموحدي لم يسبقه إليها غيره، قيامه على أخيه، وتسليمه الحصون، والموافقة على الشروط، وقتله الناس، والمسير بالقشتاليين إلى مراكش لأول مرة، فبزَّ من سبقه في الخيانة واللؤم وسوء السريرة وقلة الإيمان.

لكـن عصـره لم يخل من المحاسن مثـل تغيير الفكر الموحدي من خـلال منع الدعاء بفكـرة المهـدي، ويقال: إنه صعد المنـبر فلعن المهدي وقال: «لا تدعـوه بالمعصوم، وادعوه بالغـوي المذمـوم، إنه لا مهدي إلا عيسـى». كما أنه حث على الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونبذ البدع.

وسار المأمون إلى سبتة فانتهز أخوه يحيى «العادل» الفرصة وباغت مراكش، فلم يجد مقاومة تذكر، فدخل القصر، وحاز الأموال، وهدم الكنيسة التي بناها المأمون وفاءً بشرط فرنانـدو الثالث، وقتل من وجد من النصارى، وعندما علم المأمون الموحدي بالأمر، هرع مسرعاً تاركاً حصار سبتة، وحلف أن يستبيح مراكش للقشتاليين، فمات في الطريق فجأة بعـد أن أسـاء ولم يحسن، وهدم ولم يبن، وأفسد ولم يصلح، نستثني من ذلك وقفة للقول بعصمة المهدي ابن تومرت.

كتمت زوجته الرومية وفاته حتى تمت البيعة لابنها الرشيد، وكان في الرابعة عشرة من عمره، وواصل الجيش مسيره إلى مراكش وحاصرها ففتحت على يد جنده دون قتال.

وبعد دخول الرشيد مراكش اشترط بعض قادة الموحدين أن يعاد ذكر اسم الإمام المهدي في الخطبة، وإعادة الدعاء له بعد الصلاة، والنداء على الصلاة كما كان ينادى عليها منذ عهد تومرت وعبدالمؤمن مؤسس العقيدة الموحدية، ومن دعواتهم للصلاة والنداء عليها بشيء يسمونه تصاليت الإسلام وهي إقامة الصلوات مثل «سودوت ونادري وأصبح ولله الحمد».

عاش الموحدون نحو عشر سنوات في ظل حكم الخليفة الرشيد، تخللتها الكثير من الحوادث، وقبل وفاته بأشهر قتل أشهر وزرائه وهو الموناني، كما قتل أبو حفص أحد قادته بسبب كتاب (خطاب) فيه شيء من الأماني وربما الدعابة.

فقد ولىَّ الخليفة الرشيد أبا حفص ولاية عظيمة، وأرسله مع كثير من الجند إلى هسكورة، وعندما كان يجهز نفسه للرحيل كتب الوزير الموناني كتاباً إلى أبي حفص يهنئه على هذه الثقة، وقال في خطابه – ولعله مداعباً –: «وإنها – إن شاء الله – ابتداءً لخلافة» فأخطأ المرسول، ودفعها إلى القائد أبي المسك قائد الرشيد، فسار أبو المسك بدفعها للخليفة الرشيد، غير أن الرشيد لم ينظر إليها وتركها جانباً ظناً منه أنه في أمر خاص لأبي المسك الذي كثيراً ما يشغله بطلباته، وفي هذ الأثناء، سأل الموناني مرسوله إذا ما دفع بالتهنئة على خادم أبي حفص، فقال بل أعطيتها لأبي المسك، فارتجف وخشي العاقبة، فأرسل خطاباً مستعجلاً للخليفة يعتذر عما بدر منه، وعندما قرأ الخليفة خطاب الاعتذار طلب الخطاب الأصلي، وعندما قرأه أمر بقتل الموناني وأبي حفص في الحال، فتم ذلك، وبعد هذه الحادثة بشهور توفي الخليفة الرشيد.

وقد ذكر ابن عذارى في كتابه «البيان المُغرب» فقال:

«وذلك أنه لما استقامت الأحوال للرشيد بعد ما جدد دولة الموحدين، ووصله منهم القريب والبعيد، وأجلى جميع الخلط إلى السوس، وتهدنت النفوس، وتمهدت البلاد، واشتغل الناس بمراكش في الرياضات بالنزاهات، استعمل الرشيد سكناه برياض تدفق،

وبنى حوله سقائف للموحدين والمشتغلين والوقافين والرقاب والحجاب، وأمر ببناء الديار هنالك للمقربين من خدمته وأرباب دولته، فلما قدر الله بحين وفاته وانقضاء مدة حياته، دخل في زورق في الصهريج في الرياض الكبير المذكور مع بعض جواريه برسم التنزه، فانقلب بهم الزورق، فقيل: أنه مات من حينه، وقيل: إنه طلع منه محموماً فنقل إلى قصره، وذلك في يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة المؤرخة، وبعد ثلاثة أيام توفي، وأخبرني أيضاً بوفاته أبو عمران ابن تيجا، قال: أخبرني أبو وكيل ميمون أنه خرج برسم التفريج في ليلة باردة، فأصابته فيها نزلة عظيمة، وكان على راحة معتماً بعمامته، فلما أزالها حم من حينه، فأخرج من الزورق، ورفع إلى قصره، فانقضى أمده في يوم الجمعة العشر من جمادى الأولى من سنة أربعين المذكورة».

بعد وفاة الخليفة الرشيد عزم بعض رجال الدولة تولية ابنه الصغير، فكثر الحديث في ذلك فقال أحدهم: قد أعيينا من تقديم الصبيان علينا، يعنون يوسف المستنصر ويحيى أخاه والرشيد، وكان علي بن إدريس بن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن أخ الرشيد حاضراً ويرى أنه الأحق بها فقال: لئن لم يبرموا هذا الأمر وإلا أبرموه بغير اختيارهم، فأقعدوه على كرسي الحكم فتم له ما أراد، وتسمى بالسعيد.

وبعد توليه واستتباب الأمر له، أمر ببعض الموحدين الكارهين لتوليه الحكم فقتلهم، وحبس أمَّ الرشيد وأغرمها مالاً، وضرب شيخ العبيد في أيام الرشيد نحو ألف سوط.

وقد كان شديداً مهاباً، قوي الشكيمة، حاول إعادة الدولة الموحدية إلى سالف مجدها، فحارب بني مرين ألَّد أعدائه الذين سبق لهم السيطرة على معظم البلاد، فانسحبوا عندما قدم لمحاربتهم، كما عزم على استرداد ما ضاع لهم من سلطان أفريقية، وهو في الطريق إلى ذلك طلب من يضمر بن زيان والي تلمسان القدوم إليه وتقديم الطاعة، فقبل الطاعة واعتذر عن القدوم، وأرسل وزيره ابن عبدون فأبى وأصر على قدوم يضمر، فأبى يضمر النزول والتجأ إلى قلعة حصينة تتخللها بعض الشعاب، فسار الخليفة السعيد قاصداً القلعة فخرج عليه كمين من بني عبدالواد، فقتل وزيره ثم قتل الخليفة السعيد، واسم قاتله يوسف بن عبد المؤمن الشيطان، وهكذا توفي الخليفة السعيد بعد خمس سنوات من الحكم على يد الشيطان.

فكانت مأساة بعد أمل، سببها سوء التقدير، ولا راد لأمر الله.

أما في الأندلس فقد استطاع ابن هود إخضاع بعض الحصون، لكن ما لبث أن خرج ملك ليون عازماً غزو بلاد الإسلام الأندلسية مبتدئا بماردة، وعندما علم ابن هود بذلك جمع ما يستطيعه من رجال وعتاد، فتقابل الجيشان فكانت الهزيمة على ابن هود فاحتل ملك ليون ماردة وبعد ذلك بقليل احتلوا مدينة بطليموس.

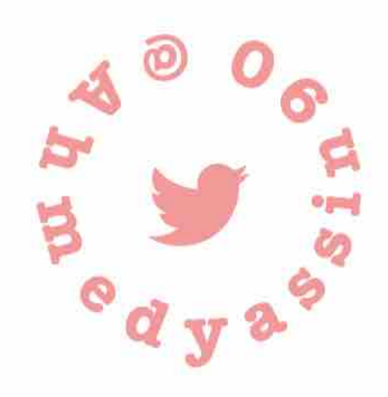
أما ملك قشتالة فقد جمع جموعه وأقبل لقتال ابن هود، وحاصر مدينة «أبدة» ثم دخلها بعد حصار طويل، وعقد ابن هود مضطراً هدنة مع ملك قشتالة نظير ثلاثمائة وستين ألف دينار.

وأحاطت بابن هود التحديات من كل جانب، فقد قام عليه محمد بن يوسف من نسل سعد بن عبادة الصحابي الجليل، وكان يلقب بابن الأحمر، وتمكن من الاستيلاء على جيان ومنها انطلق للاستيلاء على بعض الحصون والقلاع، فخاف ابن هود على مركزه، وانفراط عقد مملكته التي بدأ في بنائها من شتات دولة الموحدين فهب لقتال ابن الأحمر، وحشد كل منهما ما استطاع من قوة، وتفاهم ابن الأحمر مع الباجي والي قرطبة وزَوَّجَه ابنته، ونشبت الحرب فانهزم ابن هود وعاد أدراجه، أما ابن الأحمر فقد سار مع حليفه والي إشبيلية وكان ينوي الغدر بحليفه، فأرسل إليه من قتله واستولى على إشبيلية إلا أنَّ بقاءه فيها لم يدم سوى شهر واحد حيث مال عليه قاطنوها، فأخرجوه منها عنوة ثم عادوا ودانو بالولاء لابن هود، وبدا لابن هود وابن الأحمر الصلح والتحالف، فتم ذلك.

خرج ملك قشتالة مرة أخرى، وهدم، وخَرَّب، وأحرق، حتى وصل جيان، وتفاوض مع ابن هود، فوافق ابن هود على التنازل عن بعض الحصون ودفع مبالغ طائلة من المال.

وعلينا أن نتذكر أنَّ الأندلس الإسلامية في تلك الفترة كان يحيط بها ثلاث ممالك نصرانية، أراجون من الشرق، وقشتالة من الوسط، وليون من الغرب، وكانت هذه الممالك النصرانية تهاجم دويلات الأندلس الإسلامية التي لا تفتأ تتحارب فيما بينها، ويستنجد بعضها بإحدى تلك الممالك النصرانية المجاورة للذود عنها من دويلة إسلامية أخرى، أو يتم عقد هدنة مقابل مبلغ كبير من المال يتم جمعه من حُرِّ مال الناس، ليتم دفعه لعدوهم نظير بقاء زعيم هذه الدويلة أو تلك على كرسي الحكم.

إنَّها مأساة الأندلس الحقيقية.


@Ahmedyassin90

سقوط قرطبة

سقطت بأيسر السبل عاصمة المسلمين في الأندلس، وانهارت دون أن يدافع عنها أحد، ولم يسمع نداءها مجيب، قال ابن عذارى: «وفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة كان دخول النصارى مدينة قرطبة، ونزل أذفونش أخزاه الله بعساكره الذميمة على مدينة قرطبة فحاصرها، وضيق عليها، وأقبلت نحوه الحشود من البلاد القاصية والدانية إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها، وهذا من أجَلِّ مصاب وأعظمه، ولكن الرضى بما قدره الله وأحكم، إذ هي أم المدائن، وقرة عين الوارد والقاطن، فلقد حلَّ بالأندلس من الروم ما يلين له القاسي، وتتهد له الجبال الرواسي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان أول ما أخذ العدو قصمه الله شرقيها، ثم لازمها حتى استولى عليها في الثالث والعشرين لشوال من السنة، فكان بين الحادث في طليطلة والحادث في قرطبة مائة وخمسون سنة».

علينا أن نتذكر أنَّ ابن هود كان في مرسية ولديه جيش كبير هرع به لنجدة المدينة، وعندما وصل قريباً منها بقي دون أن يلتحم مع الجيش القشتالي وعاد أدراجه لسبب خفي لا أحد يعلمه.

وبعد سقوط قرطبة مات ابن هود على يد عامله ابن الرميمي الوالي من قبله على مدينة ألمرية، فكانت مدة حكمه تسعة أعوام وثلاثة أشهر وينقل لنا ابن عذارى قصة مقتله فيقول: «إنه في ابتداء أمره عاهد زوجته ألا يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلما ملك البلاد الأندلسية وعظم فيها أمره، حصلت بيده رومية من بنات زعمائهم ومن أجمل نسائهم، وكان قد عاهد زوجته ألا يتزوج عليها ولا يسوق رومية إليها، فأودعها (أي الرومية) عند ابن الرميمي صاحب المرية، فكانت له في ذلك المنية، فاستحسن ابن الرميمي الرومية فمد يده إليها، وضبطها لنفسه، ودبر وجه الحيلة في الخلاص من ذلك برأسه.

ثم إنّ ابن هود سمع بخبر روميته، فاستعجل حركته إلى ألمرية على عادته لينظر منها في أمور القائم عليه بغرناطة وهو الأمير أبو عبدالله محمد بن يوسف بن نصر لأنه كان قد ملكها في هذه السنة.

ولما وصل ابن هود إلى المرية بمحلته نزل خارجها فدبر ابن الرميمي في أمره، وعمل على أن يحلف عليه ليدخل معه إلى داره ليقوم بحقه فيها خير قيام، وليخلو بروميته بعض أيام، فدخل ابن هود معه وعرَّفه أنَّ الرومية في الحمام، ولما جنَّ الظلام عليه أدخل أربعة من الرجال فأطبقوا عليه، وبقي أمره في تلك الليلة خفياً».

ترى، هل ضحى ابن هود بقرطبة وتراجع عن الدفاع عنها من أجل رومية، حيث قتل بمخدة خنق بها من قبل أربعة رجال من رجالات صديقه ابن الرميمي؟

خلا الجو لابن الأحمر الذي استولى على غرناطة، ثم سار إلى المرية فهُزم ابن الرميمي فحازها، لكنه كان يرتعش خوفاً من ملك قشتالة الذي يتوقع مهاجمته له في أي وقت وكان بينهما عهد، لكنه يخشى ألا يدوم، وجدد معاهدة السلم على أن يتنازل عن كثير من المدن والحصون.

وبهذا تهاوت الأندلس شيئاً فشيئاً ابتداءً من طليطلة ومروراً بقرطبة ثم ما تلاها من مدن أخرى في مدة لم تتجاوز ثلاثين عاماً، فأخذ الشعراء يتباكون والكتاب يذرفون الدموع، ومن تلك القصائد الرائعة قصيدة تلخص لنا مأساة الأندلس، وهي طويلة لكنها تستحق أن نوردها لما فيها من عبر لكل معتبر، قال الرندي:

لكل شيء إذا ما تمَّ نُقصان	**فلا يُغرَّ بطِيبِ العيش إنسان**
هي الأمور كما شاهدتها دُوَلٌ	**من سرَّه زمنٌ ساءته أزْمان**
وهذه الدار لا تُبقِي على أحد	**ولا يدوم على حالٍ لها شان**
يمزق الدَّهر حتماً كل سابغة	**إذا نَبَتْ مشرفياتٌ وخرصان**
وينتضي كل سيف للفناء ولو	**كان ابن ذي يَزَن والغِمد غمدان**
أين الملوك ذوُو التِّيجان من يَمَنٍ	**وأين منهم أكاليلٌ وتيجان**
وأين ما شاده شدَّاد في إرمٍ	**وأين ما ساسه في الفُرس ساسان**
وأين ما حازه قارون من ذهب	**وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحطان**
أتى على الكل أمر لا مردَّ له	**حتى قَضَوْا فكأنَّ القومَ ما كانوا**
وصار ما كان من مُلك ومن مَلك	**كما حكى عن خيال الطَّيف وَسْنَان**

دار الزمان على دَارًا وقاتِله ... وأمُّ كِسْرَى فما آواه إيوان

كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً ولا مَلَكَ الدنيا سليمان

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مَسَرَّات وأحزان

وللحوادث سُلوان يُسهِّلها ... وما لما حلَّ بالإسلام سُلْوَان

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أُحُدٌ وانهدَّ ثَهلان

أصابها العين في الإسلام فامتحنت ... حتى خَلَتْ منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطِبة أمْ أين جَيَان

وأين قرطبة دار العلوم، فكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نُزه ... ونهرها العذب فيَّاضٌ وملآن

قواعد كنَّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكي الحنِيفيَّة البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلْفِ هَيْمَان

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقْفَرَت ولها بالكُفر عُمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ... ما فيهنَّ إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر تَرثي وهيَ عيدان

يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سِنَةٍ فالدَّهرُ يقظان

وماشياً مرحاً يلهيه موطنه ... أبعد حمص تَغُرُّ المرءَ أوطان

تلك المصيبة أنست ما تَقَدَّمها ... وما لها مع طول الدَّهر نسيان

يا راكبِين عتاقَ الخيل ضامرةً ... كأنها في مجال السَّبقِ عُقبان

وحاملين سيوف الهِند مُرهفةَ ... كأنها في ظلام النَّقع نيران

وراتعين وراء البحر في دَعَةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهْتزُّ إنسان

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لها هممٌ ... أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزهم أحَالَ حالُهم كُفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكُفر عُبدان
فلو تراهم حَيَارَى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذلّ ألوان
ولو رأيت بُكاهُم عند بيعهم لَهَالَكَ الأمر واسْتَهْوَتْكَ أحزان
يا ربَّ أمٍّ وطفل حِيلَ بينَهما كما تُفرقَّ أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنمَّا هي ياقوت ومرجانة
يقودها العِلجُ للمكروه مُكرهَةً والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمان

وعندما رأى ملك أراجون أن ملك قشتالة قد استولى على قرطبة دون عوائق، قرر السير للاستيلاء على بلنسية، لأنها تقع ضمن الأراضي المستهدفة للاستيلاء والخاصة به طبقاً لاتفاق مسبق مع ملك قشتالة.

وحاصرها وهو يعلم أنَّ زيَّان واليها ليس لديه من العدد والعدة ما يؤهله للذود عنها وأرسل زيَّان رسله طالباً النجدة، ولكن ما عساه أن يجد، فالموحدون هدموا ما بناه أجدادهم من خلال تنافسهم المحموم على الحكم، فليس لديه ممن يمكن الاستناد إليه في النصرة سوى بني حفص في تونس، حيث أرسل ابن الأبار مرسولاً إلى هناك، فاستصرخ حاكمها أبا زكرياء الحفصي تاركا العنان لشعره يعبر عما في قلبه فقال:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إنَّ السبيل إلى منجاتها درسا
وهبْ لها منْ عزيزِ النَّصر ما الْتَمَسَت فلم يزل منك عزُّ النَّصر مُلتمسا
وحاش مما تُعانيه حَشَاشَتها فطالما ذَاقَتْ البَلْوَى صباحَ مسا

وهي قصيدة طويلة مشهورة.

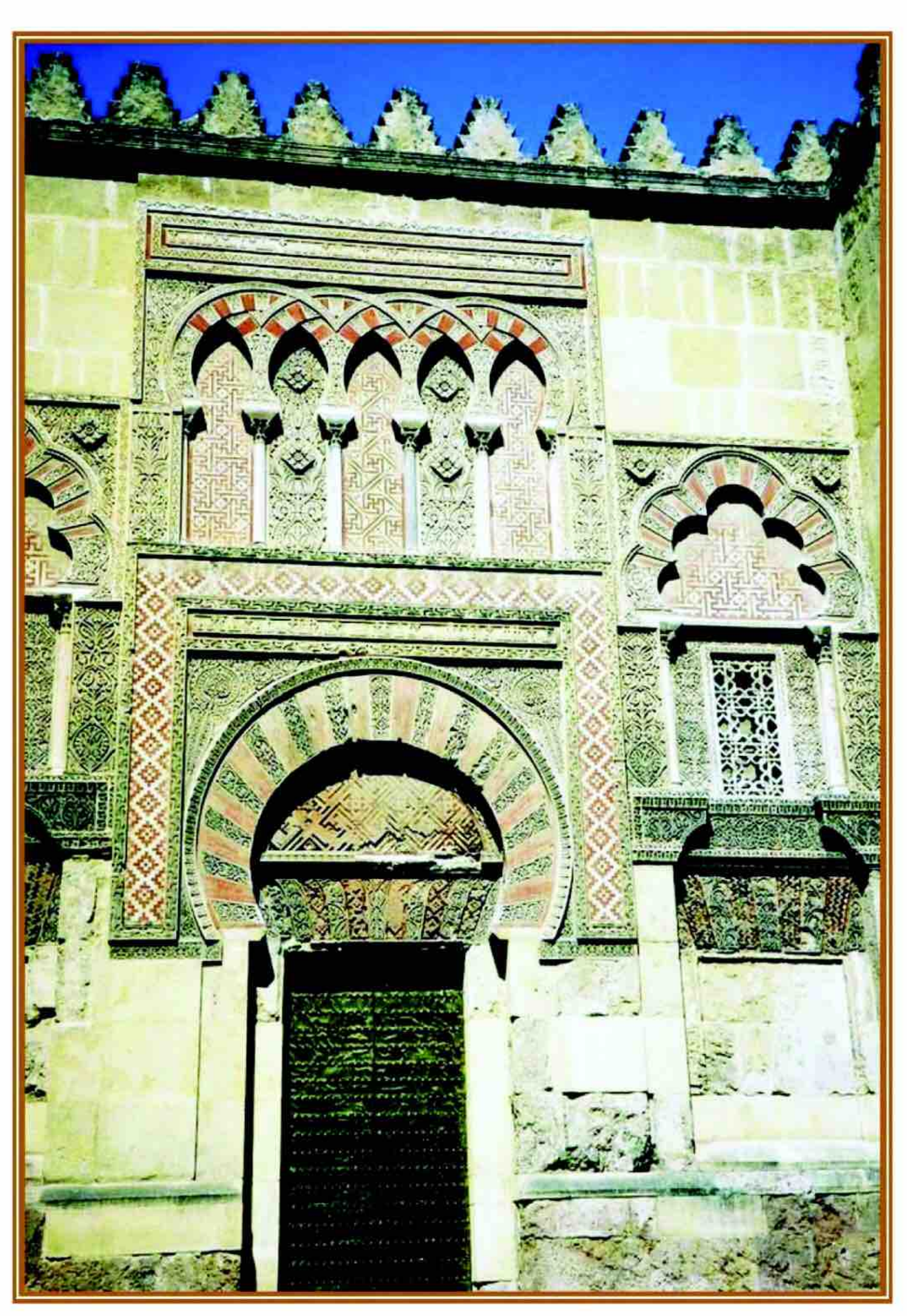
وفي نهاية الأمر أدرك أهل بلنسية أنه لابد من التسليم، فقال ابن الأبار عن ذلك اليوم وقد حضر التسليم:

«وفي هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامي من المدينة، وهو يومئذ أميرها، في أهل بيته ووجوه الطلبة والجند، وأقبل الطاغية وقد تزيا بأحسن

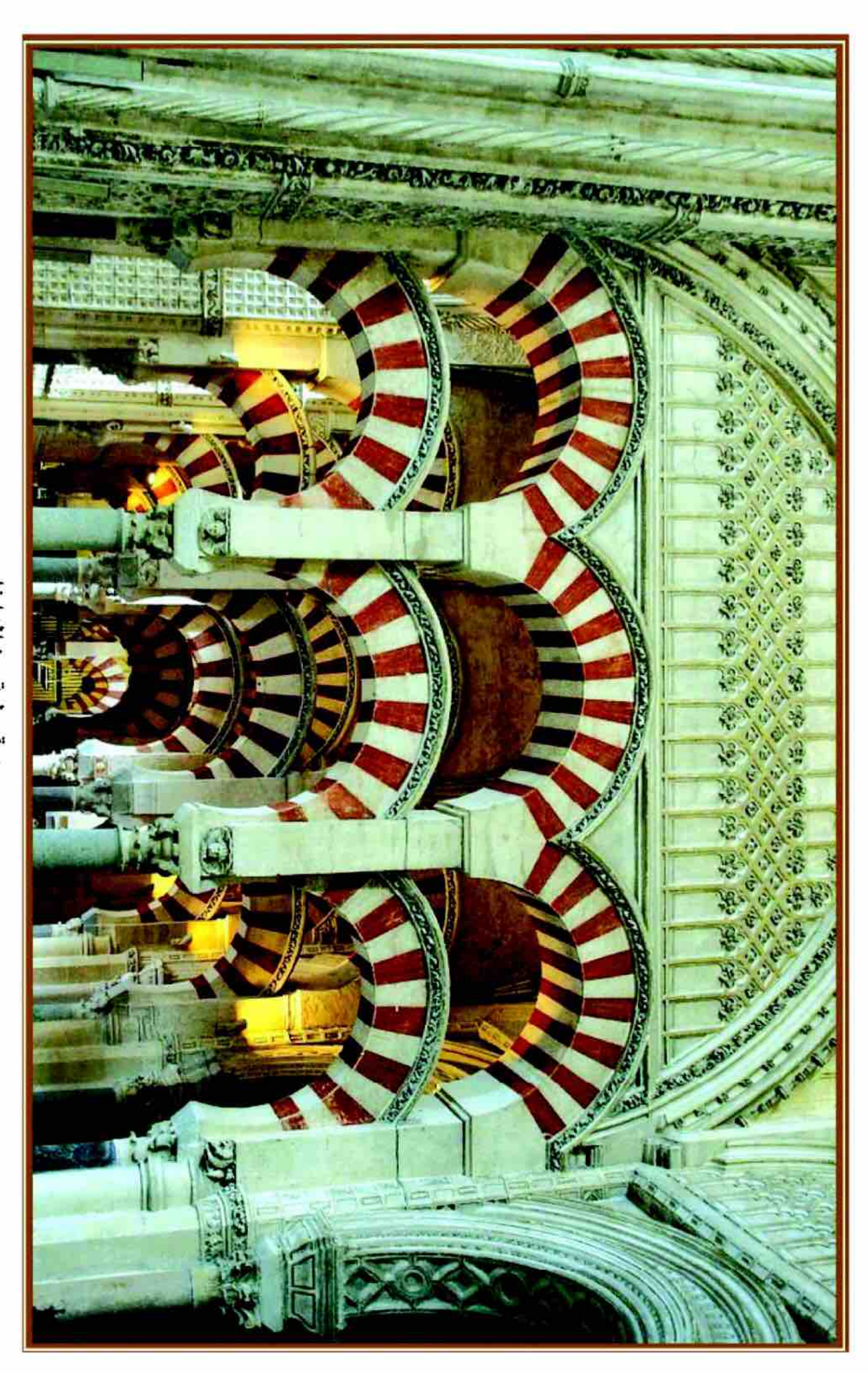
زي في عظمـاء قومـه من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلـة، فتلاقيا بالولحة، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلماً لعشرين يوماً، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم وحضرت ذلك كله، وتوليت العقد عن أبي جميل في ذلك، وابتدىء بضعفة الناس فسيروا في البحر إلى نواحي دانية، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً صبيحة يوم الجمعه السابع والعشريـن مـن صفر المذكور، كان خـروج أبي جميل بأهله من القصـر في طائفة يسيرة أقامت معه، وعند ذلك استولى عليها الروم أحانهم الله».

أمَّـا مرسيـة فبعدمـا علم أحمد بن هـود واليها بما حـدث لبلنسية وغيرهـا، رأى أنَّ مصيرها مصير غيرهـا، فأرسل وفداً إلى ولي عهد القشتاليين واسمه ألفونسو، فدخلها صلحـاً علـى أن يبقى ابن هود والياً عليها تحت لواء وطاعـة ملك قشتالة، وهكذا سقطت حبات العقد ولم يبق إلا القليل جداً.

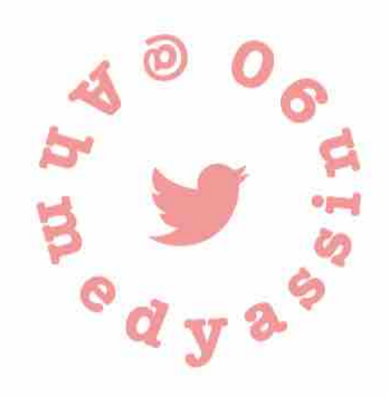




واجهة خارجية لمسجد قرطبة



مسجد قرطبة من الداخل


@Ahmedyassin90

سقوط إشبيلية

في خضم الأحداث المتوالية على الأندلس بعد خروج أبي العلي المأمون الموحدي، كانت أشبيلية تحكم نفسها ذاتياً وتقدم الولاء هنا وهناك طبقاً لما تقتضيه الظروف، فبعد مغادرة المأمون إلى مراكش بعد أن نصَّب نفسه خليفة وقوي نفوذ ابن هود في الأندلس، فقدم أهلها يد الطاعة لابن هود، وبعد ذلك بقليل نكثوا العهد وعينوا قاضي إشبيلية أبو مروان الباجي، ثم دبر ابن الأحمر مكيدة لقتل الباجي فقتله، وبعد موت قاضيهم أعادوا الولاء لابن هود، وبعد موت ابن هود أعادوا الولاء للموحدين، ثم رأوا أنَّ من الأصلح لهم موالاة أبي زكريا يحيى الحفصي في تونس بعد أن رأوا ضعف الدولة الموحدية في مراكش.

قال ابن عذارى: «ولما قفل وفد إشبيلية من تونس بعدما بايعوا الأمير أبا زكريا، وجه معهم مشتغلاً وعاملاً وبعض رجاله فوصلوا بجملة من القطائع إلى مدينة إشبيلية فاشتغلوا بما لا يصلح من الفساد، وجرت لهم فيها أمور شنيعات لايمكن ذكرها فأخرجهم أهل إشبيلية وقتلوا ابن الجد الذي كان سبباً في وصولهم إليهم، ولما قتل ابن الجد -رحمه الله- كان قتله سبباً في نزول النصارى مدينة إشبيلية لأن أدفونتش اللعين كان مصافياً لابن الجد ومصالحاً له على المسلمين، فلما مات فسد الصلح بينهم فحاصروهم».

عزم فرناندو الثالث ملك قشتالة على إسقاط إشبيلية، وكان لابد له من التجهيز، فأخذ إذناً من البابا بأن يدفع ثلث ما يقدم للكنيسة من أموال لدفع تكاليف تجهيز الحرب، كما أنه اتصل بملك ليون ليناصره طبقاً لاتفاقية مبرمة بينهما، وسار في جيش ضخم صوب إشبيلية، وأخذ كعادته في نسف ما يقع في طريقه، حتى وصل إلى فرمونة فانضم إليه ابن الأحمر في خمسمائة فارس طبقاً للاتفاقية المبرمة بينهما، وسار الجيش الضخم فكان ابن الأحمر دليلهم وواستطتهم لإقناع قادة الحصون بالعدول عن المقاومة والتفاوض على شروط يرتضيها الطرفان بدلاً من نهاية معلومة سلفاً، والحقيقة أنه ليس تفاوضاً وإنما استسلام بشروط دأب ملك قشتالة بعرضها على الحصون والمدن المستسلمة، منها: تسليم الحصن، ومعظم الحصون التابعة، ودفع الجزية، والطاعة لملك قشتالة، وحضور الاجتماع السنوي، والمساعدة في حالة الطلب.

تهاوت الحصون تباعاً حتى أضحت إشبيلية سالكة للحصار، فحاصرها مدة خمسة عشر شهراً ذاق أهلها الأمرين خلال الحصار، ورفعوا أصواتهم مستنصرين بأهلهم

وإخوانهم في مراكش، لكن أنَّى لهم في ذلك وهم مشغولون بالاقتتال فيما بينهم. وقد أطلق الشعراء لألسنتهم العنان استنجاداً بإخوانهم دون جدوى، وها هي قصيدة هارون ابن هارون المشهورة تصل إلى آذان الزعماء الموحدين والحفصيين وغيرهم دون جدوى.

فذهبت أشبيلية وبقيت القصيدة ومطلعها:

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى ... لم يرع فيك الردى إلاً ولا ذمما

جرت عليك يد للدهر ظالمة ... لا يعدل الدهر في شيء اذا حكما

ما كنت أحسب أنَّ الحادثات إذا ... همت بك السوء لا تلقي بك السلما

ولا توهمت ذاك الحسن يطمسه ... ريب الزمان ويكسو نوره الظلما

قد كان حسنك فتان الشباب فمذ ... أَصَبْتِ عوَّضْتِ منه القُبْحَ والهرما

ياجنة زحزحتنا عن زخارفها ... ذنوبنا فلزمنا البث والندما

ياسائلي عن مصاب المسلمين بها ... اصخ لتسمع امراً يورث الصمما

لما تفرقت الأهواء واضطرمت ... نار البغاة فقامت للردى علما

ونوزع الأمر أهلوه وقام به ... من لم يجد قدماً فيه ولا قدما

ثارت حفائظ للتثليث فابتدروا ... وأيقظوا من سنات الغفلة الهمما

وأنشروا ميت الأحقاد بينهمُ ... ولو أطاقوا لعمري أنشروا الرمما

ويمموا حمص في جمع يضيق به ... ذرع الفضاء فسوى الوهد والاكما

فالبحر بالمنشآت ارتج من ذعر ... والبر بالمرهفات ارتاع فاكتتما

واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم ... جسر من الفلك لا تشكو به السأما

فكم أسارى غدت في القيد موثقة ... تشكو من الذُّل أقداماً لها حطما

وكم صريع رضيع ظل مختطفاً ... عن أمه فهو بالأمواج قد فطما

يدعوا الوليد أباه وهو في شغل ... عن الجواب بدمع سال وانسجما

فكم ترى والهاً فيهم ووالهة ... لا يرجع الطرف إن حاورته الكلما

لهفي عليهم وما لهفي بمغنيه ... عمن تبدل بعد النعمة النقما

إنا إلى الله قد حلَّ المصاب وما ... من حيلة في الذي أمضى وما حتما

في كل حين ترى صرعى مجدلة ... وآخرين أسارى خطبهم عظما

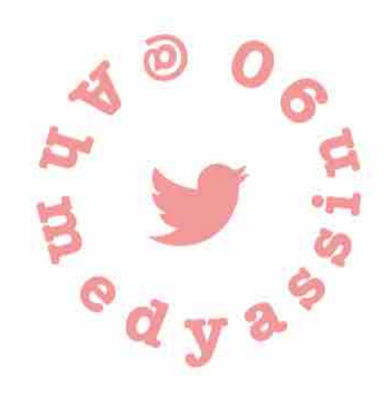
وقال ابن عذارى في صفة حصار إشبيلية:

«أحدقت النصارى بمدينة إشبيلية، وحاصروهم براً وبحراً، وأذاقوا أهلها شراً، وكان نزولهم عليها ووصول جموعهم إليها في شهر جمادى الأولى من العام المذكور، فاشتد في هذه السنة حصارها، وتملأت منهم أنظارها وأقطارها، وأخذوا خلقاً كثيراً من أهلها، واختطفوا في الأجفان بعض أطفالها، وضيقوا بها غاية التضييق، ورموا الحجارة بالمنجنيق، وعدموا المرافق كلها قليلها وجليلها، إلا ما كان في بعض ديار الأغنياء فإنهم كانوا يحتاطون في تلك الأمور، مثل الفقيه القاضي ابن منظور فإنه كان يطمع في إقلاع النصارى عن المدينة فيأمر الناس بالقتال والرمي بالنبال، والناس مع ذلك حيارى، يمشون سكارى وما هم بسكارى، ومات بالجوع خلق كثير، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير، وأكل الناس الجلود، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود، ولما انتهى بإشبيلية شدة الحصار، وعدموا الأنصار من الأمصار، وصاروا قبضة في يد أعداء الله الكفار، خاطبوا أمير المؤمنين المعتضد بالله السعيد، وكافة المسلمين من أهل عدوة الغرب يستصرخونهم، ويعرفونهم بما نالهم من الجهد العظيم، والكرب الشديد الأليم، ويرغبونهم في نصرتهم، ويحضونهم على جهاد أعداء الله الكافرين».

استسلمت أشبيلية ودخل «فرناندو» القصر بعد شهر من استسلامها وأمر بتحويل مسجدها إلى كنيسة، وكانت شروط الاستسلام تقضي بأن يترك للإشبيلين فرصة شهر لمغادرتها مع ما يحملونه من أمتعة، وكان عدد من غادرها نحو أربعمائة ألف اتجهوا إلى مناطق متفرقه، وانتهى الوجود الإسلامي بها بعد أن عاشت في ظله نحو خمسمائة وثلاثين عاماً.

وواصل فرناندو استيلاءه على المدن الصغيرة الأخرى بعد سقوط إشبيلية، وهكذا تم له ما أراد، وقد ساعده في ذلك ابن الأحمر حاكم غرناطة، تنفيذاً لاتفاق فرض عليه فامتثل له خشية زوال سلطانه.

مأساة حقيقية لحقت بالأندلسيين والإسلام من جرَّاء هذا المصير المؤلم لمدينة العلم والحضارة والقصور، والخمائل، فيالها من مأساة كان مصيرها المحتوم امتداداً لأخطاء متتالية، ومصالح متباينة.

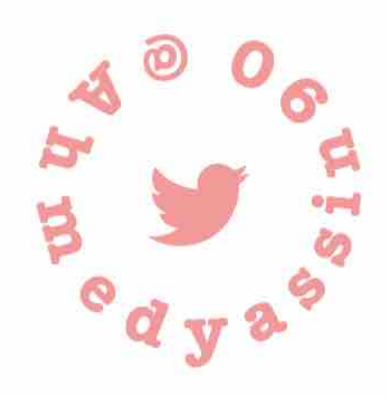

@Ahmedyassin90

الفصل التاسع

مملكة غرناطة

- محمد بن يوسف بن نصر.
- محمد بن محمد بن يوسف بن نصر.
- تنازع السلطة.
- بداية التدهور.
- السقوط الأخير.




@Ahmedyassin90

محمد بن يوسف بن نصر

مملكة غرناطة، أو مملكة بني الأحمر، أو مملكة بني نصر، مملكة نشأت في غرناطة بعد سقوط مدن الأندلس الأخرى وحصونها وقلاعها على يد مملكة قشتالة ومملكة أراجون. وشاء الله سبحانه وتعالى أن تستمر هذه المملكة المسلمة نحو قرنين ونصف بعد السقوط الكبير للأندلس، وقد نعزي ذلك لعوامل مساعدة منها قربها من المغرب، مما يساعد في سرعة الإنجاد عند الضرورة، وكذا قيامها زمن شيخوخة دولة الموحدين وقيام دولة المرينيين، وهذا يعني التعامل مع دولة فتية متحمسة في بادىء أمرها وعنفوان شبابها، إضافة إلى الشقاق والحروب التي كانت قائمة بين ملوك القشتاليين وملوك الأراجون في تلك الحقبة من الزمن، مما حدا بهم إلى الانشغال بأنفسهم عن تحقيق غايتهم في حِقَب من هذا العمر المديد رغم المناوشات والحروب التي تظهر ثم تخبو بين الفينة والأخرى، وأيضاً توافد العديد من الأندلسيين إليها بعد فرارهم من مدنهم وقُراهم إثر السُّقوط.

تحدثنا في مواقع كثيرة من هذا الكتاب عن محمد بن يوسف بن نصر وصراعه مع ابن هود، ودخوله إشبيلية وخروجه منها، ولجوئه المشين إلى النصارى لمساعدته في حروبه مع ابن هود وغيره كلما ضاقت به السبل.

وبعد وفاة ابن هود عام ٦٣٥ هـ رأى أنَّ الوقت قد حان لبلوغ مرامه والاستيلاء على ما تحت يد خصمه اللَّدود الكاره له، وكان الوالي على غرناطة من قبل ابن هود قبل وفاته عتبة بن يحيى المغيلي، وكان يأمر بسبِّ ابن الأحمر على المنابر، فثار عليه أهل غرناطة ودخلوا عليه القصر وقتلوه، واستدعوا ابن الأحمر الذي سارع بالمسير إلى غرناطة ودخلها وقت صلاة المغرب بثياب رثة، وتأخر الإمام عن دخول المسجد فسارع المأمومون بتقديم ابن الأحمر فصلَّى بهم على هيئة سفره بفاتحة الكتاب و﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ و﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ وهو متقلِّد سيفه، ثم خرج إلى قصر باديس ودخله والشموع بين يديه.

وبعد أن اطمأن على ما بيده، سار إلى ابن الرميمي الذي قتل ابن هود فحاصره في ألمرية وانتزعها منه، وكان عونه في ذلك أحد زعماء المولّدين واسمه ابن أشقيلولة، وأصبح صهراً لمحمد بن يوسف فيما بعد حيث تزوج أبو الحسن الأشقيلولي أخت محمد ابن يوسف، كما تزوج ابنه أبو عبدالله الأشقيلولي من ابنة محمد بن يوسف، وقد انضم تحت لوائه العديد من المدن والقلاع فأصبح قوة لا يستهان بها، ووجد نفسه مضطراً إلى مجابهة النصارى بعدما كان يهادنهم وذلك لانتفاضتهم عليه خشية اتساع نفوذه. ودارت معارك غير حاسمة بين الطرفين، لكن ملك قشتالة عاود السير إلى محاصرة غرناطة وجيان، فلم يجد ابن الأحمر خياراً غير الموافقة على الانضواء تحت لوائه وانقاد له بالطاعة وأصبح يؤدِّي جزية سنوية، ويساعده على أعدائه، كما أجبره على حضور المجلس القشتالي النيابي، وهذه هي المطالب الدائمة للقشتاليين أثناء حروبهم مع المسلمين.

عزم القشتاليون على الاستيلاء على إشبيلية فكان لزاماً على ابن الأحمر مساعدته -كما ذكرنا في غير موضع – فأمده بخمسمائة فارس، فكان هذا الموقف الشنيء عاراً على محمد بن يوسف الذي ساعد في حصار وسقوط دُرَّة من الدرر الثمينة التي فقدها المسلمون، وتذكر بعض المصادر أنَّ موقفه هذا كان بدافع الانتقام والحقد بعد أن أخرجه أهلها منها أثناء حروبه مع ابن هود.

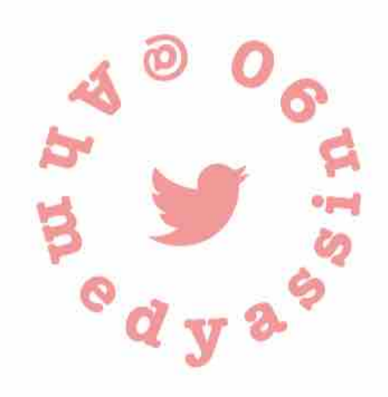
كان موقفاً لئيماً دنيئاً يدلُّ على ما وصلت إليه الأندلس في عصر الطوائف والدويلات من مآسٍ ستظل وصمة عارٍ في جبين ذلك العصر الأندلسي المظلم.

ويبدو أنه شعر بالذنب، أو أنه ضاق ذرعاً بالأغلال التي قيده بها النصارى، أو ربما بدافع الطمع بعد أن شعر بشيء من القوة والقدرة لا سيما أنه قد انضم تحت لوائه عدد من المتطوعة، كما أنه وجد استجابة من يعقوب بن عبدالحق المريني سلطان المغرب الذي أمدَّه بثلاثة آلاف مقاتل، واستطاع استرداد بعض القلاع والمدن الصغيرة، فكانت بارقة أمل لدى محمد بن يوسف بن نصر، لكن هذا الأمل لم يدم طويلاً حيث خشي ملك قشتالة الفونسو العاشر نهوض دولة مسلمة جديدة قادرة على مقارعته، فعقد العزم على المنازلة فاستولى على بعض الحصون فتوجس محمد بن يوسف بن نصر خيفة فعاد

يستصرخ المرينيين للمساعدة، لكنه لم يجد استجابة سريعة لانشغال المرينيين بحروبهم الداخلية، فاضطر أن ينزل على طاعة القشتاليين ويسلمهم بعض الحصون والقلاع وذلك عام ٦٦٥ هـ.

واستمر بعد ذلك في دعة وسكون ما عدا بعض المناوشات مع الثائرين عليه، وبعد ذلك توفي عام ٦٧١ هـ بعد أن سقط من جواده وهو عائد من إحدى غزواته أثناء محاربته بعض الثائرين عليه، وكان عمره وقت وفاته ثمانين عاماً.




@Ahmedyassin90

محمد بن محمد بن يوسف بن نصر

وتـولى الحكم بعده ابنه محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه، وكان عالماً فقيهاً، تقيـاً، ورعاً في نفسه، أما في إدارته ومحاربتـه للقشتاليين فرجل آخر، وفي الجانب الآخر نجد أنَّ ملك قشتالة الفونسو العاشر، عالم بالفَلَكِ محب للعلوم استقدم عدداً من علماء الأندلس بعد سقوطها، وقـد أعاد الكرَّة لمحاربة بني الأحمر وعاث وأفسد، فالتجأ محمد ابـن محمد بن يوسف الفقيه إلى زعيم المرينيين بفاس أبي يعقوب بن عبد الحق المريني الملقب بالمنصور طالباً النجدة، وكانت هناك حروب بين المرينيين وبين رجل يقال له يغمر أسـنُ أحد زعماء المغرب، فطلب منه الصلح ليتفرغ لقتال العدو الداهم للأندلس، فوافق واجتمعت الكلمة. وسار الجيش من فاس بقيادة أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وأخذ في منازلة النصارى عند بعض الحصون وذلك في عام ٦٧٥ هـ.

وســار الفقيه ابن الأحمـر لاستقباله غير أنه عاد والريبة تخالجـه، لتظهر لنا مأساة أخـرى من مآسي الأندلس المضحكة المبكية، فقد كان هناك جفوة بين الفقيه وبين صهره ابــن أشقيلولة، وكان ابن أشقيلولة قد وفَدَ على السلطان المريني عند عبور البحر فأدناه، فكان ذلك نذير خوف لدى الفقيه، وقد حاول السلطان الإصلاح بينهما دون جدوى.

من هنا يتضح كيف تسير الأمور في الأندلس، فحاكم يستصرخ السلطان لرد عدو متربص يريد البطش به، تعتريه الريبة بعد مقابلة السلطان لحليفه السابق وصهره لماحكات دنيئة، تنطلق وتعود لتصب في مصالح شخصية تحت مظلة حماية الإسلام والمسلمين.

بعـد أن علم ملك قشتاله بقدوم المرينيين أرسـل جيشاً ضخماً يقدر بنحو تسعين ألف مقاتل بقيادة صهره «ذنوبه»، وتقابل الجيشان فهُزم جيش القشتاليين وقتل قائده «ذنوبه»، كمـا بلغ عدد قتلى القشتاليين نحو ثمانية عشر ألـف بينما عدد قتلى المسلمين بالعشرات فقـط، وجمعـت الرؤوس وأُذِّنَ عليها لصلاة العصر، ويبدو أنَّ هناك مبالغة في عدد قتلى النصارى، ومبالغة في تخفيض عدد قتلى المسلمين والله أعلم، لكنَّها معركة كان المسلمون في حاجة لها من الناحية المعنوية حيث لم تقم لهم قائمة بعد معركة «العقاب» الشهيرة.

وهناك مأساة أخرى تدل على ما في عقول هؤلاء الحكام من بُعد عن المروءة والشهامة، فقد قام أبو يوسف يعقوب المنصور المريني بإرسال رأس «ذنونه» إلى ابن الأحمر، فقام ابن الأحمر -كما تقول بعض الروايات- بتخضيب الرأس بالطيب وإرساله إلى ملك قشتالة تقرباً إليه، وليجعلها دالَّة له عندما يحتاجه لمحاربة مناوئين محتملين في المستقبل لا سيما أنه يحمل الريبة ممن ساعدوه على ردِّ عدوه نظراً لإكرامهم صهره المنافس.

وتوفي ابن أشقيلولة صاحب مالقة، وعبر ابنه محمد إلى السلطان وبقي هناك، فأرسل السلطان والياً من قبله مما زاد في ريبة ابن الأحمر من مطامع المرينيين.

ويبدو أنَّ ابن الأحمر لم يكن يرى في المرينيين حليفاً مأموناً رغم صدقهم في الحفاظ على الإسلام بالأندلس وعدم منازعتهم لابن الأحمر سلطانه على غرناطة، ولهذا فقد بدأ في مأساة جديدة، وخزي آخر حيث طلب من والي مالقه التنازل عنها مقابل بعض المدن الأخرى والحصون فوافق، ثم اتصل بالقشتاليين للتحالف معهم لمنع أبي يوسف يعقوب المنصور المريني من عبور البحر لمقاتلة القشتاليين، وهذه من شواهد مآسي الأندلس المؤلمة.

سار جيش المرينيين وعبر البحر بقيادة ابنه أبي يعقوب، فانتصر الجيش المريني ثم عاد أدراجه، وقد نازعت قائد الجيش بعض الهواجس في السير إلى غرناطة لمحاربة ابن الأحمر نظراً لخذلانه لهم، فردعه والده السلطان.

ثم تعاون ابن أشقيلولة مع القشتاليين لمحاربة ابن الأحمر في غرناطة وانتزاعها منه، فقدم الجيش إلى غرناطة واستطاع ابن الأحمر هزيمته، لكنه بدأ يخشى تلك القوى الكثيرة المحيطة بسلطانه، ويبدو أنَّ يعقوب المنصور المريني قد أدرك ذلك فأرسل رسالة تفاهم إلى ابن الأحمر لتُهدِّئ عنه بعض روعه.

واشتغل المرينيون بحروبهم الداخلية، بينما جرى انقلاب داخلي في مملكة قشتالة حيث قام الإبن على أبيه الفونسو العاشر وكان صراعاً انتهى بهزيمة الأب، وكان السلطان المريني يميل إلى الأب بينما كان ابن الأحمر من أنصار الإبن.

وفي عام ٦٨٤ هـ اجتاز يعقوب المنصور المريني البحر، وحارب القشتاليين فانهزموا أمام قوة جيشه، وطلبوا الصلح، فاشترط عليهم عدم الدس بين المسلمين، وعدم الاعتداء عليهم وأن ترفع الضريبة عن المسلمين بدار الحرب فوافق.

وتوفي يعقوب المنصور المريني وكان بحق يبحث عن نصرة الإسلام مترفعاً عن الحروب الداخلية، صادقاً في مراميه، وتولى الأمر بعده ابنه يوسف أبو يعقوب واستمر على نهج أبيه وزادت المودة والعلاقة بينه وبين ابن الأحمر.

وفي عام ٦٩٠ هـ نقض ملك قشتالة عهده وحاصر ديار المسلمين، فأرسل له يوسف ابن أبي يعقوب المريني جيشاً بحرياً هُزِمَ فيه المسلمون، ولم يترك ابن الأحمر خذلانه للمسلمين، فقد اتصل به ملك قشتالة وسعى في إقناعه بمساعدته في الاستيلاء على بعض المدن والحصون التي بيد المرينيين فوافق بشرط تنازل القشتاليين عن مدينة طريف فوافق ملك قشتالة، فسار الجيش القشتالي وساعده ابن الأحمر بالمؤن والجنود، فانتصر ملك قشتالة لكنه نكث عهده ولم يسلمه طريف.

هذه مأساة أخرى من مآسي الأندلس بطلها ابن الأحمر الذي لم يصدق النية مع ربه أو مع أخيه وحليفه يوسف أبي يعقوب المريني، فسار في ركب المكائد والخيانة.

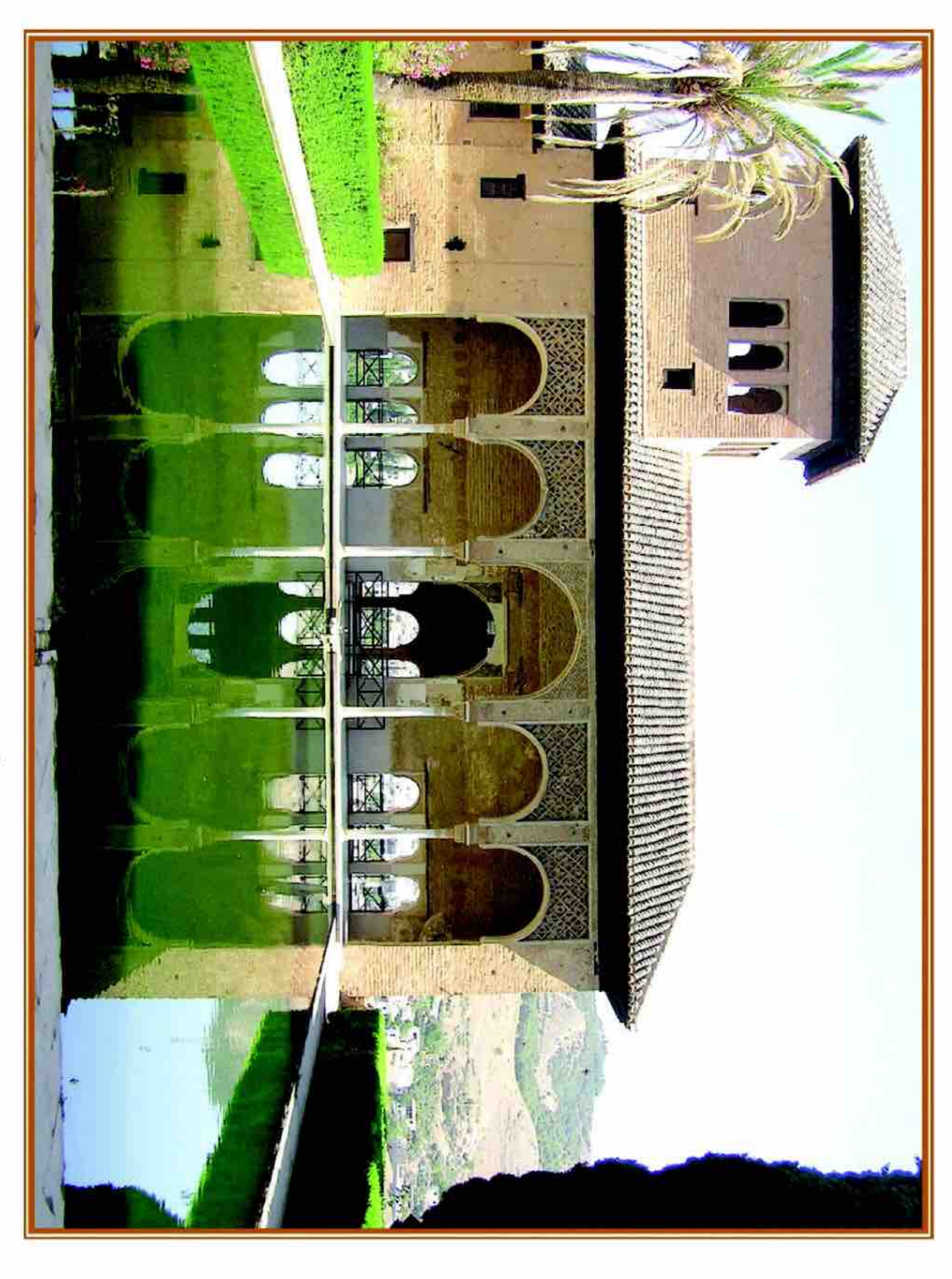
وعاد هذا اللئيم يطلب ود المرينيين مرة أخرى بعد أن أذاقهم مُرَّ الخيانة وذاقها هو من ملك قشتالة، فكان يوسف أبو يعقوب المريني نبيل الأخلاق، كبير القلب، مترفعاً عن ترهات الغدر، فقبل عذره، وأكرم وفادة رسله، وعندما بلغه ذلك سُرَّ سروراً شديداً، فرحل بنفسه إلى السلطان شاكراً له نبل أخلاقه، وعدم مؤاخذته على دنيته.

وظلت العلاقة متينة بين محمد بن محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه وبين سلطان المرينيين حتى توفي في عام ٧٠١ هـ.

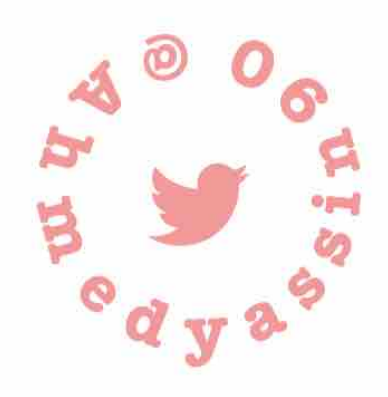




قصر الحمراء: أحد قصور حكام مملكة غرناطة
التي ظلت تمثل موقع قدم للمسلمين في الأندلس مدة مئتين وخمسين عاماً
بعد زوال الوجود الإسلامي في باقي مدن الأندلس الأخرى.



قصر الحمراء من الداخل


@Ahmedyassin90

تنازع السلطة

وبعد وفاته تولى الأمر بعده ابنه أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع، وكان ضريراً لم يدم عهده طويلاً، وكان المتصرف في شؤون الدولة وزيره محمد اللخمي، ويبدو أنَّ الوضع أعاد لنا الذاكرة بهشام المؤيد وأمه صبح مع المنصور بن أبي عامر.

وسارت العلاقة بين المخلوع ويوسف أبو يعقوب المريني على أحسن حال، ثم ما لبث ابن الأحمر أن غير مساره واتجه إلى القشتاليين لمحالفتهم ضد المرينيين، ويبدو أن الوزير محمد اللخمي كان سيء السريرة، ميكافيلياً يبحث عن تحقيق الغاية، وربما تكون الغاية لشخصه وليس لمملكة غرناطة أو أمته الإسلامية.

غضب يوسف أبو يعقوب لهذه الخيانة، فأعدَّ جيشاً عزم على أن يقوده بنفسه فاغتاله أحد الخصيان قبل أن يبدأ تسيير الجيش فمات بغدر الخصي عام ٧٠٦ هـ، وكانت حروب بين ولديه أبو سالم وأبو ثابت انتهت بتولي أبي ثابت الحكم ووفاة أبي سالم، وحدثت نزاعات في المغرب وآل الأمر إلى السلطان أبي الربيع.

وفي الأندلس ثار الناس على المخلوع ووزيره اللخمي لسوء سيرتهم وسريرتهم، فقتلوا الوزير وأسروا المخلوع، وبقي أسيراً حتى مات، فتخلصت غرناطة من الوزير الماكر والحاكم الضعيف.

وتولى أمر غرناطة شاب في الثالثة والعشرين من عمره يقال له نصر بن محمد الفقيه وهو أخو المخلوع، وكان ملك قشتالة يراقب الوضع في المغرب والأندلس عن كثب، فسار بجيشه وتعاون معه ملك الأراجون، فاستطاع المسلمون ردهم عن المرية وبعض الحصون، لكنَّ المسلمين خسروا جبل طارق الذي كان نقطة الوصل بين المغرب والأندلس، وانشغل المرينيون بحروبهم الداخلية، كما أنهم سئموا مكائد وخيانات بني الأحمر فلم يعاودوا العبور إلا لماماً.

فاضطر نصر بن الأحمر أن يبرم صلحاً مع ملك قشتالة يدفع بموجبه الجزية في مأساة جديدة ليضع يديه في القيود بعد أن تحرر منها أسلافه.

ضاق أهل غرناطة ذرعاً بما فعله نصر، فقامت الثورات هنا وهناك، وتقطعت لحمة مملكة غرناطة، وبقيت مدينة غرناطة في شغب حتى تم الاتفاق على أحد شباب بني نصر واسمه أبو الوليد إسماعيل وذلك عام ٧١٣ هـ.

انتهز ملك قشتالة وضع غرناطة وعزم على الغزو، فجاء بجيش كبير به عدد من الإنجليز والأورجوانيين، وكان الجيش الإسلامي يتكون معظمه من جنود مغاربة عاشوا في شظف الحياة ولم يتذوقوا ملذات البذخ السائدة في الأندلس، فانتصر الجيش الإسلامي وقتل قائد الجيش القشتالي، وتم تعليقه على باب غرناطة، فكان نصراً مؤزراً عندما صدقت النوايا وخلص العمل.

والحقيقة أنَّ الواقع القشتالي قد ساعد إسماعيل على إحراز بعض الانتصارات هنا وهناك، مع شجاعته وإقدامه، وقد قُتِلَ من قبل ابن عمه محمد بن إسماعيل غدراً لمزاحمته له على جارية تزهو بقسط كبير من الجمال.

وهكذا أصبح التنافس على الجواري يطيح برؤوس الحكام لدى بني الأحمر لتكون مأساة من لون جديد، وعلينا أن نشيد بحسن سلوكه ومكارم أخلاقه، فقد منع الخمور، وأزال المنكرات.

وخلفه ابنه الفتى أبو عبدالله محمد وعمره أحد عشر عاماً وذلك في عام ٧٢٥هـ، وقد غضب من وزيره فأمر بقتله عام ٧٢٩ هـ.

وكان شجاعاً يطمح رد الاعتبار لدولته، فناشد سلطان المغرب مساعدته في استرداد جبل طارق والعفو عما سلف، فوافق وسار الجيشان، واستطاعا بعد معركة شرسة استعادة جبل طارق، غير أنَّ أيدي الغدر مازالت توهن الكيان المسلم، فقد تمالأ شيخ الغزاة عثمان ابن أبي العلاء مع بعض الغزاة على إقصاء قائد الجيش وعين بدله ابنه أبا ثابت، وقد ضاق حاكم غرناطة أبو عبدالله محمد بتدخل شيوخ الغزاة المستمر في تدبير شؤون الملك، فأراد إقصاءهم وقد فطنوا لذلك فاغتالوه وهو في طريقه بعد تحقيق النصر.

وبعد وفاته تولى الأمر أخوه أبو الحجاج يوسف وهو في السادسة عشرة من عمره، وكان حازماً، فتخلص من أبناء بني العلاء شيوخ الغزاة الذين غدروا بأخيه، وعهد بمشيخة

الغزاة إلى يحيى بن عمر بن رحو، وهو من بني مرين، كما عهد بالحجابة إلى أبي النعيم رضوان الذي كان نصرانياً تم سبيه وهو صغير، فتربى في قصور بني الأحمر، قال عنه ابن الخطيب: «كان أصيل الرأي، رصين العقل، كثير التجمل، عظيم الصبر، قليل الخوف في الملمات، ثابت القدم في الأزمات، ميمون النقية، عزيز النفس، عالي الهمة، بادىء الحشمة، آية في العفة، مثلاً في النزاهة».

استمر القشتاليون في مهاجمة مملكة غرناطة، وكان الفونسو الحادي عشر حريصاً على نزعها من يد بني الأحمر، وقد أدرك أبو الحجاج يوسف عجزه عن مقارعة ألفونسو الحادي عشر، فاستصرخ السلطان أبا الحسن علي بن عثمان، سلطان المغرب، فسارع لنجدة ملك غرناطة، وعندما علم القشتاليون بقدوم الجيش المغربي، طلب الفونسو الحادي عشر من ملك أراجون في البرتغال المساعدة، فهب للنصرة وبارك ذلك البابا، وسار الجيش زاحفاً لرد جيش المسلمين القادم من المغرب، فكانت هزيمة كبيرة للمسلمين.

عزم السلطان على العبور بنفسه انتقاماً للهزيمة التي لحقت بجيشه، فسار بجيشه ولقيه جيش ابن الأحمر فسارا معاً، وزحف الجيش القشتالي مع الجيش الأرجواني نحو المعسكر الإسلامي، وقامت معركة انهزم فيها المسلمون، وتم الاستيلاء على المعسكر الإسلامي، وتم أسر كثير من أولاد وحرم سلطان المغرب، كما أنَّ حاكم غرناطة يوسف استطاع الهرب والعودة إلى غرناطة، فكانت هزيمة ساحقة للمسلمين وكان ذلك في عام ٧٤١ هـ، ولم ييأس سلطان المغرب من النصر، فعاود مقارعة القشتاليين في سبتة، فكانت معركة بحرية هُزم فيها المسلمون مرة أخرى.

وعندما أيقن ملك قشتالة ضعف المسلمين، عزم على انتزاع جبل طارق من أيديهم وسار بجيش كبير قاده بنفسه وحاصر جبل طارق حصاراً طويلاً، وكان به حامية مغربية قوية الشكيمة استطاعت الذود عنه، وكاد أن يسقط هذا الحصن المنيع، والممر المهم لولا رحمة الله بالمسلمين حيث أصيب الجيش القشتالي بمرض فتاك مات على أثره ملك قشتالة، فعاد الجيش القشتالي أدراجه دون تحقيق مآربه، وحفظ الله الحصن من عنده وكان ذلك في عام ٧٥١ هـ.

مرَّ على حاكم غرناطة بضعة أعوام سادها الهدوء، حتى كان يوم عيد الفطر عام ٧٥٥ هـ، فقد استطاع رجل مخبول كما قيل من الوصول إلى حاكم غرناطة يوسف فقتله غيلة، ولم يسطر لنا التاريخ بواعث ذلك الاغتيال، وكان عمره عند وفاته تسعة وثلاثين عاماً.

بعد وفاة حاكم غرناطة يوسف تولى ابنه محمد الملقب بالغني بالله حكم غرناطة بعد أبيه وكان صغير السن، وتولى زمام الأمر وزيره ووزير والده أبو النعيم رضوان، وسارت الأمور في بدايتها سيراً حسناً، ونشير إلى أنَّ لسان الدين ابن الخطيب، الشاعر والأديب المشهور وصاحب كتاب الإحاطة، كان من معاصري تلك الحقبة بل كان وزيراً للغني بالله، وبجانب لسان الدين كان ابن خلدون صاحب المقدمة والتاريخ المشهور كاتباً للدولة، ولذا فإن هذا العصر حظي بوجود هذين المفكرين.

ويمكننا القول: إنَّ الوباء الذي أصاب الجيش القشتالي ومات على أثره ملك قشتالة، وكذلك المنازعات الداخلية في قشتالة قد ساعدت على بقاء مملكة غرناطة في يد المسلمين، والمأساة الكبرى أنَّ هذه المنحة الكبيرة والعبرة الجليَّة لم ينتفع منها المسلمون ويعيدوا بناء أنفسهم بل زاد الأمر سوءاً لرغبتهم في الاستكانة والتبلد، وكأنهم ينتظرون مأساة أكبر تذهب بريحهم، ويزول من خلالها سلطانهم.

أبت مملكة غرناطة إلاَّ أن تسير سيرة غيرها من استلاب السلطة وتدخل النساء لتفوت فرصاً سانحة، فقد قام إسماعيل المعتقل في أحد أبراج القصر وهو أحد إخوة محمد حاكم غرناطة بتدبير الإطاحة بأخيه محمد الغني بالله الحاكم الجديد، وذلك من خلال أمِّه ذات الثروة والمال، والتي وضعتها في سبيل نيل مرامها بإطلاق ابنها واستيلائه على السلطة، فكان لها ما أرادت. فقد قامت ثورة في القصر تم بموجبها إطلاق إسماعيل من معتقله، والهجوم على الوزير أبي النعيم رضوان وقتله بين حرمه وولده، أما الحاكم محمد الغني بالله فقد كان في قصر آخر ابتناه لنفسه فاستطاع الخلاص، وبقي لسان الدين ابن الخطيب برهة من الزمن مع إسماعيل يصانعه، غير أنَّ الريبة فيه ظلت قائمة نظراً لعلاقته مع أخيه محمد الغني بالله الحاكم السابق فاعتقل، وقد سعى سلطان المغرب أبو سالم المريني لدى سلطان غرناطة الجديد إلى أن يجيز «للغني بالله» الانتقال

إلى المغرب وبرفقته لسان الدين ابن الخطيب. فسار محمد الغني بالله إلى المغرب وعاش في كنف السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن في مدينة فاس، وهكذا أصبحت فاس تضم المفكرين ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب.

وقد قام محمد الملقب بالغني بالله الحاكم السابق لغرناطة بالاتصال مع «بطره» ملك قشتالة، فلم يصغ إليه لانشغاله بحروبه الداخلية، كما حدث داخل القصر المريني حدث آخر، فقد قام وزير السلطان أبي سالم واسمه عمر بن عبدالله بقتل السلطان والاستئثار بالسلطة، فحاول محمد بن الأحمر الملقب بالغني بالله استرداد حكمه لغرناطة من خلال الوزير الجديد، فساعده قدر استطاعته وأخذ في التدبير من داخل القصر الغرناطي، فتم له ما أراد حيث قامت ثورة داخل القصر انتهت بمقتل إسماعيل فعبر الحاكم السابق محمد الغني بالله البحر ليعود إلى غرناطة بعد مقتل أخيه إسماعيل وليصبح حاكماً جديداً قديماً لغرناطة، أما قائد الثورة في القصر أبو سعيد فقد حاول الاستئثار بالسلطة غير أنه هرب عند قدوم حاكمها محمد الغني بالله ابن الأحمر، ولجأ إلى ملك قشتاله، كان ذلك في عام ٧٦٣ هـ.

وتولى لسان الدين بن الخطيب الوزارة لمحمد الغني بالله للمرة الثانية واستمر بها إلى أن كثر أعداؤه ومنافسوه فاتهم بالزندقة فخشي العاقبة فسار إلى السلطان عبدالعزيز المريني سلطان المغرب، فأكرمه وقربه ثم ما لبث أن توفي السلطان عبدالعزيز المريني وتولى ابنه الطفل شؤون المغرب، ثم تم إقصاؤه وتولى الأمر أحمد بن أبي سالم الذي كان على علاقة جيدة مع حاكم غرناطة محمد الغني بالله، فأخذ نجم لسان الدين بن الخطيب في الأفول واتهم بالزندقة وسجن ثم قتل في سجنه.

وفي غرناطة استمر حكم محمد الغني بالله إلى أن توفي عام ٧٩٣ هـ.

هكذا انتهت فترة عصيبة من القتل والغدر والخيانة لدى حكام وقادة بني الأحمر في وقت كانت البلاد أحوج ما تكون إليه رفعة ومنعة وتنظيماً، لتكون نواة لاسترداد البلاد الإسلامية وعواصمها الرائعة مثل طليطلة وقرطبة وإشبيلية.

بعـد وفاة محمد الغني بالله خلفه ولده يوسـف أبو الحجاج، وكان القائم بالأمر خالد مولى أبيه، فاستبد بالأمر وقتل ثلاثة من إخوة الحاكم الجديد وهم نصر ومحمد وسعد، ثـم ما لبث حاكم غرناطة يوسـف أن قتل وزيره وأخذ في مراسلة حاكم قشتالة للمهادنة، وأطلق عددا من فرسان النصارى لديه وأرسلهم معززين مكرمين.

وتوفي السلطان بعد حكم لم يدم سوى ثلاث سنوات.

وتـولى الأمر بعده ابنه محمد، وقـد بادر إلى مهادنة ملك قشتالـة، لكنها هدنة لم تدم حيث أغار القشتاليون على نواحي مملكة غرناطة وكثر الغزو القشتالي، فقام حاكم غرناطة محمد بالمبادرة وغزو بعض المناطق القشتالية، فمرض ومات وذلك في عام ٨١١ هـ.

وتـولى الأمر بعـده أخوه يوسف «الثالث» وحـاول مهادنة النصـارى دون خضوع فأبوا إلاَّ الحـرب فقـام يوسف لمنازلتهم، لكن الجيش القشتـالي كان قوياً بما لا يسمح ليوسف بالانتصار، وفقـدت مملكة غرناطة بعض الحصون، ثم وافق يوسف الثالث على المهادنة واشترط فـك الأسرى المسلمين، وقد وجد القشتاليون تصميمـاً من المسلمين دفعهم إلى قبول المهادنة.

وطمـع سلطان المغرب في جبل طارق فأرسـل أخاه أبا سعيد عبد الله، فلما علم يوسف الثالـث بذلـك سارع بإرسـال قوة استطاعت أسـر أبي سعيد عبـد الله، ولم يصبه حاكم غرناطـة بسوء ويبـدو أنَّ أمراً ما قد دبر بليل، فقد جهزه حاكـم غرناطة وأرسله لانتزاع السلطة من يد أخيه فتم له الأمر في البلاط السلطاني المريني.

توفي حاكم غرناطة يوسف الثالث في عام ٨٢٠ هـ، وكان من أفضل حكام بني الأحمر، لم يخضـع للقشتاليين وإنما لجأ إلى هدنة كان الطرفان في حاجة إليها نظراً لأوضاعهما الداخلية، غير أنَّ الجانب القشتالي أخذ في بناء نفسه بعد الهدنة في حين استمر الجانب المسلم في التدهور.



بداية التدهور

بعد وفاة يوسف الثالث تولى ولده محمد الملقب بالأيسر حكم غرناطة، وكان سيء الخلق، مكروها من أبناء غرناطة، مترفعاً عنهم، وكان وزيره يوسف بن سراج حكيماً حاول تغطية مساوئ خلقه فلم يستطع.

غزا القشتاليون بعض الحصون الإسلامية، ونجحوا في ذلك فكانت ذريعة لقيام الثورة عليه وتولية ابن أخيه محمد بن محمد بن يوسف الثالث الملقب «بالزغير» ويبدو أنها تحريف لكلمة الصغير، وفرَّ الأيسر إلى تونس ومكث هناك مدة من الزمن، بينما لجأ وزيره يوسف ابن سراج ذو الأرومة العربية الطائية إلى ملك قشتالة طالباً النجدة وإعادة الأيسر، فلبا ملك قشتالة الدعوة وقام لنجدته من خلال استمالة بعض رجال «الزغير» بالمال والترغيب والترهيب، وفعلت الأسلحة الخفية فعلها، ووهن بعض جند «الزغير» ووجهاء قومه أمام إغرائها.

ونما الخبر إلى «الزغير»، فأرسل بعض جنده لمقاتلة الأيسر غير أنَّ كثيراً من جنده انضم إلى الأيسر، وزحف الجمع إلى غرناطة ورأى الزغير انفضاض الجند من حوله، ومع هذا فقد أبى إلا المنازلة دفاعا عن ملكه. وهناك من يقول إنَّ جند الزغير سلموا المدينة للأيسر. أما الرواية الأخرى فإنها تذكر أنَّ الأيسر قبض على ابن أخيه الزغير وقطع رأسه وقبض على أولاده وأهله، وهناك قول آخر بأنه قبض عليه مع أخيه أبي الحسن علي بن يوسف وأودعه السجن. وبهذا خسر المسلمون ملكا صالحا بسبب الأحقاد والمنافسات والمطامع، بعد أن أمضى في الحكم عامين وبضعة أشهر.

تولى الأيسر الحكم وأعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة، وبعث إلى ملك قشتالة طالبا تجديد الهدنة واستغل ملك قشتالة الفرصة فاشترط دفع جميع التكاليف لاستعادة عرش غرناطة، فرفض الأيسر، فأراد ملك قشتالة تحييد سلطان تونس أبي فارس الحفصي فأرسل له الهدايا النفيسة، كما أنَّه عمل مثل ذلك مع سلطان فاس عبدالحق بن عثمان المريني، وطلب منهما عدم التدخل في شؤون غرناطة، فلبَّيا له رغبته.

بعد أن انتهى ملك قشتالة من ترتيب بيته الداخلي بعد قلاقل حدثت هناك عاد لمحاربة الأيسر فانهزم الأيسر فعاث ملك قشتالة في بعض الحصون ثم عاد إلى قرطبة.

عـاد الأيسـر إلى غرناطة فوجد الأمر على غير ما يبتغي فقـد انقسم الناس إلى شيع وتفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم.

والتـف خصـوم الأيسر حول رجل يسمى يوسف بن المول، أمُّه ابنة السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله، ووالده كان وزيراً لدولة بني الأحمر، واتفق يوسف بن مول مع ملك قشتالـة على الخضوع والخنـوع والطاعة لملك قشتالة إذا ما ساعـده على تولي غرناطة، فتم له ما أراد واستطاع دخول غرناطة بشروط قشتالية منها أن يحكم باسم ملك قشتالة وتحـت طاعته، وأن يكون أحد خدمه وأن يعاونـه بألف وخمسمائة فارس ضد المسلمين أو النصارى، وأن يدفع له جزية سنوية باهضة، وأن يحضر جلسات مجلس نواب القشتاليين اعترافاً بالتبعيه، فوافق على ذلك، ثم ما لبث أن مات لكبر سنه.

وقـال صاحب كتاب دولة الإسلام في الأندلس: «ومـن المدهش أن نجد تماثلا غريبا بين نصوص المعاهدة التي عقدها محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة بالخضوع لفرناندو الثالث وبين عهد الخضوع الذي وقعه يوسف بن المول والذي قطعت به قشتالة أكبر خطوة في سبيل تحقيق أمنيتها القديمة. والواقع أن هذا العهد المؤلم كان أشنع ما انتهت إليه الخلافات الداخلية والحروب الأهلية في مملكة غرناطة في تلك الفترة الدقيقة من حياتها».

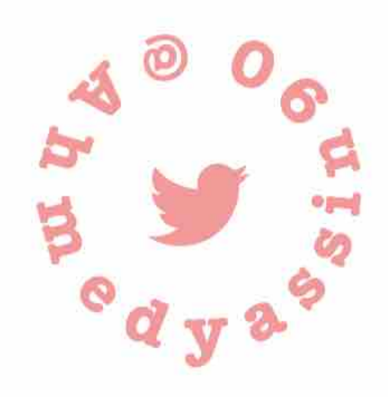
بعـد وفاته أجمع النـاس رد الأمر إلى الأيسر فتم ذلك، وكان الغزو القشتالي مستمراً غير أنه لم ينل مبتغاه من المسلمين فآثروا الهدوء إلى حين.

كان الأيسر مناضلا ضد أعدائه النصارى بعدما يئس من التزامهم بالهدنة المذلة التي كان يبرمهـا معهم، غير أنه كان سيء السياسة والتدبير داخل مملكته فكثر الأعداء وزاد المبغضـون وتداعـى المتربصون فاتجه جماعة من فرسانه إلى ملـك قشتلة طالبين العون بقيـادة يوسف بن أحمد حفيد السلطـان يوسف الثاني وابن عم الأيسر والذي يسمى ابن إسماعيـل. وهنـاك فئة تناصـر الأمير محمد بن نصر بن محمد الغني بالله وهو المعروف بالأحنف، وكان الأحنف قد تمكن من الدخول إلى غرناطة سراً، وجمع ما يمكن جمعه من

الأنصار، وعندما سمحت له الفرصة، هجم على الحمراء والحصون المحيطة بها وقبض على الأيسر وذويه وزجَّ بهم في السجن، ونادى بنفسه ملكا على غرناطة، ولم يجتمع القوم على الأحنف وتولى كبرهم الوزير ابن عبدالبر زعيم بني سراج ذوي النفوذ في غرناطة، وكان مناصـرا لابن إسماعيل، فصار ابـن إسماعيل إلى إشبيلية مع مجموعة من فرسان النصارى أمدهم به ملك قشتالة واستطاع الاستلاء على غرناطة بضعة أشهر ثم ما لبث الأحنف أن جهز قوة كافية دحر بها ابن إسماعيل واسترد الحكم مرة أخرى.

ومـرة أخرى يلعب سـوء معاملة الرعية دوراً في عدم استقرار أحوال قرطبة، فقد كان الأحنف قاسيا ظلوما عنيفا أوغر عليه صدر سراة القوم وعامتهم، ويبدو أن القوم لجؤوا إلى ابـن إسماعيل وأعادوه إلى الحكم مرة أخرى. وحـاول ابن إسماعيل تجربة الصراع مـع القشتاليين فأخـذ في غزو بعض حصونهـم مستغلا محبة أهل غرناطـة له واجتماع كلمتهـم عليه لكن ملك قشتالة كان أقوى عـدداً وعدَّة وأكثر تنظيما، فكان يناجز فرسان الحصون الإسلامية دون هوادة ويقطع الشجر ويسبي النساء ويقتل الرجال ويحرق الزرع رغبـة في المزيد من الضغط، وكانت قاصمة الظهر تلك المعركة التي حاز بها ملك قشتالة جبـل طارق فقطع التواصل الأندلسي مع المغرب، تزامـن ذلك مع شيخوخة دولة المرينية في المغـرب ثم زوال سلطانهم على يد بني الوطّاسـ. وهكذا ساءت الأحوال الإسلامية في غرناطة والمغرب بسبب أبنائها.

وكانـت المنافسـات الداخلية في أوجها بـين بني الأحمر من جهـة والأسر الكبيرة من جهـة أخرى مثل أسـرة بني سراج، وبني الأضحى، وبني الثغـري، وكذا بين الأسر نفسها ويبـدو أن ابـن إسماعيل عـزم على إنهاء نفوذ بنـي سراج وكان لنسـاء البلاط أثر كبير في هـذه المنافسات، فربمـا تضطرم المنافسات النسائية لتصـل إلى القادة فتكون الإحن والمصائـب التي تحل برزئها على العامة في غرناطـة. لقد كان سلوكاً اجتماعياً خطيراً لا يبـالي فيـه ذوي النفوذ من الرمي بأمة إلى نهاية مأساويـة في سبيل الارتماء في أحضان امرأة أرادت النيل مـن منافسة لها والغلبة عليها. فذهب الرجال والنساء والأرض والمال ولم يعد متنافسون ومتنافسات.


@Ahmedyassin90

السقوط الأخيـــر

قبـل أن نسترسل في حديثنا عن السقوط علينـــا أن نشير إلى أن ملك قشتالة فرناندو قـــد تـــزوج ملكة أراجـــون إيزابلا، واتحدت المملكتـــان في مملكة قوية متحـــدة، كما أنَّ أثر البابـــا في الفـــترة الأخيرة أصبح كبيراً نظـــراً لكونه مرجعاً دينياً وسياسيـــاً مهماً تعود له الممالـــك المتصارعة للإصـــلاح، إضافة إلى أنـــه يوفر المال والرجـــال اللازمين للحملات النصرانيـــة من خلال ما يتبرع به الأفراد والممالـــك لنصرة إخوانهم في الدين، كما ساد شيء من التغير النوعي في الكفاءة الإدارية والقدرة التنظيمية، في الوقت الذي كان العالم الإسلامي في المغرب والأندلس على النقيض من ذلك.

انتهـــى أمـــر غرناطة إلى سعـــد بن محمد بن يوســـف النصري الذي تـــوفي وكان أكبر أبنائـــه أبوالحسن الملقب بالغالب بالله، وكان عمره ثلاثـــين عاماً، وكان الصراع محتدماً بينه وبين أخيه أبي الحجاج يوسف وأخيه أبي عبدالله محمد المعروف «بالزغل» وقد توفي أبـــو الحجاج يوسف، ونازع «الزغـــل» أخاه على الحكم فصرفه عن حروب القشتاليين إلى أمد، وبعد تمرد أهل مالقة على أبي الحسن استدعوا أخاه «الزغل» وبهذا انقسمت مملكة غرناطة إلى قسمين كل قسم يتبع أحد الأخوين، وهذه بداية التفتت ما قبل السقوط.

وقـــد واصل أبـــو الحسن محاربة القشتاليين، ثم ما لبـــث أن رضخ لشروطهم وقدم يد الطاعة وقبع غارقاً في ملذاته، وكان أبو الحسن قد تزوج بابنة عمه الأيسر واسمها عائشة التي أصبحت فيما بعد والدة أبي عبدالله آخر ملوك المسلمين في الأندلس.

فقد عاشت مع زوجها وأنجبت منه ولدين هما أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف وكانت محبوبة لدى أبي الحسن، ولكن أبا الحسن استهوته فتاة اسمها «ثريا الرومية» بنت لأحد أكابـــر القشتاليين أُخِذَت سبية واعتنقت الإســـلام، وكانت فائقة الحسن والجمال، والروعة والبهاء، فسلم لها أبو الحسن مقاليد قلبه وبعد أن أحبها تزوجها، فكانت الآمرة الناهية في القصر، وأنجبت من أبي الحسن ولدين هما سعد ونصر، وحاولت بكل وسيلة إبعـــاد أبي عبدالله وتولية أحد أبنائهـــا، وواصلت السعي لدى أبي الحسن حتى استطاعت

أن تزج بعائشة الحرة وابنيها في مقصورة داخل السجن وتولي ابنها ولاية العهد، وأن يخلو لها الجو، وانقسم أصحاب النفوذ حول هذا التصرف الأرعن من حاكم غرناطة، فمنهم من جاهر برفضه سجن الحرة مع ولديها، ومنهم من مالأ الحاكم وانحاز تحت ظله، غير أنَّ تلك الأم العظيمة الشجاعة لم تهن ولم تستسلم، فقد عقدت العزم على الهرب والنضال لاسترداد ما تراه حقها وحق ابنها، فأخذت بقماش الفراش وربطته على هيئة حبل أنزلت أحد أبنائها بواسطته إلى الأسفل ثم أنزلت ابنها الآخر، كما أنها نزلت بواسطته بعد أن ربطته في أحد الأعمده لديها، وكانت قد أعدت فرسين لنقلهما خارج المدينة تحت جنح الليل فتم لها ما أرادت وتحررت من المعتقل، وسارت مع ولديها إلى وادي آشى وأعلنت الدعوة لابنها أبي عبدالله محمد، وكان أبو الحسن في أحد غزواته وبعد عودته وجد أنَّ أمر غرناطة قد تغير، فقد مال الناس إلى أبي عبدالله محمد لما لحق به من ظلم بسبب عشق هذا الشيخ لهذه الفتاة الجميلة «ثريا الرومية» وتركه لابنة عمه عائشة الحرة.

فرَّ أبو الحسن إلى مالقة حيث يوجد أخوه محمد بن سعد المعروف «بالزغل»، والزغل في العامية الأندلسية تعني البطل، وتربع أبو عبدالله محمد على كرسي الحكم بغرناطة، بينما بقي أبوه والياً على مالقة بصحبة أخيه محمد الزغل، وكان عمر أبي عبدالله آنذاك خمسة وعشرين عاماً.

وقد حاول القشتاليون غزو مالقة فحاصروها، لكن «الزغل» استطاع ردهم في معركة تسمى «الشرقية» أما أبو عبدالله فقد حاول محاكاة عمه فعزم أن يخوض معركة مع القشتاليين فسار إلى قرطبة محارباً فتم القبض عليه، ففرح به ملك قشتالة فأكرمه أيما إكرام وأبقاه لديه، ثم أطلق سراحه لسبب لم أجد له جواباً، وأبو عبدالله ضعيف الهمة واهن، وربما أنَّ ملك قشتالة وجد في صفاته ما يأمل من ورائها عودته إلى عرشه ومن ثم سهولة الانقضاض عليه وهو ما تم، ربما يكون ذلك !!! لا سيما أنَّ إطلاق سراحه لم يتم دون عهود ومواثيق تضمن في نهاية الأمر مد يد طاعته لفرناندو.

بعد فك أسر أبي عبدالله محمد، رام أخذ الحكم من عمه الزغل، فنشبت الحرب بينهما، فاستغل ملك قشتالة هذا الوضع، فسار واستولى على كثير من الحصون والقلاع،

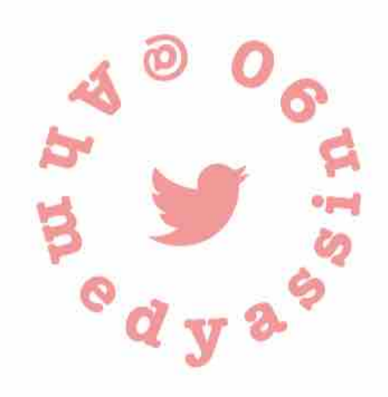
وقـد ظل «الزغـل» يصارع بقوة وبسالـة في مالقه ضد القشتاليـين دون خضوع أو جنوح، بينما كان أبو عبدالله محمد ضعيفاً يرضخ للضغوط القشتالية.

وفجأة نجد تغيراً في موقف «الزغل» فبعد أن أدرك أنَّ الاستمرار في المقاومة مستحيل سار إلى ملك قشتالة وأبدى له طاعته وخضوعه، وبقي في مالقه تحت طاعة ملك قشتالة وشروطـه، أمـا أبو عبدالله فقـد أظلمت الدنيا في وجهـه ورأى أنَّ النهاية قـد أزفت وأن الفردوس الأندلسي في طريقه إلى النزول عن آخر حبة رمل من كبريائه، فانقلب ضعف أبـي عبدالله محمد إلى قوة بخلاف عمه، واستبسل في الدفاع عن غرناطة بعد أن أحاط بها ملك قشتالة، وتم الحصار وانتهى بالاستسلام في عام ٨٩٦ هـ بعد أن حاول الاستنجاد ببنـي الوطاس وكانوا غير جديرين بالنجدة، وراسل حكام مصر فأعيتهم المشقة، وهكذا انتهـى الفصل الأخير من مأساة الأندلس بقول عائشة الحـرة والدة أبي عبدالله لابنها: «إبك مثل النساء على ملك لم تحفظه مثل الرجال».

وعاش بقيـة حياته في فاس حتى توفي عـام ٩٤٠ هـ بعد أن أغلـق الستار على الوجود الإسلامي في الأندلس وعمره نحو ثلاثين عاماً.

إنَّ المأسـاة الحقيقية في الأندلس تكمـن في لذتين، لذَّة السلطة، ولذَّة الشهوة، ومنهما انبثق كل خطر داهم الأندلس، فلذة السلطة تجعل التضحية بالناس والأرض والمال مباحة في سبيـل الإمسـاك بها، ولـذة الشهوة تجعل الحاكـم الأندلسي يضعف أمـام الجواري، والزوجات، والأبناء، والشراب فتتم التضحية بحسن التدبير، وتولية الخبير، وحفظ بيت المال من التبذير.




@Ahmedyassin90

قائمة المراجع

١. ابن الأبار، محمد بن عبدالله: التكملة لكتاب الصلة. دار الفكر. بيروت ١٩٦٦.

٢. ابن الأبار، محمد بن عبدالله: تحفة القادم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.

٣. ابن الأبار، محمد بن عبدالله: الحلة السيراء، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

٤. ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، لبنان ١٩٩٧.

٥. الإشبيلي، أبو بكر بن خير بن عمير: فهرست ما رواه من شيوخه من الدواوين المصنفة، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٣.

٦. ابن بسام، علي الشتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٠.

٧. ابن بشكوال، عبدالملك: الصلة.

٨. ابن بطوطة، محمد بن عبدالله: رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي.

٩. الثعالبي، عبدالملك: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٠.

١٠. أبو حسين، محمد صبحي: صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين. عالم الكتب الحديثة ٢٠٠٥.

١١. ابن حزم، علي بن أحمد: جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العربية، بيروت ١٩٨٣.

١٢. ابن حزم، علي بن أحمد: رسائل ابن حزم الأندلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٧.

١٣. ابن حزم، علي بن أحمد: طوق الحمامة في الألفة والإلاف، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧.

١٤. الحموي، ياقوت: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٧.

١٥. الحميري، عبدالله بن عبدالمنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، مكتبة لبنان ١٩٨٤.

١٦. الحميري، محمد بن عبدالمنعم: صفة جزيرة الأندلس، دار الجيل، بيروت ١٩٧٧.

١٧. ابن حيان، حيان بن خلف: المقتبس في أخبار الأندلس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥.

١٨. ابن حيان، حيان بن خلف: المقتبس في أخبار الأندلس، الجزء الخامس، المعهد الإسباني العربي للثقافة-مدريد ١٩٧٩.

١٩. ابن حيان، حيان بن خلف: المقتبس من أبناء أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣.

٢٠. الحميري، محمد بن أبي نصر: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧.

٢١. ابن خاقان، الفتح: قلائد العقبان ومحاسن الأعيان، مكتبة المنار الزرقاء ١٩٨٩.

٢٢. ابن خاقان، الفتح: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر ٢٠٠١.

٢٣. ابن خلدون، عبدالرحمن: تاريخ ابن خلدون «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، دار الفكر، دمشق ١٩٨٨.

٢٤. ابن خلكان، أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الكتب العلمية، بيوت ١٩٩٨.

٢٥. ابن أبي الخصال، محمد بن مسعود: رسائل بن أبي الخصال، دار الفكر، دمشق ١٩٨٧.

٢٦. الخطيب، لسان الدين محمد بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢.

٢٧. ابن دحية، عمر بن الحسن: المطرب من أشعار أهل المغرب، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٤.

٢٨. ابن دراج القسطلي، أحمد بن محمد: ديوان شعر، المكتب الإسلامي ١٣٨٩هـ.

٢٩. الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، مكتبة لبنان ١٩٩٥.

٣٠. ابن رشيق، الحسن القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دار المعارف، بيروت ١٩٨٦.

٣١. الزمخشري، جار الله عمر: تفسير الكشاف، دار الفكر، دمشق ١٩٩٧.

٣٢. ابن زيدون، أحمد بن عبدالله: ديوان شعره ورسائله، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٨.

٣٣. ابن زيدون، أحمد بن عبدالله: ديوان ابن زيدون، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى ١٩٣٢.

٣٤. الصفدي، الخليل بن أيبك: تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨.

٣٥. ابن سعيد، علي: المغرب في حلى المغرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧.

٣٦. حافظ المغربي: شعر السميسر الأندلسي، دار المناهل، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

٣٧. ابن شهيد، رسالة التوابع والزوابع، دار صادر، بيروت ١٩٩٦.

٣٨. الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٩. عباس، إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٩٦.

٤٠. ابن عمار، محمد: ديوان شعره، مطبعة الهدى، بغداد ١٩٥٧.

٤١. عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٠.

٤٢. القرطاجني، أبو الحسن حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١.

٤٣. ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم: الشعر والشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥.

٤٤. ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٩٥.

٤٥. مجهول: نبذة العصر في أخبار بني نصر، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر ٢٠٠٢.

٤٦. الجراري، عباس: صبابة أندلسية، منشورات النادي الجراري، ١٩٩٥.

٤٧. المغربي، حافظ دكتور: شعر السميري الأندلسي-العصر الحديث، لبنان ٢٠٠٦.

٤٨. المراكشي، عبدالواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الفرجاني ١٩٩٤.

٤٩. المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥.

٥٠. بنمليح، عبدالإله: الرق في بلاد المغرب والأندلس، الإنشار العربي، بيروت ٢٠٠٤.

٥١. ابن حزم، علي: نقط العروس في تواريخ الخلفاء، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.

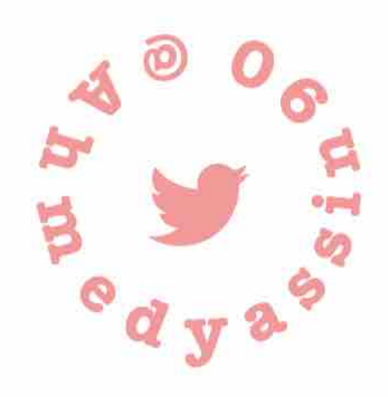
٥٢. الفاسي، علي بن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس من أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٩٩.



مُحتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة




@Ahmedyassin90



السفير

الدكتور محمد بن عبد الرحمن البشر

لقد وجدت في تاريخ الأندلس كثيرا من المآسي التي ذرفت لها عيني، وضاقت بها نفسي، واحترقت لها كبدي، ولولا أن كلمة "لو" تفتح عمل الشيطان لكان جل هذا الكتاب "لو".

نعم، لقد ضاع من الفرص ما لا يمكن حصره، بسبب معاول هدم داخلية منها المصالح الشخصية وغلبة الأحقاد ولذة النساء وحب الولد، ومعاول أخرى خارجية لم تترك نافذة يمكن الولوج منها إلاّ ووجدت وسيلة للنّفاذ من خلالها.

ضاعت الأندلس بعد أن كانت محطة عبور العلوم إلى أوروبا فترة غير يسيرة من الزمن، وكان ضياعها بأيدي أبنائها في الغالب، فما عسانا نقول، وهل لنا أن نعتبر؟

ISBN:978-603-00-0817-9

9786030008179

موضوع الكتاب: ١ - الأندلس - تاريخ